

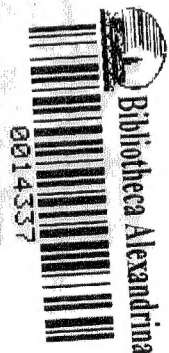
صفحات من تاريخ مصر

٣٤

تاريخ عمرو بن العاص

تأليف

د. حسن إبراهيم حسن



الناشر: مكتبة مدبولي - القاهرة

تاریخ عمرو بن العاص

صفحات من تاريخ مصر - ٣٤

تاريخ عمرو بن العاص

تأليف

د. حسن إبراهيم حسن

مدبولي

١٩٩٦

الكتاب
تاريخ عمرو بن العاص

الكاتب
د . حسن إبراهيم حسن

الناشر
مكتبة مدبولي
٦ ميدان طلعت حرب
ت : ٥٧٥٦٤٢١

الجمع والتنفيذ الفني
المركز العربي
للنشر والترجمة والحعاية
ت : ٥٧٥١٨٨٤

تصميم الغلاف
محمد لطفي

سنة الإصدار
١٩٩٦

فهرست الرسالة

الكتاب الأول

عمرو بن العاص من ولادته إلى أن ولي مصر

الصفحة	الموضوع
	الباب الأول: عمرو قبل أن يُسلم
٢٣	أ - قبيلة عمرو: بنو سهم
٢٨	ب - أسرة عمرو
٣١	ج - ولادة عمرو
٣٤	د - تربية عمرو
٣٩	هـ - احتراف عمرو التجارة
٤٣	و - سفر عمرو إلى مصر في الجاهلية
	الباب الثاني: عمرو منذ أسلم إلى أن انتهت حروب الردة.
٤٩	أ - إسلام عمرو
	ب - احترام الرسول عليه السلام مقدرة عمرو وتنصيبه قائداً لأحد الجيوش
٥٣	ج - سرية عمرو إلى ذات السلاسل
٥٤	د - سرية عمرو إلى سواع
٥٦	هـ - تولية عمرو على الصدقة بعمان
٥٧	و - عمرو وردة العرب
٦٠	

الباب الثالث: عمرو فى فتح الشام وفلسطين

- ٦٥ أ - كتاب أبى بكر لعمرو وهو بعمان وانفاذه الجيوش
لغزو سورية وفلسطين
- ٦٩ ب - وصية أبى بكر لعمرو بن العاص عند مسيره
إلى فلسطين
- ٧١ ج - شروع عمرو فى قتال الروم بفلسطين -
عمرو بن العاص يقاتل مائة ألف من الروم
- د - اشتراك عمرو فى وقائع اليرموك ودمشق
والأردن
- ٧٤ هـ - عمرو وموقعة أجنادين
- ٧٦ و - عمرو وفتح بيت المقدس
- ٧٩ ز - عمرو وهزيمة قسطنطين بن هرقل
- ٨٢

الكتاب الثانى

عمرو بن العاص كزعيم من زعماء الدولة العربية

الصفحة	الموضوع
	الباب الأول: حال مصر قبيل الفتح الإسلامى
٨٧	أ - الحالة الدينية
٩٤	ب - الحالة السياسية
	الباب الثانى: عمرو وفتح مصر
	١ - ١ - كيف عرضت لعمرو فكرة فتح مصر وكيفية
١٠٣	مسيره إليها
	ب - شروع عمرو فى الفتح واستيلاؤه على
١١٠	العريش
١١١	هـ - استيلاء عمرو على أم دنين
١١٧	و - عمرو وغزو الفيوم وواقعة عين شمس ...
١١٩	٢ - حصار عمرو لحصن بابلليون
١٢٦	أ - المقوقس
١٢٦	ب - مراسلة المقوقس عمراً بشأن الصلح
١٣٧	ج - معاهدة الصلح بين عمرو والمقوقس
١٤٥	د - رفض هرقل الصلح واستئناف القتال بين
١٤٦	المسلمين والروم

- ١٤٧ هـ - اقتحام الحصن
- ٣ - مسير عمرو إلى الاسكندرية واستيلاؤه عليها
- ١ - استيلاء عمرو على كوم شريك وسلطيس
- ١٥١ والكريون
- ١٥٤ ب - عمرو وفتح الاسكندرية
- ١٦١ ج - عمرو ونسبة حريق مكتبة الإسكندرية إليه
- ١٧٥ ٤ - ١ - عمرو وتتمة الفتح في مصر
- ١٨٠ ب - هل فتحت مصر صلحا أو عنوة
- ٥ - عمرو وتثبيت الفتح
- ١٨٥ ١ - عمرو وفتح برقه وطرابلس
- ١٨٧ ب - عمرو وفتح بلاد النوبة
- ١٨٨ ج - عمرو وانتفاضة الروم في الإسكندرية

الباب الثالث: ولاية عمرو الأولى على مصر وأعماله الإدارية فيها

- ١٩٣ ١ - عمرو ووصف مصر لعمر بن الخطاب
- ب - تحول عمرو إلى الفسطاط وتحببه إلى القبط
- ١٩٥ ورده بنيامين إلى كرسيه
- ١٩٨ ج - عمرو وتأسيس مدينة الفسطاط
- ٢٠٤ د - عمرو وتأسيس الجامع العتيق
- ٢٠٨ هـ - خطبة لعمر في هذا الجامع
- ٢١١ و - عمرو وحفر خليج أمير المؤمنين
- ٢١٦ ز - عمرو ومقاييس النيل وزيادته

٢١٧ ح - عمرو وخراج مصر فى الإسلام
٢٢٤ ى - استقرار أمر مصر لعمرو
٢٢٦ ك - اعتزال عمرو ولاية مصر

الكتاب الثالث
عمرو بن العاص
منذ اعتزل ولاية مصر إلى أن مات

الصفحة	الموضوع
٢٣٣	الباب الأول: أخبار عمرو مع عثمان
	الباب الثاني: عمرو وسياسته مع عليّ ومعاوية
٢٣٩	أ - لماذا انضم عمرو إلى معاوية
٢٤٢	ب - عمرو وموقعة صفين
٢٤٩	ج - عمرو والتحكيم (١) عقد التحكيم
٢٥٠	(٢) اجتماع الحكمين ونتائج التحكيم
	الباب الثالث: ولاية عمرو الثانية على مصر
	ب - استكثار معاوية أن تكون مصر طعمة لعمرو
٢٦٩	ونشوء الجفاء بينهما
٢٧١	ج - محاولة قتل عمرو
٢٧٢	د - بعض أخبار عمرو ومعاوية
٢٧٥	هـ - وفاة عمرو
٢٧٨	و - قبر عمرو
٢٨١	خاتمة القول في عمرو

الخرائط

- ١ - خريطة بلاد العرب فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم مبيناً بها القبائل.
- ٢ - فتح الشام وفلسطين.
- ٣ - خريطة الوجه البحرى لتوضيح الفتح الإسلامى.
- ٤ - الطريق من العريش إلى تنيس.

الصور الشمسية

- ١ - حصن بابليون والباب الذى خرج منه المقوقس أثناء الفتح.
- ٢ - الباب العمومى لحصن بابليون، وهو الباب الذى خرج منه المقوقس.
- ٣ - جزء من أطلال مدينة الفسطاط مبيناً عليه جامع عمرو وحصن بابليون والأديرة التى بينهما.
- ٤ - جامع عمرو بن العاص.

المقدمة ...

إلى أبناء وطنى العزيز، وإلى الناطقين بالضاد، وإلى الشرقيين عامة، أتقدم بهذه الرسالة، وهى صفحة من صحائف البطولة، وتاريخ بطل من أبطال الشرق، وقائد من قواد الإسلام، لا يقل أهمية عن «نابليون» و«بسمارك» وغيرهما من قواد الغرب وساستهم، أتقدم إليهم بتاريخ رجل لو كان مثبته الغرب، لما رأيت بين الغربيين إلا مترنماً ببسالته معجباً بشجاعته، متفاخراً بدهائه وحكيم سياسته.

ما أحوج الشرق والشرقيين إلى تخليد ذكرى أبطالهم وتدوين آثار عظمائهم ليتوارثها الخلف عن السلف، ولتظل كمرأة يقرأون فيها المثابرة وحب العمل، وكنبراس يصرع ساطع نوره ما يعلق بجفونهم من الكرى وينير شديد ضيائه لهم الطريق - ألا ترى القوم فى أوروبا وأمريكا يتبادلون فى أعيادهم وأفراحهم سير أبطالهم وتواريخ عظمائهم موشاة بالذهب ومكسوة بالحرير؟

هذا ما خالج نفسى عندما جلست للتفكير فى وضع رسالة أتقدم بها إلى الجامعة المصرية لنيل شهادة «الدكتوراه فى الآداب»، عقب نجاحى فى امتحان «الليسانس فى الآداب»، فرأيت فى عمرو بن العاص ما يصرف المؤرخ إلى تدوين ذكره وأثاره، رأيت فيه بطلاً من أبطال العرب، وصورة من صور حركة الانتقال من الوثنية إلى الإسلام، وهادياً من هداة الدين والعاملين على نشره فى كثير من البلدان، ورجلاً فذاً من الرجال القليلين الذين لا وجود بهم الدهر إلا نادراً، وهبه الله عقلاً راجحاً، وأنار بصيرته بنور الإسلام، قام بأعماله الجليلة بهمة لا تعرف للملل سبيلاً. تلك الهمة التى ثلث عروش القياصرة وقضت على آمال القواد العظام، وحار أمامها ذكاء مشهورى الرجال وأقطاب

السياسة، ورأيتُ له فوق ذلك صلة كبيرة بمصر والمصريين، فهو أول أمير مسلم ولى مصر بعد أن قضى على دولة الروم فيها، وأتى على الفتن والقتال بها، ورفع عن كاهل المصريين نير الروم وظلمهم، فكان عهده أول عهد الحضارة الإسلامية التي رفرت على ربوع البلاد قاصيها ودانيها، فتوطدت دعائم الأمن وساد السلام، وتألفت بحسن سياسته قلوب مختلف السكان.

ولكن لم يكن كل ذلك لينسينى عظيم المهمة وكبير المسؤولية التي أثقل بها كاهلى، فالمؤرخ مسئول أمام محكمة التاريخ فى كل العصور حاضرها ومستقبلها، ثم إن وضع تاريخ رجل كعمرو يتطلب درس العصر الذى عاش فيه: وهو عصر مترامى الأطراف بعيد المدى طويل الأمد، ويستدعى الإمام بحال الأمة العربية من قبيل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم إلى وفاته، ثم من عهد الخلفاء الراشدين إلى أوائل الدولة الأموية، ليتبين ما قام به عمرو من جليل الأعمال، من اشتراكه فى غزوات النبى صلى الله عليه وسلم، وتوليته الصدقة بعمان، واشتراكه فى حروب الردة، وفتح الشام وفلسطين ومصر وطرابلس فى عهد أبى بكر وعمر، وسياسته مع عثمان وعلى ومعاوية، ولكنى أقدمت يدفعنى حب البحث والاستطلاع، ثم ميلى لأمانة اللثام عن مسائل نسبها إلى عمرو كثير من المؤرخين، ولكنهم لم يدلوا لنا بحكمهم الصريح فيها، أو رأيهم المقنع لتطمئن له النفس ويستريح له الفؤاد، فكم تضاربت الأقوال فى نسبة حريق مكتبة الإسكندرية إلى عمرو، وكم اختلف المؤرخون فى تدخله فى الخلاف الذى كان بين على ومعاوية، وفى صلته بالمقوقس.

ومازلت انتقل فى بطون التاريخ غائصاً فى بحار أخبار عمرو، تارة فى كتب العرب وطوراً فى كتب الفرنجة والمستشرقين، علنى أهتدى بعد طويل البحث والتنقيب إلى شوارد من أخباره وشتات من آثاره، ولا

أزال أعمل فيها الفكر والعقل كي أجمعها فى عقد مكين، وكنت فى كل ذلك أتذرع بالصبر والتؤدة وأستعين بمواصلة الاستقراء، فعسى أن أكون قد وفيت عمره حقاً مما كاد أن تعفيه يد الدهر ويطمس معالمه كرسنين، وعسى أن أكون قد وفيت التاريخ بعض حقّه بإثبات ذكر بطل من أبطاله.

ولا يفوتنى أن أسدى جزيل شكرى إلى كل من حضرات أساتذتى الأجلاء: حضرة صاحب العزة إسماعيل رافت بك، والدكتور طه حسين، والشيخ عبد الوهاب النجار، والشيخ محمد الخضرى بك، لما قاموا لى به من المساعدات الجليّة - وكذا إلى كل من حضرتى الأستاذين يوسف أفندى محمد، المفتش بلجنة حفظ الآثار العربية بوزارة الأوقاف، والشيخ محمد مختار يونس، المدرس بمدرسة البنات الثانوية بالقاهرة.

وقبل أن أختتم كلمتى يجدر بى أن أذكر شيئاً يسيراً عما تؤديه الجامعة المصرية من الخدمات الجليّة للعلم والمتعلمين، وهو أمر يجله الكثيرون من الناس، حتى أن بعضهم ليزعم أن الحصول على شهادة «الدكتوراه» أمر يسير لا يتطلب سوى الانتساب إلى كلية الآداب وكفى - وهذا غير صحيح - لأنه لو كان لهذا الزعم أثر من الصحة، لأصبح من السهل جداً الحصول على هذه الشهادة، ولما رأينا عدد الحائزين لها من القلة والندرة بهذا القدر، ذلك لأن مجرد الانتساب لا ينيل شهادة الدكتوراه، هذا إذا كان الالتحاق بالجامعة أمراً سهلاً، مع أنه لا بد أن يكون الطالب حائزاً لشهادة الدراسة الثانوية قسم ثان أو ما يعادلها - فإن الطالب يتلقى آداب اللغة العربية وتاريخها، وتاريخ آداب اللغة الإنجليزية أو الفرنسية، وتاريخ الأمم الإسلامية، وتاريخ الشرق القديم، والجغرافيا وعلم وصف الشعوب، والفلسفة العربية وعلم الأخلاق، والفلسفة العامة وتاريخها، ومقارنة الآداب واللغات السامية - ولا يجوز له أن يتقدم

للامتحانات التحريرية والشفوية لإجازة «الليسانس» إلا فى نهاية السنة الثالثة بعد نجاحه فى كل هذه المواد بنسبة «ستين فى المائة» على الأقل فى السنتين الأولى والثانية.

بعدئذ يستطيع أن يختار لنفسه مبحثاً يكون موضوع رسالة يكتبها ويتقدم بها لامتحان «الدكتوراه» لو رأت الجامعة صلاحيتها لذلك مبدئياً، وحينئذ تناقشه حسابها لجنة من أساتذة الجامعة، ينتظم فى عقدها مندوبان من قبل وزارة المعارف العمومية - ويكون قد سبق لهؤلاء המתحنيين فحصها - على رأى من الجمهور ومسمع، وتناقشه أيضاً فى موضوعين من بين ثلاثة موضوعات فى ثلاث من المواد التى تدرس بقسم الآداب.

وينبغى أن يفهم أيضاً أن الأمر غير قاصر على سماع محاضرة الأستاذ فحسب، بل هو عكس ذلك، فما الأستاذ بمحاضره إلا كمرشد للطلاب يدلّه على طرق البحث والتنقيب، وذلك ما ترمى إليه الجامعة (ككل الجامعات) من تثقيف عقل الطالب وتنمية مداركه، ليستطيع كشف ما غمض من أسرار المسائل وما خفى من المعضلات. على أن ما يتلقاه الطالب بقسم الآداب بالجامعة لا يقل عما يتلقاه أى طالب آخر من الآداب فى جامعات أوروبا وأمريكا. هذه حقيقة يجب الاعتراف بها، ويجب أن لا يبخس حقها.

ولكن هل فى الجامعة المصرية أقسام نظامية غير قسم الآداب؟ وهل تدرس بها تلك العلوم الهامة الضرورية لترقية شأن مصر من فلك وطب وهندسة وسياسة وتربية واقتصاد وتشريع وكيمياء؟ وهل لها من بين متخرجيها بعوث فى مختلف الممالك المتمدينة لدراسة طرق التمدين والحضارة، وللتخصص فى العلوم الراقية لتستعين بأفرادها على نشرها فى مصر؟ كل هذه أسئلة يحسن الإجابة عليها أغنيائنا

الكرام، أصحاب الغنى الطائل والثراء، وذوو العقل والمفكرون فى البلاد! تلك أسئلة تعقد اللسان خجلاً وتذيب القلب أسى، وتفتت الكبد حزناً وغماً. نعم سيجيبون عليها بالصمت الطويل، ولكن هاكم الجواب:

تقول جريدة «الدلى ميل» الإنجليزية فى تقويمها عن سنة ١٩١٥م ما نصه: «إن الأهمية العظمى التى يظهر أثرها فى التعليم بالولايات المتحدة إنما ترجع إلى ما يصرف عليه سنوياً من الأموال التى بلغت فى سنة ١٩١٥م «مائة مليون من الجنيهات» منها «نصف واثنان وعشرون مليوناً» تبرع بها المحسنون ومحبو العلم على جامعات كولومبيا وهارفارد وكورنل وشيكاغو وبيل وستاتفورد».

وتقول دائرة معارف «هارمزورث» فى الكلام على تاريخ حياة «توماس جى»: «كان عاملاً عند بائع كتب فى لندن، فتعلم منه أسرار المهنة، واستطاع بعد زمن أن يجمع لنفسه ثروة، فأنشأ قبل موته مستشفى فى لندن لا يزال يسمى باسمه حتى اليوم، صرف عليه ثمانية عشر ألف جنيه وسبعمائة وثلاثة وتسعين، ثم وهبه مائتى ألف جنيه؛ وهذا المستشفى فضلاً عن أن به ستمائة وسبعة وأربعين سريراً لأيواء المرضى، فأنتك ترى فيه مئات من الطلبة يتلقون علم الطب والكيمياء على أشهر أساتذة العصر».

ومن قولها أيضاً فى ترجمة حياة «أندروكارنيجى» «لهذا المحسن الكبير هبات طائلة كثيرة منها: (وقف الأبطال) منه مليون من الجنيهات خصصت أرباحه لمكافحة من استطاعوا تخليص الإنسانية بعمل سام، كاختراع أو اكتشاف أو غيره فى الولايات المتحدة وكندا، ثم (وقف السلم) ومنه مليوناً جنيه خصصت أرباحها لنشر التعليم والمسابقات وترقية فن الهندسة والقانون والتاريخ، ثم (اعتماد كارنيجى) وقدره مليوناً جنيه لإتمام تعليم الطلبة الأسكتلنديين الذين عاقهم الفقر فى

أربع جامعات خصصت لذلك، وله هبات عديدة أخرى لا تدخل تحت
حصص.

ولقد تضيق صفحات الكتاب بأجمعه دون استيعاب أسماء
المحسنين فى الولايات المتحدة وانكلترا وغيرها من البلاد المتمدنية الذين
نصروا العلم وعملوا على ترقيته.

وهل لا يكون من المخجل أن يوجد فى مصر جامعة واحدة لا
يدرس بها شئ يذكر بجانب ما يدرس فى غيرها من الجامعات فى
البلدان الأخرى، تلك الجامعات التى لا يكاد يأتى عليها حصص، والتى
تغدق عليها هبات المحسنين اليس عاراً أن ينكر أغنيائنا ما فى أموالهم
للعلم والتعليم من حق معلوم؟ اليس أمراً مخزياً أن لا يحركهم ذلك
المثل الحى الذى ضربته لهم تلك المحسنة الكريمة المرحومة المبرورة
الأميرة فاطمة إسماعيل بتبرعها للجامعة بنصيب من حليها وأموالها،
فتراهم بعد كل ذلك يتكالبون على مالهم ويعضون عليه بالنواجذ،
وينكرون العلم ويتجاهلون أمر التعليم؟

ليس بضائركم أيها الأغنياء أن تتبرعوا بالقليل من مالكم - وهو
والحمد لله كثير - للجامعة فتعلوا قدرها وتعزوا شأنها، فلا يتقاعد
ذوو السلطة والمناصب السامية فى الحكومة من أعضائها عن إصلاح
شأنها، ويضطر القائمون فى الحكومة بأمر التعليم بالاعتراف بمركزها
الأدبى ومقامها العلمى اعترافاً جدياً، فلا تثبط همم المتخرجين فيها، ولا
يقعد غيرهم عن السعى إليها، وتقوى نفوس الشبيبة المتطلعة إلى العلم.

القاهرة فـ ٢٣ يناير سنة ١٩٢٢

حسن إبراهيم حسن

الكتاب الأول

**عمرو بن العاص من ولادته إلي أن
ولي فتح مصر**

الباب الأول

{ عمرو قبل أن يُسلم }

١ - قبيلة عمرو

بنو سهم:

لما كان من قصدنا أن ندرس حياة عمرو بن العاص السهمي القرشي، الذي نضع له رسالتنا لتقصي أخباره وتتبع آثاره وفتوحه وسياسته وأخلاقه، لزم أن نذكر كلمة يسيرة عن عشيرته بنى سهم. لأن للبيئة التي يولد فيها الشخص ويتربّع تأثيراً كبيراً في نشأته وأعماله. وبالإحاطة بها يسهل استنباط الحكم على حياة الرجل مما يحيط به من المؤثرات.

ولكن التاريخ لم يحفظ لنا لسوء الحظ شيئاً ذا غناء، وإنما هي أخبار مبعثرة ليست بذات الخطر، ولا بالتي تمثل لنا حياة هذه القبيلة تمثيلاً صحيحاً واضحاً. فكل ما نعرفه هو أن بنى سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى بطن من بطون قريش، اشتهروا في الجاهلية وفي الإسلام بمناقب رفيعة، وكانوا من أصحاب السيادة والسلطان في مكة، وكان لهم في إدارة شئون قريش نصيب كبير صاروا به ذوى بأس وكرم وعز وجاه وسلطان.

وقد ذكروا أن بنى سهم كانوا أصحاب الحكومة في قريش قبل الإسلام، ولسنا ندري حقيقة هذه الحكومة، ولكننا نعلم أن قد كانت العادة عند العرب وعند غيرهم من الأمم في عصورها الأولى أن تنقسم الأسر الكبيرة بينها الأعمال الاجتماعية. فلعل هذه الحكومة كانت شيئاً يشبه القضاء. بحيث كان يحتكم القرشيون وغيرهم ممن يفد على مكة من العرب إلى بنى سهم، أو بعبارة أصح إلى زعماء بنى سهم فيما كان يقع بينهم من الخصومات. هذا شيء يظهر أن ليس فيه من شك. فإذا عرفنا أن الذين قد اختصوا بالحكومة عند العرب في الجاهلية إنما كانوا أصحاب رأى وحلم ودهاء (وكلنا يعلم ما يروى عن أكتف بن صيفى وذى الأصابع العدوانى وغيرهما من حكماء العرب). وإذا كانت الحكومة قد

بقيت محصورة فيهم زمناً طويلاً حتى كان الإسلام، فليس من شك في أنهم قد احتفظوا بما كانت تستلزمه هذه الحكومة من عادة وخلق. ولا شك في أنهم قد استبقوا بقدر ما استطاعوا دهاءهم وحلمهم وحزمهم بل لا شك في أن هذا قد أصبح كأنه خلق يتوارثونه ويتناقلونه وليس من البعيد أن يكون لذلك شيء من الأثر فيما سيمتاز به عمرو من الحذق السياسى والدهاء العظيم.

وكانت لبنى سهم أيضاً الرئاسة على الأموال الخاصة بالهتهم وهى أشبه شيء بالأوقاف العامة، ففى قبضة صاحب هذه الوظيفة الأموال المحجرة (كما كانوا يسمونها) يتصرف فيها على حسب ما تقتضيه القواعد التى جروا عليها فى العمل بأموال أوثانهم، ولاشك فى أن هذا يستلزم غير قليل من التدبير وحسن القيام على الأموال. وهذا شيء قد ظهرت آثاره فى حياة عمرو كما سترى. فقد كان حسن العناية بجمع المال واستثماره. لم يقتصر فى ذلك وربما أسرف. وأية ذلك قوله لمعاوية حين سألته عما بقى مما يستلذه: مال أغرسه فأصيب من غلته وثمرته.

اشتهر بنو سهم بالعز والشرف والشعر وفصل الخصومات والكرم واليسار وغيرها من الصفات، فكان منهم قيس بن عدى الذى كان يضرب به المثل فى العز. فيقال كأنه فى العز قيس بن عدى، ومنهم من اشتهر بالكرم وقرى الضيف؛ وهو الحارث بن سعيد بن سهم، واشتهر نفر منهم بالشعر من أمثال عبد الله بن الرُّبْعَرى بن قيس بن عدى أحد شعراء قريش المعدودين، وكان من أشد الشعراء على المسلمين قبل فتح مكة.

ولا يفوتنا ما كان للعاص بن وائل أبى عمرو من السيادة والجاه والشرف فى الجاهلية (كما سيأتى) فقد كان كبير بنى سهم وزعيمهم فى يوم الفجار الثانى قبل الهجرة. وكان تاجراً من ذوى اليسار فى مكة تجوب تجارته الشام واليمن وغيرهما من البلاد. وما كان لابنيه هشام

الذى كان من المهاجرين الأولين واستشهد باليرموك. وعمرو ما كان لابنيه عبد الله ومحمد من الشهرة فى الأدب وإصابة الرأى. وقد اشتهر بنو سهم بإقامة دعائم العدل فى الجاهلية، وكانوا كذلك فى الإسلام، وكان أول من ولى القضاء بمصر منهم قيس بن أبى العاص بن عدى واشتهر بالشرف والثراء وقرى الضيف. وكان أول من بنى بمصر داراً للضيافة وولى القضاء بمصر ابنه عثمان بن قيس فى آخر سنة من خلافة عمر رضى الله عنه. واستمر على ذلك إلى سنة ٤٢هـ فى خلافة معاوية، ومنهم قيس وعبد الله أبنا حذافة ابن قيس بن عدى وكانا من السابقين إلى الإسلام، وصحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهاجرا إلى الحبشة. وحمل عبد الله كتاب النبى إلى كسرى يدعو إلى الإسلام.

تعلم مما تقدم أن بنى سهم اشتهروا فى الجاهلية والإسلام بالشرف والعز وفصل الخصومات والكرم وقرى الضيف واليسار والأدب والشعر والجاه وغيرها من الصفات التى أنبتت فى نفوس أبنائهم الأخلاق الفاضلة والعادات السامية. وكان لها أعظم الأثر فى تكوين أفراد أبنائهم النابهين.

وكان عمرو بن العاص أثراً من آثار قومه، ورث عن آبائه كثيراً من المواهب النادرة التى أهلت له لأن يقوم بما عهد إليه من الأعمال خير قيام بما اشتهر عنه من بعد النظر والدهاء والشجاعة وعلو الهمة والفصاحة وغيرها.

لا نكران أن للبيئة التى يولد فيها الطفل ويطرعرع تأثيراً كبيراً فى تكوينه^(١).

١ - راجع خزنة الأدب جزء ٣ ص ١٠١ - ٣٠٢، الكامل للمبرد طبع باريس. والأم والملوك لابن جرير الطبرى. الأغانى للأصفهاني طبع بولاق، وأسد الغابة فى معرفة الصحابة. والإصابة فى تمييز الصحابة. وسبائك الذهب للسويدي.

ب - أسرة عمرو

(١) العاص أبو عمرو : هو العاص بن وائل بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب السهمى القرشى . كان من سادات العرب وأعيانهم وأشرافهم فى الجاهلية ، وكان كبير بنى سهم وزعيمهم فى يوم الفجار الثانى قبل الهجرة أدرك الإسلام ولم يسلم ، وكان من المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، اشتهر بطعنه عليه وإيذائه لأصحابه وإنكاره للدعوة الإسلامية . وهو القائل لما مات القاسم ثم عبد الله أبنا النبى عليه السلام^(١) : إن محمداً أبتـر . فأنزل الله فيه ﴿إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ : أى المقطوع عن الخير ومات بعد هجرة النبى بشهر وعمره خمس وثمانون سنة . كما رواه ابن الأثير فى تاريخه^(٢) .

وقد كان العاص بن وائل تاجراً فى الجاهلية ومن ذوى اليسار فى مكة ، والظاهر أنه كان يتجر ببضائع اليمن والحبشة إلى الشام ، وببضائع الشام إلى اليمن . كالجلد من اليمن والطيب من الحبشة والزبيب والتين ونحوه من الشام .

واتفق ذات مرة أن ابتاع العاص سلعة من رجل من زبيد من اليمن فمطله العاص حتى عيل صبره وأعيته الحيل فعلاجبل (أبى قبيس) وقريش حول الكعبة وجعل يتظلم بشعر رقيق وهو يقول :

يا للرجال لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائى الحى والنفر

إن الحرام لمن تمت حرامته ولا حرام كيومى لا بس الغدر

١ - ذكر ابن الأثير أن العاص قال ذلك لما مات إبراهيم . وهو يخالف ما ذكره ابن إسحق من أنه قالها لما مات القاسم ثم عبد الله وهذا أصح .

٢ - الكامل لابن الأثير جزء ٢ ص ٢٩ .

فاجتمعت قريش، واجتمعوا أمرهم على الاجتماع بدار عبد الله بن جدعان. حيث تحالفوا على أن ينصروا المظلوم من الظالم. فسمى هذا (حلف الفضول) وشهده رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ونذكر ياقوت في معجمه أن سعيد بن المسيب^(١) مرفى بعض أزقة مكة فسمع مغنياً يغنى من دار العاص بن وائل قصيدة منها:

تضوع مسكاً بطن نعمان إن مشيت به زينب في نسوة عطرات
فضرب برجله الأرض وقال: هذا والله مما يلذ استماعه ومنها:

وليست كأخرى أوسعت جيب درعها * وعضت بنان الكف للجمرات
وعلت بنان المسك وحفاً مرجلاً * على مثل بدر لاح في الظلمات
وقامت تراءى يوم جمع فافتنت * برؤيتها من راح من عرفات
ومن هنا نستدل على أن بنى العاص بن وائل كانوا مولعين بالطرب، محبين للأدب، ميالين لسماع رقيق الشعر ومستملحه. وقد ذكرنا فيما سبق نفرًا من بنى سهم قالوا الشعر وأجادوا فيه ومن بينهم عمرو بن العاص (كما سيأتى) ولا يبعد أن يكون سعيد بن المسيب قد سمع هذه القصيدة من إحدى الجوارى في بيت العاص أو من بعض أبنائه:

وكان للعاص من الأولاد عمرو وهشام. وكان هشام أصغر من أخيه عمرو. وأمه أم حرملة بنت هشام بن المغيرة وهى خالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

(٢) سلمى أم عمرو: سأل رجل عمرو بن العاص عن أمه فقال: سلمى بنت حرملة تلقب النابغة من بنى عدى^(١) أصابتها رماح

١ - ولد سعيد بن المسيب بعد خلافة عمر بسنتين. فإن كان سمع شيئاً من دار العاص فيكون بعد وفاته بأكثر من نصف قرن.

العرب فاشتراها الفاكه بن المغيرة ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان ثم أصبحت إلى العاص ابن وائل فانجبت فإن كان جعل لك شيئاً فخذ.

وقد ذكر المبرد (ص ٤٧٧) فى كتابه: سئل عمرو بن العاص عن أمه، ولم تكن فى موضع مرضى فأتاه الرجل وهو بمصر أمير عليها فقال: أردت أن أعرف أم الأمير. فقال نعم كانت من عنزة^(٢) تسمى ليلى وتلقب النابغة. اذهب وخذ ما جعل لك. وقيل له مرة أنت أفضل أم هشام؟ فقال عمرو: إن لهشام على أربعة: أمه ابنة هشام بن المغيرة وأمى عنزية. وكان أحب إلى أبى منى ويصر الوالد بولده من قد عرفتم وأسلم قبلى واستشهد وبقيت. (كتاب المعارف لابن قتيبة ص ٩٦).

وقال صاحب السيرة الحلبية (ج ١ ص ٥٤): يقال أنه وطئها (أم عمرو) أربعة وهم: العاص وأبو لهب وأمىة بن خلف وأبو سفيان بن حرب، وادعى كلهم عمراً فألحقته بالعاص. وقيل لها: لم اخترت العاص؟ فقالت: لأنه كان ينفق على بناتى. وكان عمرو يعير بذلك. غيره على وعثمان والحسن وعمار بن ياسر وغيرهم من الصحابة.

وإذا صح ذلك فلا حق لهم فى ذلك، ولا يؤاخذ عمرو وبما كان من أبيه واندفاعه فى تيار شباب الجاهلية. ولا يلحقه العار من سبى أمه وطالما يحدث مثل هذه الأمور فى الحروب، ويقع عليه القوم فى مخالف المحاربين حيث لا مناص من الوقوع. وكما أن أبا بكر لم يلحقه العار بأمه سمىة أم زياد، فكذلك عمرو، والإسلام يجب ما قبله.

١ - بنو عذرة بطن من قضاعة من القحطانية: وهم بنو عذرة بن سعد هذيم بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحافى بن قضاعة. وقد سكنت عدة عشائر من قضاعة فى الأخطاط التى بين المدينة وينبع إلى الشمال فى متسع من أرض الحجاز. وبلاد عذرة وراء ذات القرى بينها وبين المدينة عشرة أيام.

٢ - بنو عنزة بطن من أسد بن ربيعة وديارهم عين التمر من بركة العراق على ثلاث مراحل من الأنبار ثم انتقلوا عنها إلى جهات خيبر فأقاموا هناك.

ج - ولادة عمرو

لم تتفق كلمة المؤرخين فى تحقيق ثبوت السنة التى ولد فيها عمرو، وفى سنة حين توفى. ولم يمكنهم بالطبع تحقيق الأمر الثانى، لأنه مبنى على الأمر الأول: أى سنة ولادته.

وقد روى ابن حجر فى كتابه (الإصابة فى تمييز الصحابة) (ج ٥ ص ٣) إن عمر عمرو بن العاص حين ولد عمر بن الخطاب كان سبع سنين وأنه مات بعد عمر بعشرين سنة.

وذكر ابن خلكان والواقدي، وأخرج ابن حجر عن يحيى بن بكير أن عمرو بن العاص عاش تسعين سنة. وقال العجلي إنه عمر تسعاً وتسعين سنة (الإصابة ج ٥ ص ٣). وقال ابن قتيبة فى كتاب (المعارف ص ٩٧) إنه مات وهو ابن ثلاث وسبعين، ومات سنة ٤٢ أو سنة ٤٣ أو ٥١ للهجرة^(١) وإن أبته عبد الله مات سنة ٦٥ للهجرة وهو ابن اثنتين وسبعين سنة. وأنه كان أصغر من أبيه عمرو بأثنتى عشرة سنة. أهـ.

وإذا صح ذلك فتكون ولادة عبد الله سنة ٧ ق. هـ (٦١٥ م) وولادة عمرو سنة ١٩ ق. هـ (٦٠٢ م). وتكون سن عمرو حين توفى (على ما ذكره ابن قتيبة) اثنتين وستين سنة.

وقال ابن قتيبة أيضاً: إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مات وهو ابن خمس وخمسين سنة. وأخرج عن الواقدي أن سن عمر بن الخطاب كانت حين حضرته الوفاة ثلاثاً وستين سنة. وعلى هذا تكون ولادة عمر سنة ٤٠ ق. هـ (٥٨٢ م)، وولادة عمرو سنة ٤٧ ق. هـ (٥٧٥ م): أى

١ - ذكر بطر فى كتابه (ص ٥٦٤) خطأ أن ابن قتيبة ذكر أن عمر مات وهو ابن إحدى وخمسين سنة. مع أنه لم يذكر هذا العدد إلا عند كلامه على وفاته فقال: وقد اختلف فى موته فقل سنة ٤٢ وقل سنة ٤٣ وقل سنة ٥١.

قبله بسبع سنين. فتكون سن عمرو حين توفى تسعين سنة.

ولا يمكن مع ما قدمناه الاهتداء إلى رأى قاطع لسببين:

١ - لأن سن عمر بن الخطاب حين توفى مشكوك فيها. فمن قائل إنه مات وله ٦٣ سنة ومن قائل ٥٥ سنة.

٢ - وكذلك فى عيد الله بن عمرو فقد ذكر ابن قتيبة إنه توفى سنة ٦٤. وذكر فى أسد الغابة (ج ٣ ص ٢٣٣)، سنة ٦٣ وقيل سنة ٦٥ بمصر، وقيل سنة ٦٧ بمكة وسنة ٥٥ بالطائف وسنة ٦٨ وسنة ٦٣ مما يدل دلالة واضحة على التخبط البين فى روايات المؤرخين. بحيث لا نستطيع الجزم بأن عمرو بن العاص توفى وله تسعون سنة أو تسع وتسعون أو أكثر أو أقل.

ولم يقتصر المؤرخون على هذا. بل ذهبوا إلى أبعد منه فذكر أبو المحاسن أن عمرو بن العاص مات وله تسع وتسعون سنة وقيل مائة سنة، وذكر النووى أنه مات وسنه سبعون سنة.

وقد رجح بطر قول النووى على غيره من الأقوال:

١ - لأنه لو مات وهو ابن تسعين سنة لكانت سنه حين فتح مصر ستا وستين سنة. أعنى أنه قد طعن فى السن. بحيث ما كان يمكنه أن يقود الجيوش إلى ساحات النصر. ويتحمل مشاق الحرب وهو فى مثل هذه السن.

٢ - ولأنه لا يتصور أن يقوم بتمثيل أدوار الحرب والسياسة فى موقعة صفين، وعند عقد التحكيم وقد ناهز الخمس وثمانين أو الاثنتين وتسعين وقد عزا هذا الترجيح إلى احتمال خطأ المؤرخين المتأخرين فى نقل لفظ (سبعين) إلى (تسعين) لما بين اللفظين من المشابهة (بطر ص ٥٤٨).

ولا ندري لم يستبعد (بطلر) إن عمرو بن العاص فتح مصر وهو فى السادسة والستين لأن هذه السن تعوقه عن القيام بهذا الأمر. وقد شاهدنا أسماء كثيرين من القواد العظام فى الحرب الأوروبية العامة من أمثال (هندنبرج) و(مولتك) و(ترپتر) و(فوش) و(جوفر) و(فرنش) وغيرهم قد خاضوا معامع هذه الحرب الطاحنة، وقادوا الجيوش الجرارة وقد ناهزت سنهم الستين؟ وهذا هو (كليمانصو) رجل فرنسا قد تولى قيادة الأمة الفرنسية كلها أثناء الحرب حتى أرسى سفينتها على ساحل السلامة. وهو شيخ تربو سنه على السبعين كثيراً، وقد رأيناه فى السنة الماضية وقد عم بياض الشيب رأسه وشاربيه وهو الآن يسبح فى بلاد الشرق الأقصى ويخطب فى النشئ فى المستعمرات الفرنسية وقد حفظ لنا التاريخ عن كثير من العرب أنهم كانوا يحاربون وهم فى أعظم من هذا السن. فإن عمرو بن معد يكرب الزبيدى كان ممن أبلى البلاء الحسن فى القادسية. وكان يحمل على الأعداء ويطعنهم بسيفه وقد ناهزت سنه المائة. ومع ذلك فقد بز الشباب حمية وبسالة وإقداماً وقوة.

وقول (بطلر) الذى يستبعد أن يفتح عمرو بن العاص مصر وهو فى سن السادسة والستين مردود عليه. لأنه إذا سلمنا بهذا القول جدلاً فإن عمراً قد فتح مصر الفتح الثانى وهو فى سن السادسة والستين أيضاً - أى قبل بلوغه السبعين بأربع سنين.

ولهذا لا نستبعد موت عمرو بن العاص وله تسعون سنة تقريباً وهى السن التى نختارها، وربما زادت أو قلت بسنة أو اثنتين.

أما قول ابن قتيبة إن عبد الله بن عمرو أصغر من أبيه بأثنتى عشرة سنة مما يزيدنا ارتياباً فى صحة هذه الرواية إذ لا يعقل مطلقاً أن تحمل أم عبد الله ولأبيه إحدى عشرة سنة تقريباً.

د - تربية عمرو

كان بيت العاص كما أسلفنا من البيوتات العالية الرفيعة العماد، وكان عمرو - ولا شك - قد شب في حجر أبيه ونشأ مع أبناء الأشراف في مكة الذين يترفع أبائهم عن الدنيا فيصيبون أبناءهم بأدابهم، ويعلمونهم على الهمم، وجميل الخصال، لأنهم فخرهم الدائم ومجدهم الخالد. وكانت بلدهم مكة مركز حركة الحجاز التجارية والأدبية. فكان يقد إليها العرب من كل صوب وحذب أيام الحج والمواسم فيتناقلون الآداب الاجتماعية بعضهم من بعض، ويتناشدون الأشعار الحماسية ويتحدثون بكرم أصلهم وشرف محتدهم. فتغرس كل هذه المظاهر الاجتماعية والأدبية في نفوس أطفالهم المواهب النادرة، والقرائح الوقادة، والخصال الكريمة، والعادات السامية، وتدفع بهم إلى جليل الأعمال واسمى الغايات.

وليس هناك سبيل إلى البحث عن تربية عمرو العلمية. فإن هذا النوع من التربية لم يكن موجوداً إذ ذاك. لأن العرب في هذا الوقت لم يكن لهم بالعلوم عهد. ومع ذلك فقد كان عمرو كاتباً قارئاً وكنا نود لو عرفنا متى وكيف تعلم ذلك ولكن المؤرخين لم يذكروا منه شيئاً. ويخيل إلينا أنه إنما كتب وقرأ بعد أن شب، وحين مارس التجارة، فما نظن أن مكة كانت في هذا العصر تعنى بتعليم أطفالها الكتابة والقراءة. إنما كان يشعر الرجل من أهلها بالحاجة إلى ذلك فيتعلمه.

وقد ذكر لنا التاريخ إن عمرو بن العاص كان يجيد الشعر. وقد روى عنه شعر كثير جيد. وإن كان الرواة لم يكادوا يتركون واحداً من الصحابة من غير أن يرووا له شعراً. واشتهر بالفصاحة والإبانة في

القول^(١) . يدل ذلك قوله حين شاوره معاوية فى أمر عبد الله بن هاشم بن عتبة ابن مالك بن أبى وقاص . وكان أبوه أحد فرسان على فى صفين فأشار عليه عمرو أن يقتل عبد الله فرأى معاوية العفو عنه فخرج عمرو مغضباً وكتب إليه .

أمرتك أمراً حازماً فعصيتنى * وكان من التوفيق قتل ابن هاشم
أليس أبوه يا معاوية الذى * أعان علينا يوم حزن الغلاصم
فقتلنا حتى جرى من دمائنا * بصفين أمثال البحور الخضارم
وهذا ابنه والمرء يشبه عيضة * وتوشك أن تلقى به جد نادم^(٢)

ولا أدل على فصاحة عمرو من السبائك الذهبية التى نظمها فى خطبه وكتبه - تلك الأقوال التى ينبعث منها الأخلاص فى العمل والسعى لترقية رعيته واستنهاض همم جنده قبيل المواقع الحربية . ولم يكن فى الوصف بأقل بلاغه منه فى الشعر فقد أقر أحد علماء الفرنجة إن وصف مصر لعمر بن الخطاب (كما سيأتى) من أكبر آيات البلاغة .

وإن نفس عمرو لتبين أجلى بيان من خلال أقواله الماثورة وحكمه البليغة . . فهى البرهان الساطع والدليل القاطع على رجاحة عقله وسمو مداركه وسرعة خاطره ، وإصابة رأيه وحسن حديثه . ولندل الآن بشئ يسير من هذه الأقوال لكى تكون شاهداً على صحة ما نقول .

١ - هذه العبارة عن اليعقوبى (ج ٢ ص ٦٢) وأبى المحاسن (ج ١ ص ٧٢) وهذا ما يخالف ما رواه ابن حجر أن عمر بن الخطاب كان إذا رأى رجلاً يتلجلج فى كلامه فيقول : خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد . وتروى هذه العبارة عن معاوية بن أبى سفيان . ولا معنى لها إلا أن الشخص الذى يراه قدماً عيباً هو وعمرو بن العاص ضدان لفصاحة عمرو وطلاقة وحسن بيانه مع أن خالقهما واحد ، ومن سار على ذلك حضرة أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار والدكتور (بطلر) .

٢ - الكامل للمبرد (ص ١٥٠) .

من ذلك قوله: ليس العاقل الذى يعرف الخير من الشر، ولكنه الذى يعرف خير الشرين. وروى ابن عساكر عن عمرو بن العاص أنه قال يوماً لمعاوية: إن الكريم يصول إذا جاع، واللئيم يصول إذا شبع. فسد خصاصة (حاجة) الكريم وأقمع اللئيم.

وروى عن هشام الكلبي قال: قال معاوية لعمرو بن العاص: من أبلغ الناس؟ قال: من كان رأيه راداً لهواه. قال: فمن أسخى الناس؟ قال: من بذل دنياه فى صلاح دينه. قال: فمن أشجع الناس؟ فقال: من رد جهله بحلمه. اهـ.

ومن غرر أقواله ما رواه صاحب كتاب سراج الملوك وهو: موت ألف من العلية أقل ضرراً من ارتفاع واحد من السفلة. وما رواه المبرد (ص ٢٨) أن عمرو بن العاص قال لمعاوية حين وصف عبيد الملك بن مروان: أخذ بثلاث. تارك لثلاث. أخذ بقلوب الرجال إذا حدث، وبحسن الاستماع إذا حدث، وبإيسر الأمرين عليه إذا خولف، تارك للمراء، تارك لمقاربة اللئيم. تارك لما يعتذر منه كقوله:

فقلت له تجنب كل شئ * يعاب عليك إن الحر حر

وقوله وقد نظر على بغلة قد شمط وجهها هرمًا فقيل له: أتركب هذه وأنت أمير مصر؟ فأجاب: لا ملل عندي لدابتى ما حملتني ولا لامراتى ما أحسنت عشرتى ولا لصديقى ما حفظ سرى. إن الملل من كواذب الأخلاق. وقوله: إذا أنا أفضيت سرى إلى صديقى فأذاعه فهو فى حل، فقيل له: وكيف ذاك؟ قال: أنا كنت أحق بصيانتته^(١).

١ - الكامل للمبرد (ص ٢٨).

ومن أخبار عمرو التي تدل على علمه وتعقله وبعده عن الأوهام أنه لما كان بالإسكندرية انكسف القمر فقال له رجل من القوم: لقد حدثنا شيطان هذه المدينة أن القمر سيكسف من الليلة. فقال رجل من الصحابة: كذب عدو الله هذا هم علموا ما في الأرض فاعلمهم ما في السماء! فلم يرد عمرو عليه بذلك كثيراً ثم قال له: إنما الغيب خمسة فما سوى ذلك يعلمه قوم ويجهله آخرون. ثم قرأ الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

فانظر كيف نحض عمرو حجة الرجل بهذا الدليل الثقلي الذي يدل على إلمامه بأسرار كتاب الله العزيز، فبرز الصحابي، وأقام الدليل على أن العقل إذا نما ونضج سهل عليه الاهتداء إلى معرفة أسرار الطبيعة والوصول إلى معرفة كثير من مكنونات الكون.

والظاهر أن ممارسة عمرو التجارة من صغره، وكثرة أسفاره إلى الشام والحبشة ومصر وغيرها، ومخالطته لأقوام مختلفين قد أكسبته فوائد جمة من معرفة أحوال هذه الأمم الاجتماعية والأدبية. مما كان له تأثير كبير في تثقيف عقله وسمو مداركه وإفاده فائدة تذكر. وسيظهر من سيرته أنه لم يكن تاجراً فحسب. بل كان شاعراً وسياسياً محنكاً وقائداً ماهراً حتى عدوه من دهاة العرب وأبطالهم وذوى الرأي فيهم.

والخلاصة أنه سوف يتجلى من استقصاء أخبار عمرو أنه قد أوتي من الشجاعة والإقدام وحسن البلاء، وكذا العلم والحكمة والحزم والوفاء وثبات العزيمة والدهاء وغير ذلك من جليل الصفات مما لم يجتمع مثلها لمثله إلا في القليل النادر من مشاهير الرجال، ممن أتم الله

نعمته عليهم وهداهم إلى التوفيق فى أعمالهم والفوز فى جميع فعالهم.
ولهذه جميعها كان عمرو فريداً فى عصره، ونابعة بين قومه، وناكباً من
أنياب العرب، وليثاً من ليوثهم، ودعامة من أقوى دعائمهم. صادق
العزيمة قوى الحجة. ثابت الجأش. ومن كانت هذه صفاته، وتلك أخلاقه
فهو كفاء للقيام بعظائم الأمور.

هـ - احتراف عمرو التجارة

من المعلوم أن تربة مكة صخرية تبعد عنها المزارع. وقد ذاعت شهرة قريش، وامتازوا على غيرهم من العرب بالنشاط، وكان لهم احترام فى نفوس غيرهم من القبائل، ومكانة لا تنكر، لأنهم ولادة الكعبة الذابون عن حياضها. الحافظون مجدها. ولكن تربة بلدهم حالت دون اشتغالهم بالزراعة. إلا أن مركز مكة الجغرافى قد ساعد قريشاً على ممارسة التجارة. فكانت مكة واسطة عقد التجارة بين اليمن والشام والحبشة. فامتازوا بالنقل بين هذه البلاد. وكانت ميناء جدة التى تبعد عن مكة بنحو أربعين ميلاً واسطة عقد التجارة بينها وبين الحبشة. فكانت تحمل كنوزها (الحبشة) فى جزيرة العرب إلى القطيف فى إقليم البحرين. حيث تنقل فى القوارب مع اللؤلؤ الذى كان يستخرج من سواحل الخليج الفارسى إلى مصب الفرات.

وتقع مكة فى نحو منتصف المسافة بين اليمن جنوباً والشام شمالاً. وكانت إبل قريش تحمل الطيب من أسواق صنعاء، ومن موانئ عمان واليمن، ومن أسواق بصرى ودمشق كان يشتري القمح والمصنوعات. لذلك كانت قريش حضرا أهل تجارة، وتجارتهم قائمة بالحجاج الذين يفدون إلى مكة من جميع الجهات فى المواسم. فكانت الكعبة مصدر أرزاق أهلها، ولولاها ما استطاعوا الحياة فى ذلك الوادى، وهو غير ذى زرع. وقد أكسبتهم أسفارهم ومخالطتهم العالم المتمدين فى أطراف العراق والشام، وفى بلاد الحبشة واليمن خبرة وتجربة وذكاء حتى صاروا أوسع العرب علماً وأكثرهم خبرةً ودرايةً. لذلك بذلوا العناية القصوى فى إدارة شؤون الكعبة، وسهلوا على الناس القدوم إليها. وقد بلغ من اهتمامهم بالتجارة أنهم كانوا يرحلون رحلتين فى العام: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام. وكانت بلاد العرب وعرة إلا عليهم فلم يكن لأهل الشام والحبشة وغيرهما من

سبيل لولوج هذه الغياض والقفار الكثيرة الوعورة والأخطار فاحتكروا
تجارة البلاد السعيدة (اليمن) والشام وغيرهما، واستقلوا بتبادل
سلعها، وقد كان من وراء تبادل تلك التجارة وانتشارها في مكة ما عاد
على أهلها بالأرباح الطائلة. ولم يكن حب أبناء الأشراف والنبلاء وأهل
الشرف فيهم للفروسية بأقل من حبهم للتجارة التي كانوا يمارسونها
منذ نعومة أظفارهم^(١).

كان عمرو بن العاص أحد أبناء هؤلاء الأشراف تاجراً في
الجاهلية. والظاهر أنه كان يتجر ببضائع اليمن والحبشة إلى الشام
وببضائع الشام إلى اليمن كالجلد من اليمن يتجر به في الحبشة.
والطيب من هذه الزبيب والتين ونحوه من الشام. وقد ذكر الكندي أن
عمرو بن العاص كان يختلف بتجارته إلى مصر وهي الأدم والعطر^(٢)
والظاهر من قول الكندي أن أنواع السلع التي كان يتجر فيها عمرو
ويختلف إلى الشام والحبشة واليمن ومصر من أجلها كان أخصها الأدم
والعطر. وقد عادت ممارسة التجارة على عمرو بأعظم الفوائد مادية
كانت أو أدبية. فقد اكتسب شيئاً كثيراً من أسفاره المتصلة واختلاطه
بأقوام على جانب عظيم من المدنية والارتقاء إذ ذاك. فتولدت فيه المواهب
النادرة، ونمت وازهرت فتجلت مظاهرها في جميع أدواره وكل فعاله،
مما كان له أعظم الأثر في مواقفه السياسية والحربية. وهذه الأسفار قد
أكسبت عمرًا شيئاً من الدهاء غير قليل، وضرب به المثل واخترعت فيه
الروايات. من ذلك ما رواه صاحب الأغاني قال:

بعد أن مشى قريش بعمارة بن الوليد المخزومي إلى أبي طالب
خرج هو وعمرو بن العاص، وكان كلاهما تاجراً إلى النجاشي
مشركين وشاعرين فاتكين وهما في جاهليتهما. وكان عمارة معجباً

١ - جيون ج ٩ ص ٩٤.

٢ - كتاب القضاة والولاة (ص ٧).

بالنساء ومحادثتهن فركبا سفينة فأصابا من خمر معهما فلما انتشى
عمارة قال لامرأة عمرو بن العاص: قبلينى. فقال لها عمرو: قبلى ابن
عمك. فقبلته. وحذر عمرو على زوجه فرصدها ورصده فجعل عمرو
إذا شرب معه أقل وأرق لنفسه بالماء مخافة أن يسكر فيغلبه عمارة على
أهله. وجعل عمارة يراودها عن نفسها فتمتنع. ثم أن عمراً جلس إلى
جانب السفينة فدفعه عمارة فى البحر فسبح حتى أخذ بالقلس فارتفع
فظهر على السفينة فقال له عمارة: أما والله لو علمت ياعمرو أنك
تحسن السباحة ما فعلت. فاضطغنها عمرو وعلم أنه أراد قتله. فمضيا
على وجههما ذلك حتى قدما إلى أرض الحبشة ونزلاها. فكتب عمرو إلى
أبيه العاص أن اخلعنى وتبرأ من جريرتى إلى بنى المغيرة وجميع بنى
مخزوم وذلك أنه خشى على أبيه أن يتبع بجريرته وهو يرصد لعمارة
ما يرصد. فلما ورد الكتاب على العاص بن وائل مشى فى رجال من
قومه إلى بنى المغيرة وغيرهم من بنى مخزوم فقال: إن هذين الرجلين
قد خرجا حيث علمتم وكلاهما فاتك صاحب شر، وهما غير مأمونين
على أنفسهما ولا ندرى ما يكون من أمرهما، وإنى أبرأ إليكم من عمرو
ومن جريرته وقد خلعتة. فقالت بنو المغيرة وبنو مخزوم: أنت تخاف
عمراً على عمارة وقد خلعنا نحن عمارة وتبرأنا إليك من جريرته فخل
بين الرجلين فقال الأسود بن المطلب: بطل والله دم عمارة بن الوليد
آخر الدهر.

فلما اطمأنا بأرض الحبشة لم يلبث عمرة أن دبّ لامرأة النجاشى
فادخلته فجعل إذا رجع يخبر عمرو بن العاص بما كان من أمره فجعل
عمرو يقول: ما أصدقك أن قدرت على هذا الشأن إن المرأة أرفع من ذلك.
فلما أكثر على عمرو مما كان يخبره به أراد عمرو التثبت. وكان عمارة
يغيب عنه حتى يأتية فى السحر وكان فى منزل واحد معه. وجعل
عمارة يدعوه إلى الشرب فيأبى عمرو، وكان يريد أن يأتية بشئ لا
يستطيع دفعه. فقال له عمرو فى بعض ما يذكر له من أمرها: إن كنت

صديقاً فقل لها تدهنك من دهن النجاشى الذى لا يدهن به غيره، فإنى أعرفه. لو أتيتنى به لصدقتك فأتى عمارة بقارورة من دهنه فلما شمه عرفه فقال له عمرو: صدقت، لقد أصبت شيئاً ما أصاب أحد مثله قط من العرب، ونلت من امرأة الملك شيئاً ما سمعنا بمثل هذا ثم سكت.

بعد هذا دخل عمرو على النجاشى فقال: أيها الملك إن ابن عمى سفيه وقد خشيت أن يعرني عندك أمره وأردت أن أعلمك شأنه حتى استثبت، وإنه قد دخل على بعض نساءك فأكثر. هذا الدهن قد أعطيه ودهننى منه. فلما شم النجاشى الدهن قال: صدقت هذا دهنى الذى لا يكون إلا عند نسائى. ثم دعا بعمارة بالسواحر فنفخن فى إحليله ثم خلى سبيله فخرج هارياً (فكان الجزاء من جنس الفعل) قالوا فقال عمرو فى ذلك:

تعلم عماراً أن من شر شيمة * لمثلك أن يدعى ابن عم له أبناً
وإن كنت بردين^(١) أحوى مرجلاً * فليست براء لابن عمك محرماً
إذا المرء لم يترك طعاماً يحبه * ولم ينه قلباً غاويك حيث يمما
قضى وطراً منه يسيراً وأصبحت * إذا ذكرت أمثالها تملأ الفما
فليس الفتى ولو أتمت عروقه * بذى كرم إلا بان يتكرماً
صحت من الأمر الرقيق طريقه * ووليت عنى الأمر من قد تلوما
من الآن فانزع عن مطاعم جمّة * وعالج أمور الموت لا تتندما.^(٢) أهـ

١ - قال الواقدي (عن الأغاني ج ٨ ص ٥٠): إن عمراً قال لعمارة: إن كنت تحب أن أصدقك بهذا أو أقبله فائتني بثوبين أصفرين. فلما رأى النجاشى الثوبين عرفهما.

٢ - الأغاني (ج ٨ ص ٥٠) بتصريف.

و - سفر عمرو إلى مصر في الجاهلية

ذكر السيوطي في (حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٤١) أن عمرو بن العاص قدم إلى بيت المقدس بتجارة في نفر من قريش. وكان عمرو يرعى في بعض جبالها إبله وإبل أصحابه. وكانت رعية الإبل نوبا بينهم. فبينما عمرو يرعى إبله إذ مر عليه شماس، وقد أصابه عطش شديد في يوم شديد الحر فأسقاه عمرو من قربة له حتى روى. ثم نام الشماس في مكانه وكان إلى جانبه حيث نام حفرة فخرجت منها حية عظيمة فبصر بها عمرو فنزع لها سهماً فقتلها. فلما استيقظ الشماس وعلم بذلك أقبل إلى عمرو فقبل رأسه وقال له: قد أحياني الله بك مرتين: مرة من شدة العطش ومرة من هذه الحية. ثم قال له الشماس: وكم ترجو أن تصيب من تجارتك؟ قال: رجائي أن أصيب ما اشتري به بغيراً فتكون لي ثلاثة أبعرة. فقال له الشماس: رأيت دية أحدكم بينكم كم هي؟ فقال: مائة من الإبل. فقال له الشماس: لسنا أصحاب إبل نحن أصحاب دنانير. قال: تكون ألف دينار. فقال له الشماس: إني رجل غريب في هذه البلاد وإنما قدمت أصلي في بيت المقدس، وأسيح في هذه الجبال شهراً جعلت ذلك نذراً على نفسي وقد قضيت ذلك، وإنما أريد الرجوع إلى بلادي، فهل لك أن تتبعني إلى بلادي ولك عهد الله وميثاقه أن أعطيك ديتين لأن الله تعالى قد أحياني بك مرتين؟ فقال له عمرو: واين بلادك؟ قال: مصر. في مدينة يقال لها الإسكندرية. فقال له عمرو: لا أعرفها ولم أدخلها قط^(١) فقال له الشماس: لو دخلتها علمت أنك لم تدخل قط مثلها فقال له عمرو: تفى لي بما تقول،

١ - وهذا يخالف ما ذكره الكندي أن عمرو بن العاص كان يختلف بتجارته إلى مصر في الجاهلية.

وعليك بذلك العهد والميثاق . فقال الشمساس : نعم لك الله على بالعهد والميثاق أن أفي لك ، وأن أردك إلى أصحابك . فقال له عمرو : كم يكون مكثي في ذلك ؟ قال : شهرًا تنطلق معي ذاهبًا عشرًا وتقيم عندنا عشرًا وترجع في عشر ولك على أن أحفظك ذاهبًا ، وأن أبعث معك من يحفظك راجعًا . فقال له : أنظرني حتى أشاور أصحابي . فانطلق عمرو إلى أصحابه ، وأخبرهم بخبر الشمساس وما عاهده عليه ، وتعاهد معهم أن يقيموا ريثما يعود إليهم وأن يشاطروهم ذلك المال على أن يصحبه رجل منهم يأنس به . فاتفقوا على ذلك ، وانطلق عمرو وصاحبه مع الشمساس إلى مصر حتى انتهى إلى الإسكندرية . فرأى من عمارتها وأثارها وما بها من الأموال والخير ما أعجبه ذلك حتى قال : مارأيت مثل مصر وكثرة ما فيها من الأموال . ونظر إلى الإسكندرية وعمارتها وجودة بنائها وكثرة أهلها وما بها من الأموال فازداد تعجبًا على تعجبه .

ووافق دخول عمرو الإسكندرية عيدًا فيها عظيمًا يجتمع فيه ملوكهم وأشرفهم ، ولهم كرة من ذهب مكالة يتراعى بها ملوكهم وهم يتلقونها بأكرامهم وفيما اختبروه من تلك الكرة إن كل من وقعت في كفه واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم . فلما قدم عمرو الإسكندرية أكرمه الشمساس إلا كرام كله ، وكساه ثوب ديباج البسه إياه وجلس عمرو والشمساس مع الناس في ذلك المجلس حيث يترامون بالكرة . وبينما هم يتلقونها بأكرامهم رمى بها رجل منهم فاقبلت تهوى حتى وقعت في كفه عمرو . فتعجبوا من ذلك وقالوا : ما كذبتنا هذه الكرة قط إلا هذه المرة . أترى هذا الأعرابي يملكنا ؟ هذا لا يكون أبدًا . وإن ذلك الشمساس مشى في أهل الإسكندرية وأعلمهم أنه أحياء مرتين وأنه قد ضمن له ألفى دينار ، وسألهم أن يجمعوا له ذلك فيما بينهم ، ففعلوا ودفعوها إلى عمرو . فانطلق عمرو وصاحبه ، وبعث معهما الشمساس دليلاً ورسولاً وزودهما وأكرمهما الإكرام كله حتى

رجع هو إلى أصحابهما. فبذلك عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها ورأى منها ما علم أنها أفضل البلاد وأكثرها مالا. فلما رجع عمرو إلى أصحابه دفع إليهم فيما بينهم ألف دينار وأمسك لنفسه ألفاً. قال عمرو: فكان هذا أول مال تأثله. أه بتصرف.

والذى نراه إن هذه القصة ملفقة والتلفيق فيها ظاهر ظهوراً بيناً سنكشف الستار عنه.

ومع ذلك فلا يبعد أن يكون عمرو بن العاص قد زار الإسكندرية (كما ذكر الكندى) فعرف مسالك البلاد وطرق القدوم إليها. على أن شهرة مصر وعاصمتها الإسكندرية لم تكن لتخفى على عمرو بن العاص، بعد أن فتحت أكثر مدائن الشام على يديه، ووقف بنفسه على أخبار مصر التى أخصها هجرة الألوف من المصريين إلى بلاد الشام لاضهاد الروم لهم، وقتل اليعاقبة منهم. فانتهز هذه الفتن وانشغال الروم بقمع هذه الثورات فرصة سانحة لاستيلائه على مصر.

والذى يدعو إلى العجب من هذه القصة ترمى الملوك بالكرة ووقعها فى كم عمرو. وأن من وقعت فى كمه لم يمت حتى يملكهم. والتاريخ لم يذكر لنا رومانياً تعين حاكماً لمصر ينطبق عليه قول السيوطى. ومن المعلوم أن حكام مصر كانوا يعينون من قبل إمبراطور الروم مباشرة، ومن طبقة الفرسان أو من أهالى الإسكندرية الذين يتمتعون بالحقوق الرومانية المدنية وأن أباطرة الرومان حظروا على أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان ذوى الأنساب الدخول فى وادى النيل من غير ترخيص منهم^(١). وإذا كان كذلك فأين كان هؤلاء الملوك الذين

١ - ملن (ص ٢) .

ذكر السيوطى إنهم كانوا يترامون بالكرة فى ذلك الاحتفال . ولم يتمكن أحد من الروم من دخول مصر . اللهم إلا إذا كان تاجراً غير مشهور ، أو سائحاً لا حيثية له لزيارة هذه البلاد ؟ ثم بأى لغة كان الحديث بين عمرو وبين الشماس أكان باليونانية أو القبطية ، وعمرو يجهلها ، أم كان بالعربية وما كان أهل مصر يعلمونها ؟ ثم كيف يعده هذا الشماس بألفى دينار ، فإذا أتى إلى الإسكندرية مشى فى أهلها ليجمع هذا المال ؟

الباب الثاني

عمرو منذ أسلم

إلى أن انتهت حروب الردة

أ - إسلام عمرو

وقد ذكر الطبري سبب إسلام عمرو بن العاص قال: قال عمرو:
لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش
كانوا يرون رأيي ويسمعون مني، فقلت لهم: تعلمون والله أني لأرى
أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً، وإنني قد رأيت أن نلحق بالنجاشي
فنكون عنده فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي فإننا أن نكون
تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدى محمد، وإن يظهر قومنا
فنحن من قد عرفوا فلا يأتينا منهم إلا خير. فقالوا: إن هذا لرأى. قلتُ
فاجمعوا له ما نهدي إليه، وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم
فجمعنا له أدماً كثيراً ثم خرجنا حتى قدمنا عليه، فوالله إنا لعنده إذ جاء
عمرو بن أمية الضمري، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه
إليه في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه. قال: فدخل عليه ثم خرج
من عنده. قال: فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضمري لو قد
دخلت على النجاشي سألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك
رأت قريش أني أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد، فدخلت عليه
فسجدت له كما كنت أصنع فقال: مرحباً بصديقي. أهديت لى شيئاً من
بلادك؟ قلت: نعم أيها الملك قد أهديت لك أدماً كثيراً ثم قربته إليه
فأعجبه واشتهاه، ثم قلت له: أيها الملك إنني قد رأيت رجالاً خرج من
عندك وهو رسول رجل عدو لنا فأعطانيه لأقتله، فإنه قد أصاب من
أشرافنا وخيارنا. فغضب ثم مد يده فضرب به أنفه ضربة ظننت أنه قد
كسره: فقلت: والله أيها الملك لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه. قال:
أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتية الناموس الأكبر الذي كان يأتي
موسى لتقتله؟ فقلت: أيها الملك: أكذاك هو؟ قال: ويحك يا عمرو.

أطعنى واتبعه، فإنه والله لعلى الحق وليظهرنّ على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده. قال: قلت فتبايعنى له على الإسلام؟ قال: نعم فبسط يده فبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابى وقد حال رأتى عما كان عليه، وكتمت أصحابى إسلامى، ثم خرجت عامداً لرسول الله لأسلم فلقيت خالد بن الوليد، وذلك قبل الفتح (بسته أشهر) وهو مقبل من مكة فقلت: أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام المنسم وإن الرجل لنبى، أذهبُ والله أسلم فحتى متى؟ فقلت: والله ما جئتُ إلا لأسلم. فقدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فتقدم خالد بن الوليد وأسلم وبايع. ثم دنوتُ فقلت: يا رسول الله إني أبايعك على أن تغفر لى ما تقدم من دينى ولا أنكر ما تأخر. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عمرو بايع فإن الإسلام يَجِبُ ما قبله وإن الهجرة تجب ما قبلها ثم انصرفت. أهـ (الطبرى ج ٣ ص ١٠٣ - ١٠٤).

وروى ابن عساكر فى تاريخه عن الزبير بن بكار قال: قيل لعمر بن العاص: ما أبطأ بك عن الإسلام وأنت أنت فى عقلك؟ فقال: إنا كنا فى قوم توازن حلومهم الجبال ما سلكوا فجاً فتبعناهم إلا وجدناه سهلاً فلما أنكروا على النبى صلى الله عليه وسلم أنكرنا معهم، ولم نفكر فى أمرنا وقلدناهم. فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم وتدبرناه، فإذا الأمر بين. فوقع فى قلبى الإسلام فعرفت قريش ذلك فى إبطائى عما كنت أسرع فيه من عونهم على أمرهم، فبعثوا إلى فتى منهم فقال: أبا عبد الله إن القوم قد ظنوا بك الميل إلى محمد. فقلت له: يا ابن أخى إن كنت تحبُّ أن تعلم ما عندى فموعدك الظلُّ من حرِّ. فالتقينا هناك فقلت: أنشدك الله الذى هو ربك ورب من قبلك ومن بعدك. أنحن أهدي أم فارس والروم؟ قال: اللهم بك نحن. فقلت: أفنحن أوسع معاشاً وأوسع ملكاً أم فارس والروم؟ قال:

بل فارس والروم. قلت: فما ينفعنا فضلنا عليهم في الهدى إن لم تكن إلا هذه الدنيا وهم أكثر فيها أمراً. قد وقع في نفسى أن ما يقول محمد من البعث حق ليجزى المحسن في الآخرة بإحسانه والمسيئ بإساءته. هذا يا ابن أختى الذى وقع في نفسى ولا خير في التماذى في الباطل. أهـ.

وروى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه قال: قال عمر بن الخطاب لعمر بن العاص رضى الله عنهما: لقد عجبت لك في ذهنك وعقلك كيف لم تكن من المهاجرين الأولين؟ فقال له عمرو: وما أعجبتك يا عمر من رجل قلبه بيد غيره لا يستطيع التخلص منه إلا إلى ما أراد الذى هو بيده! فقال عمر: صدقت. أهـ.

ومن نظر في أمر قريش ومسلكتها مع النبى صلى الله عليه وسلم عرف أن شيوخها وشبابها كانوا ذوى حملة شديدة في جهاد الإسلام في أول الأمر، وكان انتصار النبى لا يزيدهم إلا شدة وحماسة. ولكن هذا الانتصار قد تكرر وعظم أمره في جميع البلاد العربية، وقتلت سادات قريش ومات ذوو الحلم فيها. فأخذ الشبان وأصحاب المطامع يترددون ويتساءلون عن أى الأمرين أوفق لهم. رأوا قوة من جهة وضعفاً من جهة أخرى. فكانوا يودون لو انضموا إلى هذه القوة الناشئة فنفعوا وانتفعوا. ولكنهم كانوا يخشون سوء رأى قومهم فيهم، وضياح ما كانوا يستمتعون به من الحرية من جهة أخرى. فممنهم من تغلب على هذه المخاوف فذهب إلى المدينة وأسلم. ومنهم من اشتد تردده فاعتزل الطرفين حيناً، حتى إذا ثبت له من غير شك أن أمر محمد ظاهر على قريش أسرع فأدرك الفرصة قبل ضياعها وأسلم قبل الفتح. من الأولين خالد بن الوليد ومن الآخرين عمرو الذى اعتزل البلاد العربية، وذهب إلى أرض محايدة هى أرض الحبشة ليرقب الأمر. فرأى ما كان من حسن الصلة بين المدينة وبين النجاشى، وأيقن أن أمر الإسلام سينتهى بالظفر وأن سقوط مكة قريب، وإنه إن أراد أن يدخر لنفسه

مكانة بين اقترانه الذين سبقوه إلى الإسلام فليس له بد من أن يسلم طائعا، قبل أن يسلم كارها.

وقد قدمنا ما كان من اعتذار عمرو حين سئل عن سبب إبطائه عن الإسلام، فزعم أنه كان ياتم بسادة قريش. وليس من شك في أن هذا الجواب إنما كان يراد به التخلص من مسألة كانت تورط من تلقى عليه، ولم يكن هذا أمر عمرو وحده، وإنما كان أمر طائفة كثيرة من الذين أسلموا متأخرين. ولسنا نشك في أن عمرا حين أسلم كان وثق بأن أمر الإسلام ليس مقصورا على بلاد العرب، بل هو متجاوزها إلى غيرها وأنه قد تنبأ بما سيكون للمسلمين من فتح. ولسنا نزعم أنه إنما أسلم طلبا لحسن المكانة فحسب، وإنما كان يطلب إلى ذلك أن ينفع المسلمين بما أوتي من قوة وحزم. وليس من شك في أنه كان قد أعد لنفسه برنامج عمل هو الذي أنفذه حين بدأ المسلمون بالفتح. على أن الرجل لم يكذب يبايع النبي صلى الله عليه وسلم حتى صحت عزيمته على أن يبذل ما ملك من قوة لرفع شأن الإسلام. ولسنا نستطيع أن نصف مقدار ما كان لعمرو من الإيمان الديني، ولكننا نستطيع أن نجزم بأن إيمانه الوطني وحرصه على إعلاء كلمة العرب، وبسط أعلامهم على ما جاورهم من البلاد كانا عظيمين جدا. يدلك على ذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام:

أسلم الناس وأمن عمرو بن العاص. وكل ما سنقول منذ الآن يبين هذا الرأي.

ب - احترام الرسول عليه السلام

مقدرة عمرو وتنصيبه قائداً لأحد الجيوش

على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفته شيء من ذلك، ولم يرد أن يفرق بين هؤلاء الذين أسلموا بعد تردد وبين من سبقوا إلى الإسلام، وإنما علم من كثير منهم صدق النية فقربهم ومن الآخرين الخوف والريبة فأمنهم، وأراد أن ينتفع الإسلام بهم جميعاً.

روى عن عمرو أنه قال: ما عدل بي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويخالد بن الوليد أحداً من أصحابه في حربه منذ أسلمت. وقد وثق بصدق عزيمة عمرو ونصحه للمسلمين منذ أسلم. وكان يعلم من دهائه وذكائه ما عرفه الناس، فولاه قائداً على سرية (ذات السلاسل) وهي تلك السرية التي كانت تضم بين رجالها ثلاثة من عظماء الإسلام وأقطابه وهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنهم. كذلك ولاه على سرية لهدم (سُواع) واستعمله على عُمان.

ج - سرية عمرو إلى ذات السلاسل

كان النبي صلى الله عليه وسلم يرسل السرايا إلى القبائل يدعوهم إلى الإسلام. وكان أخوال العاص بن وائل من بلى^(١) وعذرة من أرض جذام. وقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قضاة أرادوا أن يدنوا من أطراف المدينة، فأرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قضاة كى يستألفهم بذلك، سيره بثلاثمائة من أشرف المهاجرين والأنصار حتى إذا كانوا على ماء بأرض جذام يقال له السلاسل خاف عمرو على من كان معه لقلقتهم، فبعث إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستمده فأمدّه بأبي عبيدة بن الجراح وبمائتين من سراة المهاجرين والأنصار، فيهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وزوده بالنصائح، وحذره عاقبة الاختلاف فخرج حتى قدم على عمرو.

ومما يسترعى الأنظار أنه كاد يقع ما حذر النبي صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة عاقبته، وكادت تتطايّر نيران الشقاق بين عمرو وأبي عبيدة، لولا أن تلافى أبو عبيدة الشر. ذلك أن أبا عبيدة أراد أن يؤم الناس فقال عمرو: إنما قدمت على مددك، وأنا الأمير ولا إمارة لك. فقال أبو عبيدة: لا ولكن أنا على ما أنا عليه، وأنت على ما أنت عليه. فتشبّث عمرو برأيه واستمسك بكلمته، فتذكر أبو عبيدة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأطاع له، وبذلك حسم النزاع وزال الخلاف^(٢).

ثم سار الجيش إلى العدو وحمل المسلمون عليهم حملة منكبة وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، فتشتت شملهم، وتمزقت جنودهم فهربوا في البلاد وتفرقوا.

١ - بلى: قبيلة كبيرة ينسبون إلى بلى بن عمرو بن الحاف بن قضاة. وعذرة قبيلة تنسب إلى سعد بن قضاة وبلادهم وراء وادي القرى بينها وبين المدينة عشرة أيام (السيرة النبوية ج ٢ ص ٢٩٦).

٢ - السيرة النبوية (ج ٢ ص ٢٩٧)، وتاريخ ابن الأثير (ج ٢ ص ١١١).

ولما هزم المسلمون الأعداء طمعوا فيهم وأرادوا أن يقتفوا أثرهم
فحال عمرو بينهم وبين ما يشتهون. ثم أرادوا أن يوقدوا ناراً يصطلون
عليها من البرد، فمتعهم أيضاً وأمر بأن من يفعل ذلك يقذف به فيها
فشق على المسلمين ذلك، ولم يحتملوا تلك الشدة التي عاملهم بها
عمرو وهي تلك الشدة التي رآها من مستلزمات الخطط الحربية التي لا
غنى للقائد المدبر عنها. فلما انصرفوا شكوا منه إلى النبي صلى الله عليه
وسلم. فكلمه في ذلك فقال له عمرو قولاً يدل على كفاءته في الحرب
وبعد نظره في عواقب الأمور: كرهت أن أذن لهم أن يوقدوا ناراً فيرى
عدوهم قتلهم وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد.
فأعجب به رسول الله صلى الله عليه وسلم أيما إعجاب وحمد
رأيه^(١).

١ - السيرة الحلبية (ج ٣ ص ٢٧٣).

د - سرية عمرو إلى سواع

وسواع صنم لهذيل على ثلاثة أميال من مكة. وكان هذا الصنم على صورة امرأة.. يحجون إليه ويعبدونه على نحو ما كان بين العرب وبين سائر أصنامهم. فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص في جماعة من أصحابه إلى سواع ليكسروه. فلما وصل إلى سواع قال السادن: ما تريد؟ فقال عمرو: أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهدمه. قال: لا تقدر على ذلك فقال عمرو: ولم؟ قال: تمنع. فقال له عمرو: حتى الآن أنت على الباطل؟ ويحك وهل يسمع أو يبصر؟ ودنا منه عمرو وكسره وأمر أن يهدموا بيت خزانته فلم يجدوا فيها شيئاً ثم قال للسادن: كيف رأيت؟ فقال: أسلمت لله رب العالمين^(١): أه يا إجاز.

ولم يذكر المؤرخون عدد من كان مع عمرو. على أننا نرجح أنه كان في رجال لا يتجاوزون عدد أصابع اليد لأنه لم يكن على هذا الصنم غير السادن. وإنما نرجح أن وجود هذا العدد مع عمرو كان لهدم بيت خزانته.

١ - السيرة النبوية ج ٢ ص ٢٧٩، وتاريخ ابن الأثير ج ٢ ص ٢٧٣.

هـ - تولية عمرو علي الصدقة بعمان

لا نرى من مؤرخ أو باحث بيننا إلا وهو متفق معنا على مقدرة عمرو الحربية وتصرفه فى الأمور بحكمة وروية نادرتين. فلا غرو إذا وضع النبى صلى الله عليه وسلم ثقته فيه لكفاءته ومهارته، وأسند إليه تولية الأعمال السياسية والدينية الخطيرة. ففى شهر ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملكى عمان (١) جيفر (٢) وعبد ابنى الجلندى كتاباً مع عمرو بن العاص يدعوهما إلى الإسلام. وكان دين تلك البلدة المجوسية وهذا نصه :-

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى: سلام على من اتبع الهدى - أما بعد فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام - أسلما تسلما. فإنى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين. وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقررا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما. أهـ.

لم يستخدم النبى صلى الله عليه وسلم عمراً فى الحرب فحسب. بل استخدمه فى السياسة أيضاً لعلمه بدهائه وبعد نظره. فبعث به سفيراً إلى جيفر وعبد ابنى عمان، حتى إذا ما انتهت سفارته ونجحت دعوته وأسلم أهل عمان على يديه عينه والياً للصدقة عليها جزاء خدمته العظيمة؛ فتقلد هذه الوظيفة السامية حتى وفاة الرسول عليه السلام. ولا بد أن يكون لعمرو سابق معرفة ببلاد عمان لتردده عليها قبل إسلامه، ومعرفته بأحوال أهلها وعاداتهم. فتمكن بحسن سياسته من

١ - عمان (بضم العين وتخفيف الميم) بلدة باليمن سميت باسم عمان بن سبأ. وأما عمان (بفتح العين وشد الميم) بلدة بالشام.

٢ - جيفر على وزن جعفر.

توطيد دعائم الإسلام فى أرجائها. وفضلاً عما كان لهذه الخدمة من الأهمية الدينية، فقد كانت لها أهمية سياسية كبيرة ليس لها إلا أمثال عمرو كما سترى.

فخرج عمرو حتى انتهى إلى عمان، حيث قابل عبادة وكان أصغر من أخيه جيفر وأحلم وأسهل خلقاً منه، فسأله عبادة عن حاجته فأجابه عمرو: إني رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليك وإلى أخيك فقال: أخى المقدم على بالسن والملك، وأنا أوصلك إليه كى تقرأ كتابك عليه. ثم سأله عما يدعو إليه هذا الدين، وهل أسلم أبوه أم مات على غير الإسلام؟ ومتى أسلم عمرو وأين كان إسلامه؟ وما الذى يأمر به هذا الدين وينهى عنه؟ فأجابه عمرو بما اشتهر عنه من الأمانة فى القول وإقامة الحجة حتى أقنعه وأراه الحق عياناً فمال قلب عبادة إلى الإسلام ورغب فيه. يدلك على ذلك قوله: ما أحسن هذا الذى يدعو إليه، ولو كان أخى يتابعنى لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به. ولكن أخى ضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنباً (تابعاً) بعد أن كان متبوعاً. فقال له عمرو: إن أسلم ملكه رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه يأخذ الصدقات من غنيهم ويردها على فقرائهم، فأعجب عبادة بما فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم أيما أعجاب لما فى ذلك من مواساة الفقراء وإغاثة الملهوف وقضاء حاجة المعوزين.

أقام عمرو بباب جيفر أياماً من غير أن يقابله وعبادة يخبر أخاه بكل ما يدور بينه وبين عمرو من أطراف الحديث حتى دعاه عبادة يوماً ليدخل على أخيه؛ ولما تم لعمرو ما أراد من مقابلة جيفر أذن له هذا بالحديث فدفع إليه الكتاب مختوماً بختم النبى صلى الله عليه وسلم فقرأه ثم دفعه إلى أخيه فقرأه كذلك. وحينذاك سأله عما صنعت قریش فقال عمرو: إما راغب فى الدين وأما مقهور بالسيف وأن لم تسلم اليوم وتتبعه يوطئك الخيل ويبيد خضراءك (رجالك) فأسلم تسلم فيوليك

على قومك وتبقى على ملكك مع الإسلام، ولا تدخل عليك الخيل والرجال، وفي هذا مع سعادة الدارين راحة من القتال.

ودعاه جيفر أن يمهل يوماً ريثما يعمل فكره ويرجع إليه في اليوم الثاني. فلما كان الغد عاد عمرو إلى أخيه الذي استصحبه إلى الملك فأجابه بالنفي وصمم على أن لا يسلم تراث ملك آبائه وأجداده لأحد وأظهر استهانتها بما تضمنه خطاب النبي صلى الله عليه وسلم بأنه لا يتسنى للمسلمين التغلب على بلاده مع ما هو فيه من بعد الشقة وزوده بأنه سوف يقف في سبيل المسلمين ويبعدهم عن بلاده فهم عمرو بالانصراف غير أن عبادة فطن لعواقب هذا العناد فنبه أخاه ونصح له بتلبية دعوة النبي صلى الله عليه وسلم واعتناق الإسلام فأرسل إلى عمرو وأجاب للإسلام هو وأخوه، وخليا بين عمرو والصدقة وبين الحكم فيما بينهم، وكانا عوناً له على من خالفه، وأسلم معهما خلق كثير.

ظل عمرو متولياً هذا المنصب الديني السياسي الكبير زهاء سنتين يهدى الناس إلى الإسلام فيدخلون في دين الله أفواجاً، وكان يأخذ الصدقة من الأغنياء ويردها على الفقراء. ولم يزل مقيماً هناك حتى جاءه نعى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأتاه كتاب أبي بكر الصديق رضي الله عنه مختوماً وفيه أن لا يحل عقلاً عقله رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن لا يعقل عقلاً لم يعقله رسول الله. فلما قرأ الكتاب بكى بكاء طويلاً، وحزن حزناً شديداً، ثم خرج على القوم فأعلمهم الخبر فعزوه.

و - عمرو وردة العرب

لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم منيت الأمة العربية باضطرابات جسيمة زعزعت مركزها، وكادت تودى بعصبيتها وعظمتها. فقد اختلف المهاجرون والأنصار فيمن يولونه الخلافة، وكان من وراء ذلك ما هو معلوم. ولو كان عمرو فى المدينة إذاً ذلك لما ظل ساكناً هادئاً، بل لا بد أن يكون قد دخل فى هذا الخلاف، ولعب فيه دوراً مهماً وإن كان اليعقوبى قد ذكر أنه كان له ضلع فيه، فإنه لا سبيل إلى تصديقه، إذ ليس من شك فى أنه كان لا يزال بعمان حتى دعاه أبو بكر. ولكنه اشترك فيما كان بين الأمة العربية فى كافة أنحاء الجزيرة عقب تولية أبى بكر. ذلك أن القبائل العربية بعد وفاة الرسول عليه السلام لم تكن ترغب فى أن تخضع لسلطان قريش، وقد أخضعوا إما طوعاً أو كرهاً. فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم خيل إليهم أن هذا السلطان منحل، لأن بعضهم كان لا يستطيع أن يصدق موت النبى. فلما تحققه شك فى الدين، وبعضهم كان يعتقد أنه لن تقوم لقريش قائمة بعدما مات زعيمهم، ولأنهم كرهوا سيادة قريش التى ظنوا أنها قد سلبتهم حريتهم وأدخلتهم تحت سلطانها بحكم الدين، ولكى تحافظ على هذه السلطة كان لابد لقريش من محاربة هذه القبائل الخارجة عن طاعتها، فرفضت أكثر قبائل العرب أن تخضع لسلطان أبى بكر، وامتنعوا عن أداء الزكاة. ومازال دبيب العصيان يثور فى نفوس القبائل الواحدة بعد الأخرى، حتى تززع مركز الإسلام، وانكمش إلى مدن مكة والمدينة والطائف (وكذا قبيلة عبد القيس).

أما عمرو بن العاص فقد أرسل فى طلبه أبو بكر الصديق رضى الله عنه فاقبل حتى قدم إلى بلاد بنى عامر، ونزل بقره بن هبيرة، وقره

يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ومعه عسكر من بنى عامر فأكرم قرة مثواه ولما أراد الرحيل خلا به قرة وقال: يا هذا، إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالإتاوة (الرشوة) فإن أعفيتها فستسمع لكم وتطيع، وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم^(١).

ولكن ماذا صنع عمرو؟ أظهر لديه من الشهامة والشمم مالا يقوى عليه الأصناديد الرجال وليوثهم، فأجابه على الفور جواباً يدل على استهانتها بردة العرب، وينم عن الهول والثبور لكل من ناوا الدين أو أراد به شراً أو أذى حين قال: أكفرت يا قرة؟ تخوفنا بردة العرب! فوالله لأوطئن عليك الخيل في حفش^(٢) أمك، وقدم على المسلمين فأخبرهم فطفقوا يسألونه فأخبرهم أن العساكر معسكرة من دبا إلى المدينة. ولما قدم بكرة بن هبيرة أسيراً على أبي بكر استشهد قرة بعمرو على إسلامه، فأحضر أبو بكر عمرًا فسأله فأخبره بقول قرة إلى أن وصل إلى ذكر الزكاة فقال قرة: مهلاً يا عمرو. فقال: كلا والله لأخبرته بجميعه. فعفا عنه أبو بكر وقبل إسلامه^(٣).

أما نصيب عمرو في قتال أهل الردة فإن أبا بكر^(٤) أمره على جيش كثيف من المسلمين لحرب المرتدين من قضاة، وكان قد حاربهم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة «ذات السلاسل» وأصلهم ناراً حامية، وقتل منهم مقتله عظيمة، وعاد من بقى منهم إلى الإسلام.

١ - تاريخ ابن الأثير ج ٢ ص ١٠٧.

٢ - الحفش بيت يتفرد فيه النفساء.

٣ - تاريخ ابن الأثير ج ٢ ص ١٧٠ - ١٧١.

٤ - عقد أبو بكر الأكوية لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل والمهاجرين أمية المخزومي القرشي وخالد بن سعيد بن العاص وعمرو بن العاص وحذيفة بن محسن الغلفاني من حمير وعرفجة بن هرثة البارقي من الأزدي وشرحبيل بن حسنة حليف بنى زهرة ومعن بن حاجز السلمى وسويد بن مقرن من أوس والعلاء بن الحضرمي حليف بنى أمية.

وكانت قضاة قد أنست فى المسلمين الضعف بعد وفاة الرسول عليه السلام، وهم لم يسلموا رغبة فى الإسلام واهتداء بهديه. بل دخلوا فى هذا الدين ككثير من القبائل تحت عوامل الخوف، أو طمعاً فى مال أو جاه يصيبونه. فلم يكن قد تمكن الإسلام من قلوبهم. فلما أنفذ إليهم أبو بكر الصديق هذا الجيش تحت قيادة عمرو بن العاص سار عمرو بجيشه فى الطريق الذى سلكه من قبل حتى وصل إلى بلاد قضاة فأعمل السيف فى رقابهم، وغلبهم على أمرهم، وأرغمهم على أداء الزكاة والرجوع إلى الإسلام وعاد إلى أمير المؤمنين حاملاً لواء النصر والظفر.

الباب الثالث

عمرو في فتح الشام وفلسطين

١ - كتاب أبي بكر لعمر و هو بعمان وإنقاذه الجيوش لغزو سورية وفلسطين

انتصرت قريش على العرب. فكان همُّ أبي بكر أن يشغل العرب والجيوش التي قهرتهم بالحروب الخارجية. وكانت هذه الحروب تفي بما أمر الدين من نشر الإسلام من جهة، وبما كان العرب في حاجة إليه من الاشتغال بالأعمال الخارجية عن خلافاتهم الخاصة الداخلية. فإنه ما كادت حروب الردة الطاحنة التي شنها العرب بعضهم على بعض تنصرم، حتى وجدنا تلك الأمة الفتية تتأهب لفتح البلاد، وتمصير الأمصار. ولم تكن همة عمرو الكبيرة وعزيمته الماضية لتقف به عند هذا الحد، بل رأيناه يخوض غمارها. تارة يقود الجيوش الجرارة، وأخرى ينتشر الإسلام فيدخل الناس في دين الله ذرافات ووحدانا. فاشترك اشتراكاً فعلياً في فتح الشام وفلسطين، وعلى يديه فتح العرب مصر.

وقد كان حكام الروم في آخر أيامهم يعاملون الأهلين بالظلم ويسقونهم العذاب. فتأفف من جورهم أهالي البلاد التي كانت تحت سلطانهم، ومالوا إلى الخلاص من ربة الذل والاستعباد وتغيير الحال التي أصبحوا فيها على أي شكل كان. ولم تكن الروم وقد ضعف أمرهم وكادت تدول دولتهم من القوة بحيث يتمكنون من دفع العرب عن بلادهم. فخامر نفوسهم شيء من اليأس. فساعد هذا تلك الأمة الطموحة مع ما عليه رجالها من الشجاعة وقوة الإيمان وعدم المبالاة بالموت على فتح الشام وفلسطين وغيرهما من البلاد.

وقد كانت نيران الانتقام والحقد تاكل قلوب الروم من جرّاء

الغارة التي شنّها على بلادهم أسامة بن زيد. فجمع الإمبراطور (هرقل) جيشاً جراًً عسكرياً على مقربة من حدود بلاد العرب وفلسطين.

فدعا أبو بكر الصديق رضي الله عنه المقاتلين من جميع أرجاء جزيرة العرب، فلبوا الدعوة بحمية وحماس شديدين. وكتب أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه: إني كنت قد رددتك على العمل الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كه مرة، وسماه لك أخرى، مبعثك إلى عمان إنجاًً لمواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد وليته ثم وليته. وقد أحببت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك (الطبري ج ٢٨).

فكتب إليه عمرو: إني سهم من سهام الإسلام وأنت بعد الله الرامي بها والجامع لها. فانظر أشدها وأخشاهها وأفضلها فارم به شيئاً إن جاءك من ناحية من النواحي.

وسرعان ما أنفذ أبو بكر الجيوش نحو الشمال عقب تجمعهم بالمدينة بعد أن عقد لأربعة من الأمراء هم:

١ - أبو عبيدة بن الجراح: ووجهته حمص ومركز القيادة الجابية.

٢ - عمرو بن العاص: ووجهته فلسطين.

٣ - يزيد بن أبي سفيان: ووجهته دمشق.

٤ - شرحبيل بن حسنة: ووجهته وادي الأردن.

وأمرهم أبو بكر أن يعاون بعضهم بعضاً وأن يكونوا جميعاً تحت إمرة أبي عبيدة. وأن يستقل عمرو بفتح فلسطين، وعليه أن يمد الجيوش الأخرى - إذا دعت الحاجة إلى ذلك^(١).

١ - الطبري (ج ٢ ص ٨٢)، وابن الأثير (ج ٢ ص ١٩٥). والأمير على (ص ٢٤ -

٣٦)، وإيرفنج (ص ١٢) وموير (ص ٦٧).



ب - وصية أبي بكر لعمر بن العاص عند مسيره إلى فلسطين

وقد أثرنا أن نقتطف من هذه الوصية البليغة بضع شذرات علنا
نقف على شيء من أخلاق عمرو، وحرص أبي بكر على المسلمين،
وسلوك الأمراء مع الأمم التي فتحها العرب. قال الواقدي:

دعا أبو بكر عمرو بن العاص فسلم إليه الراية وقال: قد وليتك
هذا الجيش (يعني أهل مكة والطائف وهو أذن وبني كلاب) فانصرف
إلى أهل فلسطين وكاتب أبا عبيدة وأنجده إذا أرادك ولا تقطع أمراً إلا
بمشورته. اتق الله في شرك وعلايتك واستحبه في خلواتك فإنه يراك
في عملك. وقد رأيت تقدمتني لك على من هم أقدم منك سابقة، وأقدم
حرمة. فكن من عمال الآخرة، وأرد بعملك وجه الله. وأسلك طريق إيلياء
حتى تنتهي إلى أرض فلسطين.

وإياك أن تكون وائياً عما ندبتك إليه، وإياك والوهن، وإياك أن تقول
جعلني ابن أبي قحافة في نحر العدو ولا قوة لي به. وأعلم يا عمرو أن
معك المهاجرين والأنصار من أهل بدر، فأكرمهم، وأعرف حقهم ولا
تتطاول عليهم بسلطانك، ولا تداخلك نخوة الشيطان فتقول: إنما ولاني
أبو بكر لأنني خيرهم. وإياك وخدائع النفس، وكن كأحدكم، وشاورهم
فيما تريد من أمرك. والصلاة ثم الصلاة. إذن بها إذا دخل وقتها. واحذر
من عدوك، وأمر أصحابك بالحرس ولتكن أنت بعد ذلك مطلعاً عليهم.
وأطل الجلوس بالليل مع أصحابك، وأقم بينهم، واجلس معهم، واتق الله
إذا لاقيت العدو، وقدم قبلك ثلاثعك فيكونوا أمامك.

وإذا وعظت فأوجز، وأصلح نفسك تصلح لك رعيته. وإذا رأيت
عدوك فاصبر، ولا تتأخر فيكون ذلك فخراً منك. وألزم أصحابك قراءة

القرآن وانهم عن ذكر الجاهلية وما كان منها. فإن ذلك يورث العداوة بينهم. وأعرض عن زهرة الدنيا حتى تلتقى بمن مضى من سلفك. وكن من الأئمة المدوحين في القرآن إذ يقول الله تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾.

ثم قال لعمره: أمض بارك الله فيك وفيهم. فساروا في تسعة آلاف يريدون أخذ فلسطين^(١). أهـ.

ومن أنعم النظر في هذه الوصية التي ترجمها كثير من مؤرخي الفرنج مثل جبون وأيرفنج الفيناها آية في البلاغة لما لها من الأهمية في هذا الظرف. يحذره فيها مغبة الوهن ونخوة الشيطان والمطاوله على من معه. وينصح له أن لا يفرق بينه وبينهم، فيقيم بينهم ويجلس معهم. وأن يكون مثالا حسنا لمن معه فينصلح أمرهم بصلاح أمره، وأن لا يباشر عملاً حربياً إلا بعد أن يخبر عدوه، ويبث العيون حتى لا يؤخذ على غرة أو يطرح بهم في مهاوى التهلكة. ويرغبه في الآخرة فإنها أفضل من دار الفرار.

ولا ريب أن هذه النصائح الغالية مما تفيد القواد فائدة كبيرة وتؤدي إلى النصر المبين.

١ - فتوح الشام للواقدي (ج ١ ص ٩ - ١٠).

ج - شروع عمرو في قتال الروم بفلسطين

عمل عمرو بن العاص بما رسمه له أبو بكر في وصيته التي كانت أشبه شيء بالخطة الحربية. فسار في طريق إيلياء حتى وصل إلى فلسطين ونزل «بغمر العربات» فلما علم (هرقل) بكتائب المسلمين أراد أن يشغل كل طائفة منهم بطائفة من جنده الكثير ليضعف بذلك قوة المسلمين. وبلغ عمرو بن العاص أن مع الروم أكثر من مائة ألف مقاتل، مما أوقع الرعب في قلوب المسلمين فعقد راية وأعطاها لعبد الله بن عمر بن الخطاب، وضم إليه ألف فارس داهم بهم عشرة آلاف من الروم وحمل بنفسه على كبيرهم وطعنه طعنة نجلاء فخر ميتاً. فداخل الفزع والهلع قلوب الأعداء واقتتل الفريقان قتالاً أسفر عن انهزام الروم فولوا الأدبار واستولى المسلمون على ما كان معهم من الأسلاب والغنائم عدا ستمائة أسير. وقتل من المسلمين على ما رواه الواقدي (ج ١ ص ١١ - ١٢) سبعة^(١). أه باختصار.

عمرو بن العاص يقاتل مائة ألف^(٢) من الروم

ولما لاح صباح اليوم التالي أشرفت على المسلمين عشرة صليبان تحت كل صليب عشرة آلاف. فأقبل عمرو ورتب الجند وجعل في الميمنة الضحاك وفي الميسرة سعيد بن خالد وعلى الساقة أبا الدرداء. وثبت هوفى القلب ومعه أهل مكة، وأمر الناس أن يقرءوا القرآن، وجعل يحببهم في القتال، ويرغبهم في ثواب الله وجنته، وهم كالبنيان

١ - ولم يرو الطبري هذه الموقعة ولعل الطبري أكثر احتياطاً في رواية الأخبار.

٢ - الواقدي (ج ١ ص ١٢). أما الطبري فقد ذكر أن هذا الجيش كان سبعين ألفاً وذكر ابن الأثير أنه كان تسعين ألفاً.

المرصوص. فلما شاهدتهم (روبيس) بطريق الروم انكسرت حميته وسقط فى يده.

ثم باشر الفريقان القتال، وعمل المسلمون الحيلة فى الأعداء وبعجوا دوابهم بالأسنة، وحملوا عليهم حملة منكرة، ولم تزل الحرب تضطرم نارها بين الفريقين إلى الأصيل. إذ أتى الله المسلمين بالنصر وولى الروم منهزمين والمسلمون فى أعقابهم مسرعين. وبينما كان المسلمون يتعقبون الفالة إذ دهمتهم قوة من الروم فقتلوا سعيد بن خالد أخا عمرو بن العاص لأمه. وقد كانت خسارة الروم فى هذه الموقعة خمسة عشر ألفاً، وخسارة المسلمين مائة وثلاثون. ولما تمت لعمرو هزيمة الروم كتب لأبى عبيدة: قد وصلت إلى أرض فلسطين. ولقينا عساكر الروم مع بطريق يقال له (روبيس) فى مائة ألف فارس فمن الله علينا بالنصر وقتل من الروم خمسة عشر ألف فارس وفتح الله على فلسطين، بعد أن قتل من المسلمين مائة وثلاثون رجلاً، فإن احتجت إلى سرت إليك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته^(١) أهـ.

لا ندرى من أى مصدر جاء الواقدي بهذا الكلام الذى يقول فيه عمرو إنه تم له فتح فلسطين لانتصاره فى هذه الموقعة والروم مرابطون فى جميع أرجائها، وغزة والرملة وبيت المقدس وأجنادين وغيرها لا تزال بأيديهم، ولم يفتحوها إلا بعد اليرموك ودمشق، وكيف قوى المسلمون على مائة ألف من الروم وزيادة ولم تزد قوة عمرو عن تسعة آلاف مقاتل؟ أضف إلى ما تقدم أن خسارة المسلمين فى اليوم الذى سبق الموقعة الكبرى (وكانوا سبعة) وكذا خسارة الروم فى هذه الموقعة قد أغفلت. فكانت خسارة المسلمين مائة وسبعة وثلاثين وخسارة الروم أكثر من خمسة عشر ألف. وما ذكره (الواقدي) فى هذا

١ - الواقدي (ج ١ ص ١٢). أما الطبري فقد ذكر أن هذا الجيش كان سبعين ألفاً وذكر ابن الأثير أنه كان تسعين ألفاً.

الكتاب يناقض ما ذكره (الطبرى) و(ابن الأثير) و(الأمير على الهندى) من أن عمرو بن العاص حين رأى (هرقل) قد سير إليهم أربعة جيوش جرارة لسحق جيوش المسلمين الأربعة مما أدخل الفرع والحيرة فى قلوب القواد كاتب أبا بكر وشاور قواد الشام عمراً فى أمرهم فأشار عليهم بالاجتماع ليكون لهم بذلك قوة يدفعون بها العدو، إذ لا يتأتى لهم النصر إلا بالمعونة، ورأى أن يكون اجتماعهم باليرموك، فكتب أبو عبيدة بما كتبوا لعمرو فوافاهم كتاب أبى بكر بما رأى عمرو^(١).

ومن هنا يعلم أن عمرو بن العاص، وإن لم يكن أمير المسلمين فى حرب الشام فقد عرف له المسلمون أصالة الرأى وبعد النظر فاستشاروه فى مهام الأمور، ويكفيه فخراً أن جاء جواب أبى بكر مطابقاً كل المطابقة لرأيه. وكان من وراء رأيه ما جناه المسلمون من ثمار الانتصار فى موقعة اليرموك، مما أضعف العدو وسهل عليهم اجتثناء ثمار الفوز والظفر فى الوقائع المتوالية.

ولسنا نشك فى أن حزم عمرو وحسن رأيه هذين إلى ما أظهره من الخدمة والمهارة من قبل - كل ذلك قد أهله لثقة عمر فيما بعد. فمع أن عمراً وخالد بن الوليد كانا يكادان أن ينزلا منزلة واحدة فى الإسلام، ومع أن خالداً قد أظهر من التفوق فى حرب الردة وفتح العراق والشام ما كان يعدده لأحراز المكانة العليا، فإن عمر لم يرض عنه، ولم يثق به، ورضى عن عمرو ووثق به طول حياته.

١ - الطبرى (ج ٤ ص ٣١)، وابن الأثير (ج ٢ ص ١٩٨)، وموير (ص ٦٨ - ٢٨)،
وايرفنج (ص ٣٧).

د - اشتراك عمرو في وقائع اليرموك^(١) ودمشق والأردن

ومما يذكر لعمرو في موقعة اليرموك التي كانت على حدود فلسطين وبلاد العرب أن الروم حملت على المسلمين حملة هائلة فانكشفوا فولى صاحب رايتهم منهزماً واللواء بيده. فابتدر لأخذه عمرو بن العاص وخالد بن الوليد كلاهما يتسابق إليه فأخذه عمرو ولم يزل يقاتل به حتى ثاب المسلمون وانهزم جيش الروم.

ومما يذكر له أيضاً أنه كان له نصيب كبير في يوم التعوير الذي أصاب فيه رماة الروم أعين سبعمئة من جند المسلمين الذين فروا منهزمين ولم يثبت غير أصحاب الرايات وقاتلت الأمراء بأنفسها ومن بينهم عمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان وعبد الرحمن بن أبي بكر. واشتركت النساء في القتال مع هذا النفر اليسير. وكان بعضهن يضمدن الجروح أو يسقين الماء وكثير منهن يقوين المسلمين الفارين فيستنهضن الهمم ويقوين العزائم ويثرن الحماس في قلوب الرجال فكروا على العدو كالجبال الراسيات حتى كان النصر^(٢).

ومن هذه الحادثة تتجلى شجاعة عمرو، وكأنه أراد أن يكون ارتداد العدو على يديه، فسبق خالداً لأخذ الراية، وقد أحاطت به جند الروم

١ - اليرموك نهر معقد وهبته الطبيعة أسراراً والغاز ينبع من مرتفعات حورات ويصب في الأردن جنوبي بحيرة طبرية بأميال قليلة. وعلى نحو ثلاثين ميلاً من التقائه بالأردن يكون في الطرف الشمالي فتحة على شكل نصف دائرة تحيط بسهل متسع صالح لمعسكر جيش كبير. وضفاف هذا النهر وعرة منحدره. وعند مضيق هذه الفتحة عنق يكون مدخل هذه الأرض المنبسطة التي في الداخل، وهذه البقعة تسمى (الواقوصة) ذات الشهرة العظيمة في الوقائع الإسلامية (الأمير على ص ٣٧).

٢ - جبون ج ٩ ص ٢٢٦، وموير ص ٧٠ - ٧١ وإيرفنج ص ٦٨.

فنسى نفسه حباً للجهاد وما بالى بمن حوله من الروم حين جاهد مع غيره من الأمراء وصبروا على قتالهم صبر الكرام وقاتلوهم قتال المستميت وهم نفر يسير.

مات أبو بكر وتولى عمر فأقر الأمراء على ما كان استعملهم عليه أبو بكر إلا ما كان من عمرو بن العاص وخالد بن الوليد فإنه ضم خالدًا إلى أبي عبيدة وأمر عمرًا بمعونة جند المسلمين حتى يصير الحرب إلى فلسطين ثم يتولى حريها. وقد سار جيش المسلمين ينساب من بين الأدغال والحدائق كتيبة عقب كتيبة وعلى المقدمة عمرو بن العاص في تسعة آلاف، ومن ورائهم كتائب المسلمين وقوادهم. فلما وصلت جيوش المسلمين نزل عمرو بن العاص بباب (الفرايس) وشرحبيل بن حسنة بباب (توما) وقيس بن هبيرة بباب (الفرج) وأبو عبيدة بباب (الجابية) وبقي خالد بالباب الشرقي. وقد شدد المسلمون الحصار على أهل دمشق سبعين يومًا، ولم تجدهم منعة حصونهم وما عليها من المنجنيقات وغيرها من آلات الدفاع فتيلًا. وقد منع المسلمون المدد من أن يصل إليهم ونفذت المؤن من عندهم فجنحوا إلى الصلح.

وبعد فتح دمشق سار المسلمون نحو فحل وعليهم شرحبيل بن حسنة، فبعث خالدًا على المقدمة وعمرو بن العاص على مجنبتيه وعلى الخيل ضرار ابن الأزور وعلى الرجل عياض، فاستولى المسلمون على فحل ويسان وطبرية وقتلوا من الروم ثمانين ألفًا كما ذكره الطبري وياقوت (ج ١ ص ٣٤٠).

هـ - عمرو وموقعة أجنادين^(١)

اشترك عمرو بن العاص في وقائع اليرموك ودمشق وفحل وبيسان بعد أن هزم للروم الجيوش الجرارة بفلسطين. فكان أعماله الحربية لم تكن قاصرة على فلسطين فحسب، بل شملت الأردن وامتدت إلى سورية: أعنى أنه منذ وطئت قدمه هذه البلاد قضى وقته في الطعن والنضال وقيادة الجيوش. ولما تم له ما أراد صرف همهته إلى القضاء على قوة الروم بفلسطين وفتح مالم يفتح بعد من بلادها. فبينما كان أبو عبيدة يفتح المدن الواقعة شمال الشام كحمص وحماة وقنسرين وحلب واللاذقية وغيرها لم تكن فتوح عمرو بفلسطين وانتصاراته الباهرة بأقل نجاحاً منها.

وقد كان على فلسطين والروم يدعى (أرطوبون)^(٢) كان عند الروم كعمرو بن العاص عند العرب في الدهاء وقد وضع جنداً عظيماً ببית المقدس وغزة والرملة بينما خيم بجنده الكثيف بأجنادين^(٣).

ولما رأى عمرو أن القوة التي مع الروم أقوى مما كان يظن كتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يخبره الخبر. فقال عمرو: رمينا أرطوبون الروم بأرطوبون العرب فانظروا عم تنفرج. وكتب أمير المؤمنين إلى القواد أن يسيروا إلى قيسارية والرملة وإيلياء (بيت المقدس) كي يشغلوا الروم عن عمرو.

١ - ذكرها ياقوت في معجمه فقال: أجنادين (بالفتح ثم السكون ونون ولف) وهو موضع معروف بالشام من نواحي فلسطين وهي من الرملة من كورة بيت جبرين كانت به وقعة بين المسلمين والروم.

٢ - ذكر بطر (ص ٢١٥) أن لفظ (أرطوبون) الذي يطلقه العرب على هذا القائد خطأ. والصحيح «أريطيون».

٣ - الطبري (ج ٤ ص ١٥٧)، وهورت (ج ١ ص ٢٨٤).

سار عمرو وعلى مقدمته شرحبيل بن حسنة وعالج كسر قوة (أرطوبون) فلم يوفق ولم تشفع الرسل فوليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول فأبلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد. فحدث أرطوبون نفسه بأنه عمرو بن العاص فوضع له فى الطريق من يقتله، وفطن له عمرو فاحتال بما عرف عنه من الدهاء ونجا من شره. وعلم (أرطوبون) بحيلته فقال: خدعنى الرجل هذا أدهى الخلق، وبلغ ذلك عمر بن الخطاب فقال: غلبه عمر والله عمرو. ووقف عمرو بنفسه على حالة الروم فزحف بجنده واقتتلوا قتالاً شديداً لا يقل هولاً عن قتال اليرموك فانهمزم (أرطوبون) فى ثمانين ألف من الروم، وأوى بالقالة إلى إيلياء. وكان ذلك سنة ١٥هـ. (٦٣٦م).

وقد اضطربت كلمة المؤرخين فى السنة التى هزم المسلمون فيها الروم بأجناديين. فذكر بعضهم «كالواقدي وياقوت وإيرفنج» إن ذلك كان سنة ١٣هـ عقب فتح بصرى حيث سار العرب لحصار دمشق، ثم عدلوا عن حصارها ريثما يتم لهم فتح أجناديين، وقد علموا أن «هرقل» أنفذ إليهم مائة ألف من الروم تحت قيادة «وردان»^(١) وأن موت أبى بكر كان قبيل فتح دمشق سنة ١٣هـ أيضاً. وهو يخالف ما ذكره غيرهم «كالطبرى والبلاذرى واليعقوبى وابن الأثير» أن واقعة اليرموك لا أجناديين هى التى سبقت فتح دمشق: أعنى سنة ١٣هـ. وأن واقعة أجناديين كانت سنة ١٥هـ. على أن المؤرخين الإفرنج ومعهم الواقدي قد ذكروا أن العرب اشتبكوا بأجناديين مرتين: مرة قبل فتح دمشق أى سنة ١٣هـ، ومرة أخرى بعد واقعة اليرموك سنة ١٥هـ. ونحن نميل إلى أن أجناديين كان بها واقعتان، أحدهما سنة ١٣هـ ثم اشتغل الفريقان بغيرها من البلاد، ثم عاد إليها المسلمون بعد ذلك.

١ - قال ياقوت (ج ١ ص ١٢٦) إن قائد الروم كان (أرطوبون) كما ذكرنا.

على أن رواية الطبرى عن ابن إسحق «ج ٤ ص ٤٥» توافق ما ذكره الفرنج، وهو أن فتح أجنادين كان سنة ١٣ هـ حيث اجتمع المسلمون مدداً لعمر بن العاص.

إلا أن الفرنج والواقدي يقولون إن عمرو بن العاص أتى مدداً لخالد بن الوليد على أثر كتابته له ولغيره من الأمراء المتفرقين بالشام (الواقدي ج ١ ص ٣٤).

فإذا اغفلنا واقعة أجنادين الأولى تيسر لنا بعض التوفيق بين روايات المؤرخين المتناقضة. وعلى كل حال فليس غرضنا ترتيب الوقائع فليس هذا من شأننا.

وقد يكون التخييط في ترتيبها راجعاً لوقوع بعضها في أوقات واحدة، وإذ ثبت لدينا أن هذه الوقائع قد وقعت بالفعل فما علينا إلا أن نذكر منها ما عسى أن يكون له علاقة بعمر بن العاص، لأن التصدي للبحث في الترتيب يخرج بلا ريب عن موضوع رسالتنا.

وكان من نتائج انتصار عمرو على «الأرطبون» إن أذعنت لسلطان العرب كل من يافا ونابلس وعسقلان وغزة والرملة وعكا وببيروت واللد والجبلة، وفتحت أبوابها لهم من غير قتال إلا بيت المقدس.

٧ - عمرو وفتح بيت المقدس

كان عمرو بن العاص المتولى فتح فلسطين وكانت حاضرتها بيت المقدس - أو إيلياء - حيث لجأ إليها الفالة من موقعة أجنادين فمكسروا فيها ونصبوا على أسوارها المنجنيقات.

وكان عمرو قد أخذ يتمم فتح مدن فلسطين وقراها، ففتح غزة ولد ونابلس وبيت جبرين.

فلما أتم هذا الفتح قصد بيت المقدس وأخذ يخابر (الأرطبون) مخابرة حبية ويطلب إليه تسليم المدينة، والأرطبون ممتمنع عليه وكتب إلى عمرو بن العاص (وعمر لا يزال بأجنادين) كتاباً يقول فيه:

إنك صديقى ونظيرى، أنت فى قومك مثلى فى قومى، والله لا تفتتح من فلسطين شيئاً بعد أجنادين فارجع ولا تغر فتلقى ما لى الذين قبلك من الهزيمة.

فدعا عمرو رجلاً يتكلم بالرومية فأرسله إلى (أرطبون) وأمره أن يغرب ويتنكر وقال:

استمع ما يقوله حتى تخبرنى به إذا رجعت وكتب إليه:

جاءنى كتابك وأنت نظيرى ومثلى فى قومك لو أخطأتك خصلة -تجاهلت فضيلنى، وقد علمت أنى صاحب فتح هذه البلاد.

فخرج الرسول حتى أتى (أرطبون) فدفع إليه الكتاب بمشهد من النفر فاقتراه فضحكوا وتعجبوا وأقبلوا على (أرطبون) فقال من أين علمت أنه ليس بصاحبها؟ قال: صاحبها رجل اسمه عمر ثلاثة أحرف فرجع الرسول إلى عمرو فعرف أنه عمر. وكتب إلى عمر يستمده

ويقول: إنى أعالج حرباً كؤوداً صدوماً (كناية عن شدتها) وببلاداً أدخرت لك فرايك^(١).

والذى نميل إليه أن عمرو بن العاص لما عالج الشدائد من قتال الروم وأشجوه وأشجاهم كتب بأمره إلى عمر فرأى أنه الجد، فخرج إلى الشام واستخلف على بن أبى طالب وكتب إلى الأمراء الذين لا يجدون فى نواحيهم كبير قتال ولا يتخوفون أن يداهمهم عدو وأن يوافوه بالجابية فوافوه.

فلما رأى الروم ذلك خافوا العاقبة وأم الأرطبون مصر ورق بقية جند الروم وأهل البلاد فطلبوا الصلح - وممن سار على هذا رأى حضرة الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار.

انزلت المنجنىقات التى نصبها الروم على أسوار مدينة بيت المقدس الخسائر الفادحة بالعرب الذين قاسوا الأمرين من شدة البرد وقد أتاها الشتاء. وقد ظل المسلمون على حصارها أربعة أشهر لم يمض منها يوم واحد من غير قتال.

فشاهد أهل إيلياء من المسلمين الجد فى الحرب والصبر فى القتال، وقد عدوا الاستيلاء عليها دينياً أكثر منه سياسياً، لأنهم كانوا يعظمون بيت المقدس بعد مكة والمدينة لكونها معبد الأرض المقدسة، ومقر وحى عيسى عليه السلام، وبها قبور كثير من الأنبياء. وقد كتب أبو عبيدة إلى أهالى إيلياء يدعوهم إلى الإيمان بالله وبرسوله، أو الدخول فى طاعة المسلمين ودفع الجزية وأن أبوا فيحل جند المسلمين بأرضهم، ويفتكون برجالهم، ويستحلون عيالهم. فارتاعوا من هول هذا التهديد

١ - الطبرى (ج٤ ص ١٥٧) وقد قيل إن عمر أنقذ أبا عبيدة لفتح إيلياء. فوجه يزيد بن أبى سفيان فى خمسة آلاف ثم لحقه هو ببقية جند المسلمين ومن بينهم عمرو بن العاص، وبعيد جداً أن يفرق «أرطبون» بين لفظى عمرو وعمر.

وعقد رؤسائهم الاجتماعات المتواصلة للنظر فى حالهم، والعمل على تخفيف ما حل بهم^(١).

نظر أهل إيلياء إلى حالهم فوجدوا أنفسهم فى ضنك عظيم وحصار شديد، وقد أيقنوا بانقطاع المدد عنهم واستيلاء المسلمين على أطراف الشام ومدنها العظام وأنهم مأخوذون لا محالة، وأن دولة الروم دالت وسلطتهم عن البلاد زالت، وخافوا إذا سلموا المدينة للمسلمين أن لا يصالحوهم على ما صولح عليه أهل المدن الأخرى، لكثرة ما لاقى المسلمون فى حربهم من العناء، وما بذلوا فى قتالهم من الدماء، ولما تحقق عندهم أن بيت المقدس مكرم عند المسلمين، لأنه محل الإسراء ومقر الأنبياء. والظاهر أنهم خافوا لهذا السبب على كنيستهم العظمى أن ينزعها منهم المسلمون، وقبلتهم المقدسة إن يحرما منها الفاتحون. فأخذ الروع بقلوب أهل بيت المقدس فراءوا توكيداً للأمان وتوثيقاً لعرى العهد أن يباشروا ذلك مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فطلبوا من الأمراء حضوره بنفسه. ولم تكن إلا عشية أو ضحاها حتى ظهر بطريقهم (سفرونيوس) على الأسوار طالباً التسليم على أن يكون المتولى للصالح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فكتبه الأمراء فى ذلك فرضى عمر ورحل إلى الجابية، وكتب لأهل إيلياء كتاباً أشهد فيه القواد من المسلمين ومن بينهم عمرو بن العاص. وقد وردت صورته فى كثير من كتب التاريخ. وكان فتح إيلياء سنة ١٦ للهجرة أو أواخر سنة ١٥هـ (٦٣٥م)^(٢).

١ - اجبون (ج ٩ ص ٢٤٩ - ٢٥٠).

٢ - راجع: الطبرى (ج ٤ ص ٢٤٩)، شهر مشاهير الإسلام (ج ٢ ص ٢٤٦) ويطلر (ص ١٦٦) وهورت (ج ١ ص ٢٣٥) وموير (ص ١٤٣ - ١٤٤).

ز - عمرو وهزيمة قسطنطين بن هرقل

ظل عمرو مع جيشه بفلسطين ربحاً من الزمن للقضاء على القوة التي كانت لا تزال مع (قسطنطين بن هرقل) فسار إلى قيسارية (قيصرية) حيث عسكر قسطنطين بجيش كثيف. وقد تغلبت على هذا الأمير عوامل الخوف حين علم بسقوط طبرية في قبضة العرب وهروب والده من أنطاكية، وتوهم وقد تملكته الهواجس أن عمرو بن العاص اخترق أسوار المدينة، فانسحل من قصره هو وأسرته خفية، ورحل إلى القسطنطينية كما رحل أبوه من قبل. ولما أصبح الصباح، وقد علم الأهلون بهرب أميرهم - سلموا لعمرو فقبل منهم. وسرعان ما وافق على الشروط، وقد تآقت نفسه للرحيل لغزو مصر. وكان ذلك سنة ١٧هـ (٦٣٩هـ).

اضمحل بعد ذلك سلطان الروم من البلاد السورية بعد حروب طويلة لاقى المسلمون في غضونهما المشاق والأهوال وقاسوا طويلاً من شدة بردها، وقتل من جندهم عدد غير قليل، سيما في وقائع اليرموك ودمشق وبيت المقدس وحلب، فكان عدد من قتل في حروب الشام كما ذكر (إيرفينج) يناهز خمسة وعشرين ألفاً من المسلمين مما جعل ثمن هذه البلاد عليهم غالياً، والدماء التي أهدرت عزيزة.

وقد رأينا أن عمراً قد وقف في هذه الحروب موقف الذئ الذي لا يضمن بحياته ولا بقوته على المسلمين، وهو مع ذلك كان يبذل ما يستطيع من جهد لحقن دمائهم، وبذل أقل ما يمكن منها في سبيل الحرب.

فهو في الوقت نفسه قائد شجاع ومدبر ناصح، له من الحزم والأناة حظ قلما ظفر به غيره من قواد المسلمين إذ ذاك.

الكتاب الثانى

عمرو كزعيم هن

زعماء الدولة العربية

الباب الأول

{ حال مصر قبيل الفتح الإسلامي }

ولنترك الآن عمراً فى فلسطين يتهاى للزحف على مصر، ونلقى نظرة فى حالة هذا البلد الجديد، فنرجع للوراء زهاء قرنين لنأتى بمجمل حال تلك الأمة الدينية والسياسية من أيام قسطنطين: أى منذ القرن الرابع الميلادى حتى الفتح الإسلامى. ليتبين كم قاسى أبنائها من حمل النير الأجنى، ولنعرف كم كانت ترزح تحت أعباء تلك الفتن، وتئن أنين الثكلى، مما كان يفتك بأهلها من الظلم، ويستنزف دماءهم من المكوس والضرائب، وتستأصل زهرة شبابهم الاختلافات الدينية والحروب الأهلية، حتى أصبح أهلها يفضلون الموت على حياة كلها تعاسة وشقاء وظلم وبلاء.

أ - الحالة الدينية

كانت الأمة المصرية وثنية إلى عهد القيصر (أغسطس) الرومانى حيث ولد المسيح عليه السلام.

فأصبحت تتوالى النقم من قياصرة الروم على النصارى قتلاً وتعذيباً وتشريداً حتى جاء القيصر (دقلديانوس) فأغلق كنائسهم، وأسرف فى قتلهم، ولم يفتر عنهم يوماً واحداً لاستئصال شأفتهم وإبطال النصرانية.

وكان يرجع وقوع ثورة المصريين فى عهد (دقلديانوس) إلى سببين: أحدهما سياسى، والآخر دينى.

ففى الشطر الأول من حكم (دقلديانوس) قامت الثورات فى الإسكندرية، فقد ثار أحد الضباط المدعو (لوسىوس دميثيوس دومتيانوس) وكان رومانياً لقبه المصريون أخيلوس، ونادوا به إمبراطوراً، لذلك اضطر دقلديانوس إلى الحضور بنفسه إلى مصر لإخماد هذه الثورة التى لم يفرغ منها إلا سنة ٢٩٦ م. وحاصر مدينة الإسكندرية ثمانية شهور، ثم استولى عليها عنوة، وكانت نتيجة هذا

الحصار الطويل أن دمر أكثر أبنية المدينة. وقد حلّ بالإسكندرية البؤس والشقاء من جراء الحصار الذى حصل فى ثورة إميليانوس حتى أن دقلديانوس أصدر أمراً بأن جزءاً من الغلال التى كانت ترسل إلى رومة يوزع على الأهلين فيها.

أما الشطر الأخير من حكم دقلديانوس فكان عصر هياج واضطراب بسبب اضطهاد المسيحيين.

وكان يرمى نظام الحكومة الجديد إلى التشدد فى تقديس الإمبراطور وإكباره الدينى، فبعد أن كان فيما مضى الرئيس الدينى الأعظم أصبح فى عصر دقلديانوس، وبواسطة التأثير الشرقى أشبه بإله تقدم له القرابين، ويعبد كما تعبد الآلهة، ليكون بذلك أكثر أماناً على نفسه من الاغتيال كما حصل لكثير من الأباطرة العسكريين الذين تقدموه فى القرن الثالث كله.

فأثارت هذه السياسة سخط المسيحيين ودفعتهم إلى المقاومة. وكان الشجار الذى أثاره هذا العمل فى مصر أشد منه فى أى بلد آخر، مع أن تقاليد المصريين القديمة هى التى سهلت الأمر على الحكومة وجعلتها تتوقع نجاح سياستها، وتنتظر من الأمة العمل من أول الأمر بأكثر من رغائبها، فيتسابق المصريون إلى تأليه دقلديانوس كما ألها كاليجولا من قبل، غير أن التعصب المصرى لدينهم كان لا يزال شديداً يتفجر بركانه لأهوى الأسباب حتى عند الذين اعتنقوا الدين المسيحى – لذلك لقى الرومانيون فى سبيل تأليه الإمبراطور – على الرغم من مجهوداتهم الكثيرة – مقاومة عنيفة وعناداً كبيراً وصلاً إلى حد الجنون. (ملن ص ٨٧).

والظاهر أن دقلديانوس وغيره من أباطرة الرومان كانوا يعتبرون المسيحيين خارجين على الدولة والدين الرسمى، فلم يكن بد من

الضرب على أيديهم ابتغاء رجوعهم إلى الوثنية - وعلى ذلك فلم يكن قصدهم اضطهاد المسيحيين - بل ردهم إلى الطاعة والخضوع للقوانين العامة، وإن كان بعضهم قد أسرفوا في قتلهم وتعذيبهم إسرافاً شنيعاً جرّ عليهم سخطهم وكراهيتهم كما أسرف بعض الأباطرة المسيحيين في اضطهاد الوثنيين حين أصبحت المسيحية ديناً رسمياً للإمبراطورية.

ومن الصعب الجزم بعدد من قتلوا في مصر في عهد دقلديانوس، إلا أنه من المؤكد أن عددهم كان عظيماً، وأن الاضطهاد تناول جميع الطبقات. وقد بدأ الاضطهاد بالبلاد المصرية سنة ٣٠١ م. وأظهر فيه دقلديانوس قسوة لا مثيل لها جرّت عليه كراهة المصريين وحنقهم، حتى ظلوا يرون فيه إلى اليوم مثلاً للظلم والاستبداد، وصاروا يؤرخون حوادثهم من سنة اعتلائه العرش (٢٨٤ ق. م) ويسمى هذا التاريخ عندهم «تاريخ الشهداء» كما هو معروف.

ولما جاء (قسطنطين) (٣١٣ - ٣٣٧ م) اعتنق المسيحية سنة اعتلائه العرش، فأصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية، ولكن المسيحيين في مصر ماكدوا يخلصون من اضطهاد الحكومة حتى وقعوا في اختلافات مذهبية دينية لم يصلوا بعد إلى التوفيق بين بعضها وبعض. وكان النزاع الذي قام بين «أثناسيوس» و«أريوس» على كنه العلاقة التي يمكن أن تكون بين الله وبين عيسى، أو بين الأب والابن، فوق ماله من الأهمية الدينية سبباً لنتائج سياسية غيرت وجه تاريخ الديار المصرية تغييراً كلياً. فإن العلاقات بين الإمبراطور والشعب الإسكندري لم تكن سلمية يوماً من الأيام. فإن هذا الشعب قد ساعد (مكسيمينوس) و(لسينوس) خصميه اللدودين، وربما كان هذا الحادث الذي دعا الإمبراطور إلى جعل عاصمته مدينة بيزنطية، ولم يكد «تيودوسيوس» (٣٧٨ - ٣٩٥) يقبض على زمام الأحكام حتى أصدر سنة

٣٨١م قراراً يقضى بتنصير الإمبراطورية، فأغلقت الهياكل والمعابد ولاقى الوثنيون فى مصر اثناء ذلك ما لا يقل هولاً عما لاقاه النصارى قبلهم^(١).

ولم يكن بين المصريين والروم ما يفرق بينهم من حيث معتقداتهم الدينية، ولكن حصل بعد ذلك ما فرق بينهم فى المعتقد لاختلاف المذاهب، وقسمهم إلى قسمين متفاوتين: يعقوبية، وملكية.

فاليعقوبية: هم الذين يعتقدون أن الطبيعة الإلهية والبشرية فى المسيح امتزجتا فكان فيه طبيعة واحدة. وعليه فلم يعد إنساناً كاملاً، فكان عند التجسد ذا طبيعتين، وأما بعده فصار ذا طبيعة واحدة.

والملكية: هم الذين يعتقدون أن الابن مولود من الأب قبل كل الدهور غير مخلوق، وهو جوهره ونوره، والابن اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم فصاراً واحداً وهو المسيح.

فاتفق البابا مع القيصر «مرقيانوس» (٤٥٠ - ٤٥٧م) على عقد مجمع عام فى (خلقيدونية) سنة ٤٥١م. فانتهى الأمر بعزل (ديوسقوروس) بطريرق الإسكندرية ومؤسس اليعقوبية، وبحظه من كل خدمة كهنوتية، وكتب إلى جميع مملكته أن كل من يقول بقول ديوسقوروس يُقتل.

وأنفذ مكانه أسقفاً أرثوذكسياً. غير أن الأهلىين جاهرُوا بالثورة ضد البطريرق فاضطرت الفرق الإمبراطورية التى كانت ترافقه إلى الضرب على أيديهم وزج زعماء الثورة فى هيكُل (سيرابيس) الذى أحرق بمن فيه، وأبيحت المدينة للسلب والنهب قبل أن يتمكن الأسقف الجديد من الجلوس على كرسى البطريركية فى الإسكندرية - وعقب

ذلك أصدر الحاكم الأوامر المشددة بإبطال أيام الأعياد العمومية، وإقفال الحمامات، وإلغاء إعانة الغلال^(١).

وما زالت هذه الاختلافات الدينية منشأ لمصائب المصريين - إن قام قيصر ملكى أمر باضطهاد اليعاقبة وإذلالهم - وإن قام قيصر يعقوبى فعل العكس، والرزايا على كلتا الحالتين تنتاب الرعية. وأشنع ما أصاب المصريين فى هذا السبيل كان فى عهد القيصر «يوشينانوس» (٥١٨ - ٥٢٧ م) الذى تساهل فى بادئ الأمر منتظراً سنوح الفرصة لحسم النزاع - وقد أنفذ بطريقاً ملكياً إلى الإسكندرية، فجاهر الأهالى بالثورة، ووقعت على أثر ذلك معركة دموية فامتلات الشوارع بأشلاء القتلى من الأهالى والجند، وأحرقت عاصمة الإمبراطورية الرومانية الثالثة.

وأقام الأهالى بطريقاً يعقوبياً، وانسحب البطريرق الرومانى أو الملكى، ولم تقو القوى الإمبراطورية على شد أزره.

لما رأى (يوستينانوس) أن بغض المصريين لبطارقة الروم قد بلغ أشده، وأيقن أن التساهل لن يجديه نفعاً، عول على مقابلة الشدة بمثلها، فأنفذ «أبولينارىس» إلى الإسكندرية - فدخل المدينة فى زى العسكرية (٥٥١ ق. م) ووزع الجنود المسلحين فى الشوارع، وأحاط بهم أسوار الكنيسة، وأكثر منهم فى صدرها للمحافظة على شخصه. ولما طلع المنبر نزع ثياب الجند، فظهر لهم مرتدياً بثياب بطريق الإسكندرية. فأخذت الدهشة من الأهلى كل مأخذ، وهم أُولينارىس يقدس فانهالت عليه اللعنات من جميع الحاضرين، وأخذوا يرمونه بالأفواه والحجارة. ولم تكن إلا إشارة واحدة من البطريرق حتى داهمت جنوده الأهلى، وأعملوا السيف فيهم، حتى خاض الجند فى الدماء. قال

١ - ملن ص ١٠١ - ١٠٢.

(جبون) : ويقال إنه قتل بالسيف فى هذا اليوم مائتا ألف - وكانت نتيجة هذه الواقعة أن انتقلت جميع أملاك الكنيسة فى مصر إلى يد حاكم الإسكندرية^(١).

والظاهر أن قيصر الروم لما رأى أن يضع حداً لهذا الشجار منع البطريق مركز الحاكم فى مصر حتى يتسنى له تحصيل الجباية، وتموين رومة بالغلال بما له من القوى الحربية لتأييد السلام.

ظل حكام الروم بعد ذلك لا يفكرون عن إيقاع الأذى بالمصريين - فرفض هؤلاء لغة اليونان وعاداتهم، وأصبح كل ملكى فى نظرهم غريباً عنهم، وكل يعقوبى منهم. وقد اعتبروا الزواج منهم والاشتراك معهم فى المناصب جريمة لا تغتفر.

ولم تكن طاعتهم للإمبراطور وتنفيذ أوامره إلا إرغاماً تحت ضغط قوته الحربية.

وكان أقل مجهود يكفى لإنقاذ الدين ورد حرية مصر المسلوبة. وقد كان من المتيسر أن تخرج الأديرة (وعدها زهاء ستمائة)، عشرات الآلاف من المقاتلين الذين أصبح الموت أحب إليهم من الحياة المفعمة بالبؤس والشقاء، ولكن التجربة قد دلت على العكس، ذلك أن هؤلاء المتعصبين لدينهم الذين كانوا يتحملون الآلام (الخازوق) وغيره من آلات التعذيب بلا تأوه سرعان ما كانوا يرتجفون ويولون الأدبار أمام عدو مسلح. فلم تكن لديهم من سبيل للخلاص مما هم فيه إلا بقوة أجنبية كقوة خسرو ملك العجم (٦١٥ - ٦١٧ م) التى أنقذت اليعاقبة من نير الروم رداً قصيراً من الزمن انتصر بعدها هرقل (٦٢٧ م) على العجم وجدد الفظائع وزاد عليها، ففر البطريق بنيامين إلى الصحراء.

١ - ملن ص ١٠٠ - ١٠١، ولين بول ص ٢، وجبون ج ٨ ص ١٠٧.

إلا أن صوتاً قوياً أمره عند فراره «انتظر» حتى إذا ما تم عقد عشر سنوات سارت نحو بلادهم قوة أجنبية لخلّاصهم مما حل بهم من الظلم وما حاق ببلادهم من الفقر؛ وهذه القوة هي جند العرب.^(١) أهـ. بتصرف.

هذا مجمل حال المصريين الدينية، سيما في القرن الذي كان قبل الهجرة، فقد كان أشد القرون على المسيحيين من أهل مصر هولاً. أصابهم فيه من القياصرة المسيحيين ما لم يصيبهم من القياصرة الوثنيين.

وكانت هذه الرزايا سبباً لكره المصريين حكم الروم عليهم وتشوقهم إلى الخلاص من هذه النكبات؛ وكان بنيامين هذا ممن يبغضون الروم بغضاً شديداً، وذلك أن (هرقل) لما قدم إلى مصر بعد هزيمته للفرس طلب (بنيامين) ليقتله قلم يظفر به لفراره - وظفر بأخيه «ميناء» فأحرقه بالنار عداوةً لليعاقبة، لذلك لما ورد المسلمون مصر كان (بنيامين) هذا يكتب إلى من في طريقهم من الأقباط ألا يهتموا بدفع العرب ولا حريهم. فكان عمرو لا يدافع أثناء مسيره من الفرما إلى بابليون إلا بالشئ الخفيف عدا بلبيس، وأم دنين، وعين شمس، فقد لقي فيها حرباً.

يعلم مما تقدم، كم عانى المصريون من المحن والأهوال في سبيل معتقداتهم الدينية.

١ - جيون ج ٨ ص ٣٠٠.

ب - الحالة السياسية

استولى الرومان على مصر سنة ٣٠ ق.م، فأصبحت كملك خاص للإمبراطورية، وفي عهدهم تحولت العناية إلى الزراعة، فكانت كأنها مخزن غلال لرومة تفى بحاجتها من الحبوب، فدرست آثارها، وانحطت درجة العلم التي كانت بها.

وكانت الدولة الرومانية وثنية النزعة، وفي عهدها دخل الدين المسيحي مصر كما ذكرنا فقام أساقم أتباعه الشدائد والمحن. وقد انتهت هذه الدولة (وهى الدولة الرابعة والثلاثون) بقيام طيوروسيس (٣٧٨ - ٣٩٥م) وتقسيمه المملكة الرومانية بين أولاده سنة ٣٩٥م^(١).

ومن عهد هذه الدولة (وهى الخامسة والثلاثون) انتشرت الفتن الدينية. وكانت أفضح الفتن التى حلت بمصر فى القرن الذى قبل الهجرة، ففيه تفاقم النزاع بين الملكية واليعاقبة.

وكثيراً ما سببت هذه الفتن النحس للأهالى، فقد زاد القيصر (نيرون) المال المقرر على البلاد المصرية، فأصاب الأهالى من جراء ذلك محن ثقيلة، فكثرت الفتن، وظهر العصيان، وقام الأهالى فى الأزقة والحارات، وكثرت الحرائق فى كثير من الجهات، واضمحل الأمن فى القرى، وكثر قطاع الطرق، ولم يكن لكل هذه البلايا من سبب سوى الاختلافات الدينية.

١ - نقل قسطنطين عاصمة الدولة من رومة إلى (بيزنطة) سنة ٣٣٠م. وسميت من ذلك الحين بالقسطنطينية نسبة إلى قسطنطين الأكبر. وبعد وفاة قسطنطين قسمت الدولة بين أولاده الثلاثة، ثم اتحدت، ثم انقسمت مرة أخرى إلى أن تم تقسيمها النهائى سنة ٣٩٥م. إلى قسمين: الدولة الغربية وعاصمتها رومة، والشرقية وعاصمتها القسطنطينية.

كانت مصر محرومة من الحقوق الرومانية، وقد منع أغسطس الإسكندرانيين من الوصول إلى هيئة مجلس الشيوخ. فوقف ذلك المنع حجر عثرة أمام كل كفاءة تسمح لهم بتقلد الوظائف الرومانية العالية فى إدارة المالية والنيابة عن العامة والقضاء والقنصلية، إلا أنه فى عهد سبتيم سيفير (١٩٢ - ٢١١ م) منح الإسكندريون مجلساً للشيوخ وأنشأ الإمبراطور مجلساً بلدياً فى بعض مدن أخرى. وبهذه المنحة خفف على المصريين ذلك الضغط، فأصبح فى الإسكندرية نواب وتبوا اسكندريون فى رومة مقاعد أعضاء مجلس الشيوخ. وفتح تبعاً لذلك الوصول إلى الوظائف العالية التى كانت محرومة على الإسكندرانيين الحاصلين على الحقوق السياسية الرومانية.

وقد حدث انقلاب أشد خطورة من الانقلابات التى حصلت من قبل حين أعطى (كراكلا) جميع رعايا الدولة الحقوق الوطنية، فشمّل هذا المنح المصريين، إلا أنهم لم يمنحوا سلطة عليا، ولم يسند إليهم عمل مما يعهد لأعضاء مجلس الشيوخ.

فتحت أمام الإسكندرانيين أو بالحرى اليونانيين الذين كسانوا يكونون السواد الأعظم من السكان أبواب المناصب العالية بينما حرم غيرهم من المصريين الوصول إلى هذه الوظائف، مما قضى عليهم بالضعف والخمول، وزاد سخط المصريين على الحكم الرومانى، بينما رفعت عن عواتقهم (اليونان) بعض الضرائب مما كان يدفعه المصريون، وقد زادت الضرائب فى عهد الرومان زيادة فاحشة حتى لم يعد شئ من الأشياء يخلو من ضريبة مفروضة عليه.

وقد أثقلت هذه الضرائب كاهل الناس فقد شملت كما قال المؤرخ (ملن) الأشخاص والأشياء. فكانت على الرؤوس والصناعات على

اختلاف أنواعها، وعلى الماشية والأرضين، ولم تكن مقصورة على أنواع خاصة من البضائع، بل كانت تجبى على المارة رجالاً ونساء - تجاراً وغير تجار - وما معهم من سائر الأشياء حتى الموتى. ومن صناعات السفن، ومن العاهرات، ومن زوجات الجنود، وعلى تذاكر المرور، ولختم التذاكر، وعن اثاث المنازل، وعن شراعات السفن، وعلى الصارى، وعن كل جنازة تخرج إلى الصحراء. ولم يقتصر الأمر على هذه الضرائب التى كانت تدفعها الأهالى الذين أصبحوا فى شر ما يكون من الفاقة. بل كانت هناك تكاليف أخرى غير مألوفة رزح تحتها المصريون، وأخصها إيواء الموظفين الملكيين والعسكريين حين مرورهم فى الكور، وتقديم ما يلزم لهم من الحاجيات، وتوفير وسائل الانتقال ليتسنى لهم بذلك إتمام سفراتهم. ولقد أثقل هؤلاء الموظفون على الأهالى وحملوهم من الكلفة ما أنوا منه كثيراً. وفى السنين الأخيرة من الحكم البيزنطى كان على المصريين أن يقوموا بغذاء الجنود^(١).

وكان للانقسامات الدينية التى حدثت فى الكنائس المسيحية فى مصر أهمية سياسية لا يستخف بها، فقد كانت هذه الاختلافات الدينية فاتحة للاختلافات الكثيرة التى انتهت بفصل كنيسة رومة عن كنيسة القسطنطينية، وكان من نتائجها ضم السلطتين الروحية والرومانية فى شخص (أبولينارىس) المتقدم ذكره. وكان من نتائج الاختلافات الدينية التى قامت بمصر دخول هذه البلاد تحت حكم الفرس فترة قصيرة من الزمن، ثم تحت حكم العرب وضياعها من الروم إلى الأبد^(٢).

١ - ملن ص ١١٥ - ١٢٥ بتصريف واختصار.

٢ - على أن كل هذه الآلام لم تكن قاصرة على المصريين، إنما كانت شاملة لجميع أجزاء الإمبراطورية، وهى من الأسباب التى سهلت سقوطها وفتح العرب إياها.

حالة مصر إزاء ما كان بين الروم والفرس فيها

هدد الفرس الروم أثناء القرن السادس كله، وظلوا يتقدمون نحو حدود الدولة الرومية فى جموع كثيفة. وشعر الناس بخطورة هذا التقدم فى البلاد المصرية فى الوقت الذى آل فيه الملك لهرقل (٦١٠ - ٦٤١م) فإن الجيوش الفارسية بينما كانت تتقدم نحو الغرب كان أهل سورية وفلسطين يغادرون أوطانهم زرافات ووحداناً فراراً من وجه المغيرين ملتجئين إلى مصر، ولما وصل الاعتداء إلى الدلتا، وأغاروا عليها أوى المهاجرون إلى الإسكندرية للاعتصام بها، فلم تلبث تلك المدينة أن اكتظت بشعوب مختلفة لا مرتزق لها إلا ما يوجد به أهل الخير من الصدقات، فكان من الصعب لكثرتهم تدبير أمر غذائهم فى وقت قد تهددها فيها القحط عقب سنة قل فيها المحصول، بحيث أصبح غير كاف لغذاء الوطنيين أنفسهم، فلم ير القائد الرومى «نيكيتاس» بداً من ترك مصر للفرس سنة ٦١٥م^(١).

استولى الفرس على مصر فرحب بهم المصريون، ورضوا عن طيب خاطر بحكمهم، ولم ير الفلاحون - وهم السواد الأعظم من السكان - فى ذلك إلا تغييراً فى شخص الحاكم. ويقول «ملن» ص ١٤٤ إنهم فضّلوا حكومة شرقى على حكومة إغريقى. ولا وجه لهذا الاحتمال بالنسبة للمصريين إذا عرفنا أنهم قاسوا الأمرين من حكومة الروم، واشتد عليهم البلاء من فداحة الضرائب واستبداد الحكام، فراوا أن حكم الفرس قد يكون أخف وطأة من حكم الروم.

وفى أثناء حكم الفرس لم يكن فى مصر من الأمور ما يكدر صفاء المصريين بعد أن أطلقت حرية معتقداتهم التى جرّت عليهم المحن

١ - ملن ص ١١٣ - ١١٤.

والأهوال فى غضون حكم الروم، فعين فى عهدهم البطريرق (بنيامين) بطريرقًا للديار المصرية فأذعن لسلطانه أهل البلاد قاصيها، ودانيها، فتمكن من ارجاع الكنيسة إلى حالتها القديمة، من حيث النظام والعظمة وعاش فى الإسكندرية آمنًا مطمئنًا أثناء حكم الفرس.

غير أن حكم الفرس لم يدم فى مصر أكثر من عشر سنوات، فإن قيام العرب بعد أن جمع الإسلام كلمتهم، حرم الدولة الفارسية من خيرة جنودها، وهى الفرص للروم لاسترداد بعض أقاليمهم المفقودة فى الشرق، فقد سار «هرقل» مخترقًا البلاد السورية إلى مصر وطرد أعداءه الفرس، فغادر البلاد معهم البطريرك بنيامين، الذى كان قد جلس على كرسيه. فعكّر طمانينة المصريين طرد الفرس من مصر وعودة الروم إليها، فعقد بنيامين مجمعًا عامًا للقسس والرهبان وأوصاهم بالصبر والجلد والاعتصام فى الجبال، ثم هرب فى كنف الليل إلى وادى النطرون^(١) ومن ثم عادت مصر إلى حكم الروم وتولدت الاختلافات الدينية من جديد، فاتخذها هرقل وسيلة لإضرام نيران الحقد والانتقام التى كانت تتأجج فى صدره من جراء ترحيبهم بالفرس ورضائهم حكمهم^(٢)، فاحلّ بهم هرقل كل صنوف الظلم والاضطهاد لقبول مذهب خلقدونية، ومن أبى عذب وضرب بالسياط حتى الموت.

١ - بطلر ص ١٨٤.

٢ - يخالف بطلر (ص ٨٣ - ٨٧) بعض المؤرخين مثل «شارب» و«ملن» فى ذلك ويقول أن المصريين لم يرحبوا بالفرس بل بالعكس لاقتوا الأمرين من حكمهم لأنهم أجهزوا على الإسكندرانيين، وقتلوا الآلاف، الأهلى فى الوجهين القبلى والبحرى - وبرهن على صحة دعواه بالإشارة إلى أن «الأنبا شنوده» قد تنبأ بما سوف يحل بالأهلى من جراء غزوة الفرس. وإن خلف «الأنبا شنوده» قد أثبت هذا التنبؤ عندما كتب تاريخ حياة سلفه. وإن الراهب «بيز نطيوس» فر من وجه المغيريين بالوجه القبلى، وأعلن استيائه الشديد لما حل ببلاده من المصائب، وما حاق بقومه من الظلم. ونحن نستبعد ذلك لأن الفرس لم يتعرضوا لديانة المصريين، فأثبتوا بطريرقهم. وبعد وفاته عينوا (بنيامين) خلفًا له. ولم يتعرضوا لشئ من المبانى، بل زادوا عليها.

وإننا نذكرون حادثة «ميناء» أخى «بنيامين» فقد مثلوا به أشنع تمثيل. حيث أوقدوا المشاعل وأحرقوه بها حتى تساقط الدسم من جنبه على الأرض، ولما وصل به التعذيب إلى هذا الحد لم يزد إلا اعترافاً بمذهبه، فاقتلعت أسنانه، ثم وضع فى حقيبة ملأى بالرمل وحمل إلى الشاطئ، وعرضت عليه حياته ثلاث مرات إذا اعترف بمذهب خلدونية فأبى ثلاث مرات، فاغرق فى البحر^(١). وهكذا أصبح قتل البطارقة علماً يعرف به الروم.

وبعد هذه الشدة التى دامت عشر سنين أصبح كل أمل فى الصلح والسلام بين الفريقين محالاً، وقد علم المصريون بانتشار الإسلام وقيام العرب وفتحهم الشام، فتمنوا الخلاص مما هم فيه على أيدي المسلمين، وظنوا أن قدومهم مصر إن هو الأوباء أنزله الله لأعدائهم الروم الظالمين^(٢). وإلى هذا الحد المحزن ساء حكم الروم فى مصر، فهياؤا بذلك للعرب الأسباب لفتح هذه الديار، التى نقم أهلها على الحكم الرومى وودوا الخلاص منهم، وبهذا أتيج لعمر بن العاص فتح مصر بجيشه القليل.

من هذا يعلم أن مصر كانت قد فقدت كل شخصية سياسية، وأصبحت أبعد ما تكون من الاعتماد على نفسها، أو محاولة التخلص من الأجنبى، وإقامة حكومة وطنية، وإنما كان كل ما ترجوه هو أن يغير عليها مغير آخر يطرد الظالم ويقوم مقامه. فسوء سيرة الروم، وضعف المصريين كانا - كما سنرى - من أهم الأسباب التى سهلت على عمرو فتح مصر، ولننظر كيف سلك عمرو سبيله إلى هذا الفتح.

١ - بطر ص ١٨٤.

٢ - بطر ص ٢٩١.

الباب الثاني

{ عمرو وفتح مصر }

١ - ١ - كيف عرضت لعمر وفكرة

فتح مصر، وكيفية مسيره إليها

لما كانت سنة ثمانى عشرة^(١) من الهجرة (٦٣٩م) وقدم عمر بن الخطاب الجابية قام إليه عمرو بن العاص فخلا به فقال: يا أمير المؤمنين إئذن لى أن أسير إلى مصر، وحررضه عليها: «إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم، وهى أكثر الأرض أموالاً وأعجزهم عن القتال والحرب»، فتخوف عمر بن الخطاب على المسلمين وكره ذلك، فلم يزل عمرو يعظم أمرها عند عمر، ويخبره بحالها ويهون عليه فتحها حتى ركن إلى ذلك عمر، فعقد له على أربعة آلاف رجل كلهم من عك^(٢)، ويقال على ثلاثة آلاف وخمسمائة. فقال عمر: سر وأنا مستخير الله فى مسيرك، وسيأتى كتابى إليك سريعاً إن شاء الله تعالى، فإن أدركك كتابى وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها، أو شيئاً من أرضها فانصرف، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتى كتابى فامض لوجهك، واستعن بالله، واستنصره: فسار عمرو فى جوف الليل، ولم يشعر به أحد من الناس، واستخار عمر الله فكأنه تخوف على المسلمين فى وجههم ذلك. فأدرك الكتاب عمراً وهو برفح. أه^(٣).

ونحن نستبعد مسير عمرو فى نفس اليوم الذى أذن له فيه عمر،

١ - يقول ابن الأثير (ج٢ ص ٢٧٧) وابن خلدون (ج٢ ص ١١٤) إن عمرو بن العاص سار إلى مصر عقب فتح بيت المقدس سنة ٢٠ أو سنة ٢٢ أو سنة ٢٥ من الهجرة وهو خطأ، بدليل التخييط الظاهر فى ذكر السنين.

٢ - عك بلد فى اليمن واسم قبيلة أيضاً كان. فتح بيت المقدس سنة ١٥.

٣ - فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم ص ٥١، الخطط للمقريزى (ج١ ص ٢٨٨)، كتاب الولاة والقضاة للكندى ص ٨٧، وحسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة للسيوطى (ج١ ص ٤٦).

لأن عمرو بن العاص لم يسر إلى مصر إلا بعد فتح قيسارية وهزيمة قسطنطين، وكان ذلك بعد فتح بيت المقدس بأكثر من سنة.

وقد أخرج ابن عبد الحكم والمقرئ أن عمرو بن العاص كان بفلسطين، فتقدم عمرو وأصحابه إلى مصر بغير إذن، فلما فقداه أمراء الأجناد، واستنكروا الذي فعل، ورأوا أن قد غرر رفعوا ذلك إلى عمر بن الخطاب. ثم إن عثمان بن عفان رضى الله عنه دخل على عمر بن الخطاب فقال عمر: كتبت إلى عمرو بن العاص يسير إلى مصر من الشام. فقال عثمان: يا أمير المؤمنين إن عمراً لمجروء، وفيه إقدام وحب للإمارة. فأخشى أن يخرج من غير ثقة ولا جماعة، فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدرى تكون أم لا. فندم عمر بن الخطاب على كتابه إلى عمرو إشفاقاً مما قال عثمان. فكتب إليه: إن أدركك كتابي قبل أن تدخل مصر فارجع إلى موضعك، وإن كنت دخلت فامض لوقتك. أهـ^(١).

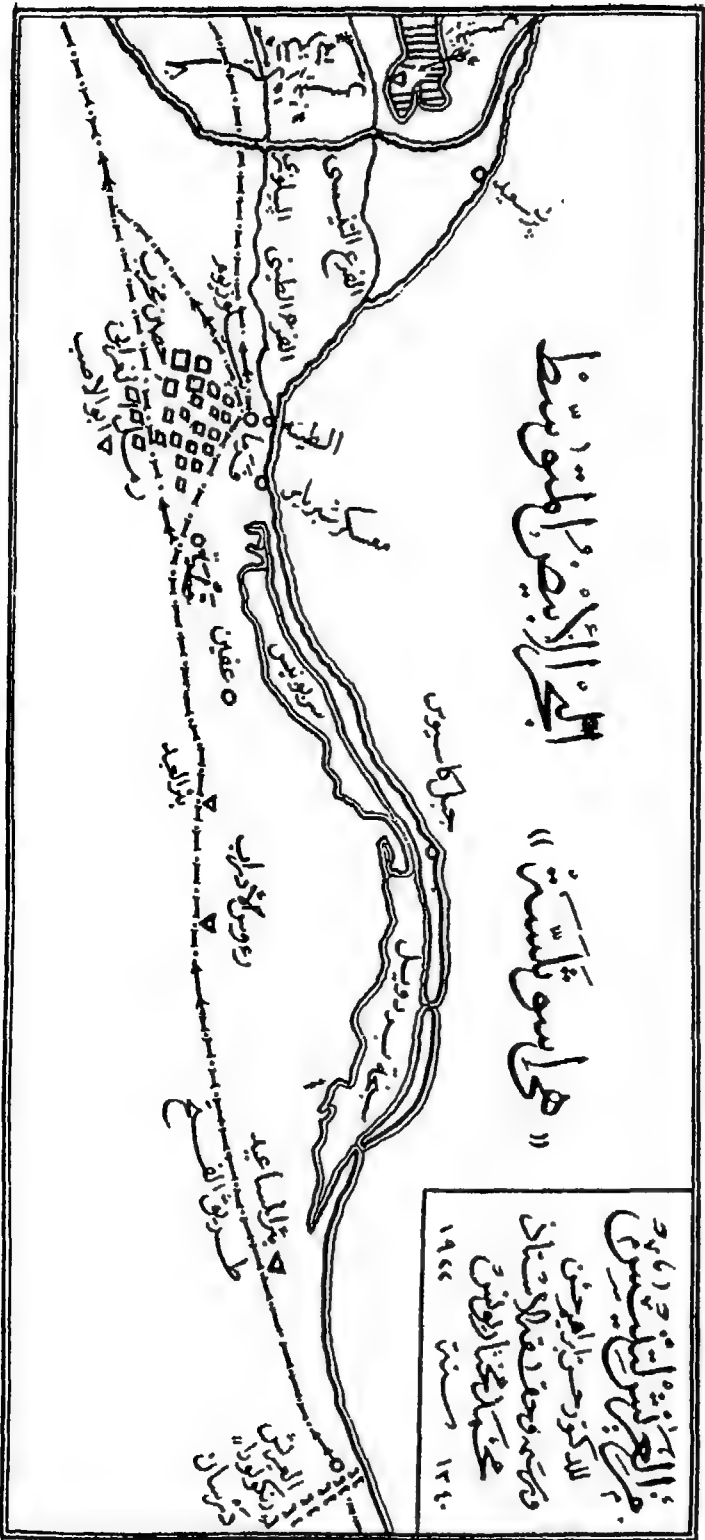
ولا ريب أن مسير عمرو بن العاص كان بأذن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ونحن نؤيد الرواية القائلة بأن المسير كان عند أمر أمير المؤمنين. ونرى أن عمر بن الخطاب أذن لعمر بن العاص بالمسير لفتح مصر. فلما علم عمر بمسير عمرو ندم بعد أن أبان له عثمان حرج مركز عمرو لقلة من معه، فيعرض المسلمين للهلكة، وكان عمر أحرص الناس على حياة المسلمين كما هو معروف.

لم يكن عمرو بن العاص من البساطة والبله بالمكان الذي يدفعه إلى تخطي أمر الخليفة والافتيات عليه، فيركب المركب الوعر باقتطاع فريق من جند المسلمين بلا عهد من الخليفة، يزج بهم في بلاد مترامية الأطراف، ويهجم بهم على بلاد مصر - وما كان جند المسلمين الذي يطيع أميراً لم يؤيده الخليفة، ولا بالذي يتوجه إلى بلاد بغير أمر من

١ - فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٥٢، إيرفنج ص ١٠٧.

ہی اس وقت

الحجج بن عبد الله بن الحسين
 للامير محمد بن عبد الله بن الحسين
 في سنة ١٢٤٠



الرئيس الأعظم - ولو فعل عمرو ذلك لوجد من عمر سلطاناً يحسن تأديبه ويرده إلى الطاعة والجماعة. ولم يرد في أى تاريخ عبارة أو إشارة إلى غضب عمر عليه في افتيات كان منه.

أدرك الكتاب عمراً وهو برفح، فتخوف إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف، فلم يأخذ الكتاب من الرسول، ودافعه، وسار حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش، فسأل عنها فقيل: إنها من أرض مصر، فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين. فقال عمرو لمن معه: أستم تعلمون أن هذه القرية من مصر؟ قالوا: بلى. قال: فإن أمير المؤمنين عهد إلى وأمرنى إن لحقنى كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع، ولم يلحقنى كتابه حتى دخلنا أرض مصر؛ فسيروا وامضوا على بركة الله وعونه^(١).

والذى نراه أن عمر بن الخطاب لم يكشف لرجال شوره نيته في فتح مصر إلا بعد مسير عمرو، فلما علم عثمان بذلك حذر عمر سوء عاقبة مسير عمرو بجيشه القليل، فكتب إليه عمر كتابه الأنف الذكر ووعده بإمداده إن كان قد دخل أرض مصر. وكان عمرو يوجس خيفة من أن يكون الكتاب يصرفه عن وجهه، فدافع الرسول حتى يكون بأرض مصر ويوجد له العذر إذا مضى لطلبته.

والذى يثير العجب أنه كيف جراً عمرو بن العاص على المسير إلى أرض مصر بجيش لا يزيد عن أربعة آلاف مقاتل يريد أن يهزم بهم جند الروم؟ سؤال يسهل الجواب عليه إذا علم الإنسان أن عمرو بن العاص كان محباً للإمارة، ذا نفس عالية لا ترضى إلا الجليل من الأعمال مهما قام في سبيلها من العقبات - يدلك على ذلك ما قاله عثمان رضى الله عنه «إن عمراً مجرؤ وفيه إقدام وحب للإمارة».

١ - معجم البلدان لياقوت، والخطط للمقريزى (ج ١ ص ٢٨٨).

وقد بلغ من حب عمرو للإمارة أنه حين أراد أن يعقد أبو بكر الألوية لحرب الشام كلم عمرو بن العاص عمر بن الخطاب أن يخاطب أبا بكر في تأميره على جيوش المسلمين بدل أبي عبيدة، وقد قدمنا أن عمراً كان أميراً على أبي بكر وعمر وأبي عبيدة وغيرهم أيام النبي صلى الله عليه وسلم.

قال رفيق بك العظم في كتابه «أشهر مشاهير الإسلام».

ومن تصفح تاريخ حياة عمرو بن العاص ووقف على أعماله - سواء في الفتح والإمارة - أو في دخول غمار الفتنة علم أنه رجل فذٌ قلَّ أن تنجب مثله الأمهات - لولا طمع فيه، ربما أخذ عليه أحياناً. على أنه لم يكن في دنيات الأمور، بل في أبعداها غاية، وأعصاها على غيره منالاً. وإي قاذد غير عمرو بن العاص يقدم على دخول مصر، ويرغب في تدويخ أرض الفراعنة بجيش يقلّ عن أربعة آلاف مقاتل يريد أن يقهر به أمة يربو عددها عن عشرة ملايين! وكان في البلاد من حامية الروم وحدها إضعاف ما معه من المقاتلة يحمون ذمارها ويذبون عنها. أهـ. (ج ٢ ص ٥٧٤).

والذي نراه أيضاً أن عمراً إنما رغب في فتح مصر لأنه وقف بنفسه على أحوالها عند قومه إليها في الجاهلية، وعرف مقدار ثروتها وخيراتها وأيقن أن دولة الروم قد دالت، وقد تولى جنودهم الضعف واستولى على نفوسهم اليأس، وأن قبض مصر قد ملوا حكم الروم لظلمهم وجورهم. كل هذه الأسباب لم تخف عمراً، بل حببت إليه فتح مصر، أضف إلى ذلك ما جبل عليه من الشجاعة والأقدام، ودرأيته بأساليب الحرب، وحبه للقتال، وعلمه أنه سوف ينال الجزاء الحسن من الله عز وجل، لانفراده بهذه المأثرة العالية، مأثرة فتح مصر.

ويرى حضرة أستاذنا «الشيخ عبد الوهاب النجار» أن عمرو بن العاص رأى ما كان من تزجية أبى بكر للجيش التى وجه بها لفتح سورية على قتلها، فلما صاروا مع جموع الروم وجهاً لوجه، تابع عمر بن الخطاب الإمدادات إليهم حتى كثر سوادهم، ونالوا الظفر، فلم يرد أن يثقل على عمر بن الخطاب فى أول الأمر بطلب جيش كبير يغير به على مصر، واثقاً بأنه متى صار مع الروم وجهاً لوجه فى أرض مصر، واحتاج إلى الجنود بعث بها إليه عمر بن الخطاب على الصعب والذل، ولا يمكن أن يخذله، أهـ.

ب - شروع عمرو في الفتح واستيلاؤه على العريش

سار عمرو بن العاص بجنده مخترقاً رمال سيناء حتى دخل أرض مصر على نحو ما ذكرنا، فوصل إلى العريش^(١) حيث أدركه النحر فضحى عن أصحابه يومئذ بكبش (١٠ ذى الحجة سنة ١٨ هـ - ١٢ ديسمبر سنة ٦٣٩ م) وفتحها بدون عناء^(٢).

والذى ساعد على استيلاء لعرب على العريش أمور منها:

١ - عدم منعة حصونها، والظاهر أنه قد تطاول عليها العهد فوهنت.

٢ - عدم وجود حامية رومانية، بدليل أن الحاميات الرومانية هي التي قاتلت العرب، وصبرت على قتالها طويلاً في الأمكنة الأخرى، كما سيأتى عند الكلام على قتال العرب بالفرما وبلبيس وأم دنين وبابليون وغيرها.

وقد ذكر ابن عبد الحكم أن بطريق القبط كان إذ ذاك بالإسكندرية واسمه (أبو ميامين) وهو يخالف ما ذكرناه من قبل أن (بنيامين) قد فر من وجه الروم إلى أحد الأديرة، وأن الروم تعقبوه فلم يظفروا به، بل ظفروا بأخيه (ميناء) فقتلوه عداوة لليعاقبة^(٣).

١ - يقول بططرص ١٩٧ (نقلاً عن كتاب البلدان لليعقوبي): إن المسافرين من فلسطين إلى مصر يسير إلى الشجرتين على حدود مصر، ثم إلى العريش وفي قسم الحدود، ثم إلى قرية البقارة ثم إلى الورداء الواقعة وسط التلال المرملة ثم إلى الفرما، وهي أول مدينة مصرية يصل إليها. ثم إلى مدينة الجريز ثم إلى جيفة ثم إلى القسقاط.

٢ - فتوح مصر لابن عبد الحكم (ص ٥٢)، الخطط للمقرئى (ج ١ ص ٢٨٩)، حسن المحاضرة (ج ١ ص ٤٦).

٣ - فتوح مصر لابن عبد الحكم (ص ٥٢).

ج - استيلاء عمرو علي الفرما

غادر عمرو العريش وما حواليتها من حراج النخيل متجهاً نحو الغرب على بعد من الشاطئ مجتازاً صحراء جرداء يكتنفها في بعض الأماكن قرى ومواضع يجرى فيها الماء. وكان هذا الطريق الموصل إلى بلاد مصر منذ الأحقاب المتطاولة هو الطريق الذى سار فيه المهاجرون والفاثون، فهو طريق إبراهيم ويوسف وقمبيز والإسكندر، كذلك كان طريق التجار والسائحين والحجاج فى كل العصور، بل وطريق القوافل الذى يصل أسيا بأفريقية - ولم يشترك مع جند الروم فى قتال - حتى وصل إلى الفرما (بيلوز) وهى مدينة قديمة العهد ذات حصون قوية وكنائس وأديرة. وكان لها ميناء على البحر يصل إليها جدول ماء من النيل، وكانت الفرما بمثابة مفتاح مصر ذات أهمية كبرى.

حاصر عمرو هذه المدينة نحواً من شهر^(١) وأخيراً استولى المسلمون على أحد أبواب المدينة، بينما كان جند الروم مشتغلين برد حملة العرب، فوقعَت المدينة فى أيدي المسلمين.

وكان من المحتمل استيلاء عمرو عليها فى أقل من شهر، لولا قلة جنده. ولم يدم جيش الفرس فى الزمن السابق على حصارها طويلاً بعد أن صدَّعَ جوائب أسوارها، وخرَّبَ معظم كنائسها. ولا بد أن يكون قد رمم الروم ما دمره الفرس أثناء غزوتهم لمصر، فعادت هذه الأسوار منيعة على المغيرين. لذا نرى أن عمراً قد عمد إلى حصارها، وبحسن صبر المسلمين وجلدهم تمكنوا من هزيمة الروم والاستيلاء على المدينة.

١ - وقد ذكر ياقوت فى معجمه أن القتال ظل شهرين، وهو يخالف ما ذكره المقرئى وابن عبد الحكم والسيوطى وابن الأثير وغيرهم من أن النضال دام نحواً من شهر.

وكان استيلاء المسلمين على الفرما حوالى منتصف يناير سنة ٦٤م على مارواه (بطلر) وكان أول المحرم سنة ١٩هـ (يوافق ٢ يناير سنة ٦٤٠م).

وقد ذكر (بطلر) أن المقريزى وأبا المحاسن (الذى نقل من الأول) قرراً أن القبط كانوا للعرب أعواناً، وهم على حصار الفرما. وقد أجاب بأن هذا القول لا أساس له من الصحة. ويبرهن على صحة ما يقول بما ذكره «يوحنا أسقف نقيوس» من أن القبط لم يمدوا يد المساعدة للمسلمين إلا بعد استيلائهم على إقليم الفيوم، على أن هذه المساعدة كانت جزئية ومحدودة. أهـ.

وتقدم عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى بلبيس، وتبعد عن مصر بنحو ثلاثين ميلاً، فقاتلوه بها نحواً من شهر حتى فتح الله عليه ونصره نصرًا عزيزًا.

هذا ما ذكره لنا ابن عبد الحكم والمقريزى وغيرهما من المؤرخين المشهورين عن استئناف مسير عمرو من الفرما إلى بلبيس واستيلائه عليها. وهو كما لا يخفى قول مقتضب يحتاج إلى كشف الطريق الذى اجتازه عمرو، وهل هو الطريق الذى سلكه الفاتحون من قبل، أم هو غير هذا الطريق؟ وما هى المدن التى مر عليها عمرو، واستولى عليها فى طريقه؟

هذا ما أردنا أن نقف عليه، وقد كفانا «بطلر» مؤونة البحث الكثير فنقول:

ومن هذه البقعة الريفية المغطاة بالملح التى تحيط بالفرما، مر عمرو على أرض مفروشة بقشور الصدف البيضاء التى استحالت إلى رمال حتى وصل إلى مجدل^(١) نحو الجنوب والغرب، ومن ثم إلى الجهة

١ - مجدل مدينة قديمة تلى الفرما وواقعة فى الصحراء على مقربة من شاطئ البحر.

المعروفة الآن بالقنطرة على قناة السويس، حيث يتغطى سطح تلك الأرض الصحراوية بحصى كثير صلب، وفى خلالها يقع أرض خضراء وبعض مستنقعات ملحة ينمو على جوانبها القصب.

ثم أخذ فى السير إلى الصالحية أو القصاصين، ومن ثم اتجه منحرفاً نحو الجنوب مجتازاً تلال وادى الطميلات^(١) (رأس الوادى) على مقربة من التل الكبير الآن وقريباً من بلبيس.

وقد أخذ معظم الفاتحين الأقدمين طريقاً غير هذا مثل قمبيز الذى سار من الفرما متجهاً نحو الغرب إلى سنهور وتنيس (صان الحجر)، ومن ثم إلى بلبيس، ولكن فى هذا الوقت (أى حين الفتح الإسلامى) انتشرت المستنقعات حول بحيرة المنزلة بحيث جعلت هذا الطريق على عمرو أشق مما كان على غيره. إذ لم يكن لدى عمرو وجنده (وكانوا فرساناً) من الوسائل ما يكفل لهم إقامة القناطر والجسور.

ونرى أن عمراً لو اتخذ غير الطريق الذى اتخذه لتفدت قوته قبل أن يصل إلى حصن بابلليون وهو بيت القصيد، لأن هذا مما يعيق سيره ويتطلب بذل مجهود كبير للاستيلاء على المدن واحدة فواحدة، وترك قوة فى كل منها حتى لا يقطع الروم عليه خط الرجعة لو أرغم على الارتداد.

وقد كان الأرطبون^(٢) قائد الروم فى بيت المقدس بالأمس قائدهم فى بلبيس اليوم. ولا بد أن يكون قد عول على الثبات والمقاومة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. أراد أن يوقع داهية الروم بالعرب ويهزم

١ - وموقعة بقرب التل الكبير.

٢ - وقد فر الأرطبون إلى مصر قبيل تسليم بيت المقدس على يد عمر بن الخطاب.

داهيتهم عمراً، فأخذ المسلمين على غرة وداهم معسكرهم فى جنح الليل، ولكن أبى الله إلا هزيمة الأرطبون حيث قطع المسلمون قوته إرباً، ولكن ما فتئت بلبيس ممتنعة على عمرو شهراً كاملاً، لم ينقطع فيه القتال، حتى استولى عليها بعد أن لحقت بجنده بعض الخسائر، ولكن خسارة الروم كانت فادحة إذ قتل منهم ألف مقاتل وأسر ثلاثة آلاف، وكان ذلك سنة ٦٤٠م وسنة ١٩هـ. وبهذا أصبح عمرو على مسيرة يوم واحد من رأس الدلتا.

هـ - استيلاء عمرو على أم دنين^(١)

وبعد استيلاء عمرو على بلبيس تقدم حتى أتى (أم دنين) شمال بابلين، وقد ذكر هذا الموضع كل من ياقوت والمقرئزى وابن عبد الحكم، أن أم دنين هي المقس وكانت واقعة على النيل، وتقع فيها حديقة الأزيكية الآن تقريباً (عند جامع أولاد عنان) وفي هذه الجهة نشب القتال بين المسلمين والروم. وكان هؤلاء قد أعدوا للقتال عدته، وعولوا على الثبات في هذا الموقع الحزين، بما فيه من المرفأ والسفن مما جعل له الأهمية الحربية العظمى.

وقد احتدم القتال بين الفريقين عدة أسابيع، وأبطأ على عمرو الفتح، فكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يستمده فأمدّه بأربعة آلاف مقاتل، وفيهم الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت والمقداد بن الأسود ومسلمة بن مخلد^(٢).

-
- ١ - أم دنين (بضم الدال وفتح النون وياء ساكنة ونون): موضع بمصر ذكر في أخبار الفتوح - قيل هي قرية كانت بين القاهرة والنيل ختلطت بمنازل ربض القاهرة. وكان اسمها قبل الفتح «تندونياس» التي سماها العرب فيما بعد المقس، وقد ذكر هذا الاسم الروماني «بطلر» نقلاً عن «يوحنا اسقف نقيوس».
- ٢ - كان الأربعة القواد العظام الذين اعتبر عمر كلا منهم بألف رجل: الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد، من نخبة الصحابة رضى الله عنهم. وممن شهد فتح مصر من الصحابة أيضاً غير عمرو بن العاص؛ خارجة بن حذافة، وعبد الله بن عمر بن الخطاب؛ وقيس بن أبي العاص السهمي، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح؛ وشرحبيل بن حسنة. وأبنائه عبد الرحمن وربيعة، ووردان مولى عمرو بن العاص، ومحمد بن مسلمة الأنصاري. وأبو الدرداء، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وغيرهم من مشاهير الصحابة وصناديد العرب.

وقد كان مركز عمرو حين حصاره لأم دنين من أخرج المراكز، إذ استولى اليأس على قلوب المسلمين لمن كان يقتل منهم كل يوم. أجل كبّد المسلمون الروم الخسائر الفادحة، ولكن كانت خسارة المسلمين كبيرة لقلبتهم، وخسارة الروم قليلة بالنسبة لكثرتهم، وإن كانت فى نفسها عظيمة. لهذا بعث عمرو إلى عمر يلح فى إرسال المدد على جناح السرعة، ولبث تحين قدومه على غير جدوى.

قال «بطلر»: فرأى عمرو أن يحول وجهه شطر الفيوم فيستولى على هذا الإقليم. أهـ.

ولكن لم تكن همة عمرو العالية وعزيمته الماضية بالتي تتأثر إلى هذا الحد، فآلى على نفسه أن لا يجعل لليأس سبيلاً إلى قلبه، فلا يطمع العدو فيه، فقوى نفوس المسلمين، ولم تكن إلاّ عشية أو ضحاها حتى اقتحموا الحصن وغلبوا الروم على أمرهم، واستولوا على سفنهم التي أفادتهم فيما بعد فائدة تذكر.

و - عمرو وغزو الفيوم وواقعة عين شمس

اضطربت كلمة المؤرخين فى ترتيب وقائع الفتح الإسلامى لمصر اضطراباً لا يقل عنه فى ترتيب وقائع الشام، وأغفل بعضهم ذكر بعض الوقائع الهامة، ومن ذكرها منهم فقد مرّ عليها مسرعاً بطريقة لا تشفى الغلة، ولا تكشف اللثام عن كنه الحقيقة، ولا يتيسر لنا بذلك الإقرار بصحة ما ذكروه أو دحض ما قالوه، وللأسف لم يقتصر هذا الأمر على مؤرخى العرب فحسب، بل تعداهم إلى غيرهم من الفرنجة. ولكنه عند هؤلاء أخف وطأة منه عند العرب. وقد رأينا أن نأتى بما ذكره بعض هؤلاء المؤرخين عن ترتيب هذه الوقائع، ثم نأتى برأينا ونؤيده بالأسباب التى حملتنا على هذا الإقرار. وليكن كلامنا على غزو الفيوم وواقعة عين شمس. اللتين هما جوهر الخلاف بين المؤرخين فنقول:

من المؤرخين من ذكر وقائع مصر على هذا الترتيب: العريش. الفرما. بلبيس. أم دنين. بابليون. وهم ابن عبد الحكم والمقرئزى والسيوطى. والظاهر أن هؤلاء استقوا تواريخهم من مصدر واحد، وهو ابن عبد الحكم (وهو أقدم مؤرخى مصر) إذ العبارة واحدة لا تختلف حتى فى اللفظ - وزاد عليهم (بطلر) أن غزو الفيوم وموقعة (هليوبوليس) كانتا قبل حصار بابليون أو قصر الشمع.

وقد ذكر الواقدى ورفيق بك العظم هذه الوقائع على الترتيب السابق عدا واقعة أم دنين فقد أغفلت. وكذلك واقعة عين شمس.

ونذكر الطبرى وعنه أخذ ابن خلدون الوقائع مرتبة على هذا النمط: الفرما. بلبيس. عين شمس. وقد زعما أن استيلاء عمرو على عين شمس. حيث كان جمع الروم (والذى نراه أنهما يقصدان بابليون) ومنها أرسل أبرهة بن الصباح إلى الفرما، ويعث عوف بن مالك إلى

الإسكندرية فى أن واحد، وهذا خطأ كما سيظهر من أن عمراً هو الذى توجه بنفسه إلى الإسكندرية عقب. حصار حصن بابليون، ومع ذلك فلا يبعد أن يكون قد أرسل بعض الجنود لمشاغلة الروم قرب الإسكندرية وليمنعهم من إرسال المدد إلى بابليون. وإن كنا لم نعثر فيما رأيناه من التواريخ على رأى يؤيد ذلك. ولم يذكر (إيرفينج) و(موير) غير واقعتى الفرما وبابليوس. وأطلق الأخير منهما على واقعة بابليوس - (هليوبوليس) كما فعل الطبرى وابن خلدون.

يعلم من ذلك مبلغ اختلاف هؤلاء المؤرخين، ومن سار على أسلوبهم، وإذا وفقنا بين ابن عبد الحكم ومن أخذ عنه، وبين (بطلر) (عدا غزو الفيوم) أصبحت وقائع الفتح الإسلامى مرتبة على هذا الترتيب: - العريش . الفرما . بلبيس . أم دنين . هليوبوليس . قصر الشمع .

والآن نتكلم بإيجاز عما ذكره (بطلر) عن غزو الفيوم وواقعة عين شمس، ثم نؤيد رأينا بالبراهين الدالة على صحة ما ذكره «بطلر» أو دحضه فنقول:

١ - غزو الفيوم (١)

لما استولى عمرو على أم دنين الواقعة على النيل أصبح تحت إمرته سفن كثيرة، ولما رأى أن مامعه من المقاتلة لا يكفى لفتح حصن

١ - قال «بطلر» مؤيداً قوله بما نقله عن يوحنا اسقف نقيوس الذى يعتبره أكبر حجة فى سرد ووصف وقائع فتح مصر: ولا ريب كما يلوح لى أن غزو الفيوم حدث فى الوقت، وعلى الترتيب الذى ذكرته وأن هذا الترتيب لم يذكره أى مؤرخ من مؤرخى العرب أهـ. وهذا حقيقى كما يظهر مما ذكرناه عند كلامنا على اختلاف روايات المؤرخين فيما يتعلق بترتيب الوقائع - وهذا يخالف ما ذكره السيوطى (ج ١ ص ٦٢) أن عمرو بن العاص لم يتم له فتح الفيوم إلا بعد سنة، وكذلك البلاذرى فى كتاب (فتوح البلدان) فإنه ذكر أن الفيوم والوجه القبلى عموماً قد فتحت بعد استيلاء العرب على حصن بابليون.

بابلليون، ولم يكن قد وصل إليه المدد بعد، أراد أن يشغل جيشه بعمل ريثما يأتيه المدد، فخرج فى القوارب إلى الفيوم ماراً بمدينة «منف» الواقعة على الشاطئ الغربى للنيل تجاه حصن بابلليون فاستولى عليها، واستأنف مسيره حتى صار على نحو عشرة أميال من مدينة الفيوم على مقربة من مدينة اللاهون الواقعة على بحر يوسف حيث عسكر بها الروم.

فتقدم عمرو إلى البهنسا، واستولى عليها فاقتفى «يوحنا» قائد الروم أثره بقوة صغيرة مؤلفة من خمسين مقاتلاً من الروم لاستطلاع حركات المسلمين على أن هذا القائد شعر بخطورة مركزه فخرج على معسكره فى «أبواط»^(١) فأدركه عمرو وقتل الروم فى هذه الجهة عن آخرهم.

لا يمكننا أن نفهم ما يقوله «بطلر» من أن عمرو بن العاص يزاول موقعه، ويترك البلاد التى افتتحها ورسخت أقدامه فيها، ويترك العريش والفرما وبلبيس وأم دنين ويذهب إلى الفيوم والبهنسا، وإذا كان فعل ذلك فأتى مانع للروم من أخذ هذه البلاد وإعادةها إلى حكمهم، وشحنها بالمقاتلة وقتال المدد الذى يأتى إلى عمرو عن كل شبر من الأرض، فافت ذلك فى عضدهم. على أن حدوث وقائع البهنسا ونحوها من بلاد الصعيد لم نقف عليه فى كتاب يقام له وزن. والذى يغلب على ظننا أن «بطلر» وقف على بعض القصص الموضوعة على الخيال. فذكر البهنسا ووقائع المسلمين فيها، ورأى العامة من المسلمين يعتقدون أن لهم شهداء، فلم يجد طريقاً للجمع بين الأخبار الصحيحة وبين ذلك إلا بأن يذكر نهاب عمرو بجنده إلى الفيوم.

١ - يقول أمليوتو: إن هذه المدينة بمديرية بنى سويف قريبة من بوصير واقعة شرقى حجر اللاهون تماماً.

والذى يكاد يكون اعتقاداً لنا أن الشهداء بالبهنسا إنما هم شهداء الأقباط الذين قتلوا فى عهد الاضطهاد. فلما غلب الإسلام وكان اسم الشهداء غالباً يدعوهم بغير سلطان أتاهاهم.

ولما سمع «تيودور» قائد الروم بما حل بجنده فى هذه الواقعة أسقط فى يده، واستدعى جميع جند الروم من كافة أرجاء الديار المصرية ليعزز بهم حصن بابلليون، وفى هذا الوقت انسحب عمرو من البهنسا مركز قيادته من غير أن يتغلب على مدينة الفيوم^(١) ولكنه تمكن من ضرب الروم فى عدة وقائع وأمن الأخطار التى قد تحدث به لو بقى فى أم دنين حيث شغل جيشه فى مكان أبعد خطراً ريثما يأتى إليه المدد. وسار عمرو فى النيل على جناح السرعة ليلحق بالمدد الذى علم بدنوه من عين شمس، حيث التقى بأربعة آلاف مقاتل^(٢) مدداً من عمر بن الخطاب وعليهم الزبير بن العوام.

وقد ابتدأت غزوة الفيوم على ما ذكره «بطلر» فى نحو أوائل مايو سنة ٦٤٠ م، واستغرقت عدة أسابيع كانت نتائجها فى مصلحة

١ - بطلر ص ٢٢١ - ٢٢٩ باختصار.

٢ - اختلف المؤرخون فى هذا العدد. فذكر ابن عبد الحكم أنهم كانوا أربعة آلاف تمام ثمانية آلاف، وعنه أخذ (جبون) وأخرج ابن عبد الحكم أيضاً أن عمر بن الخطاب بعث الزبير بن العوام فى اثنى عشر ألفاً، وذكر السيوطى والمقرئى أنهم كانوا أربعة آلاف على كل ألف منهم رجل بمقام ألف بحيث أصبح جيش عمرو على هذا الزعم اثنى عشر ألفاً. وذكر البلاذرى أنهم كانوا عشرة آلاف أو اثنى عشر ألفاً. وقال ياقوت: وقيل إن المدد كان اثنى عشر ألفاً. وذكر الكندى والسير (وليم موير) أن جند عمرو أصبح بعد وصول المدد خمسة عشر ألفاً وخمسمائة. وذكر «يوحنا اسقف نقيوس» أن المدد كان أربعة آلاف. ولا يمكننا الاهتمام إلى رأى قاطع لاختلاف هذه الروايات، إنما نرجح أن المدد لم يزد عن أربعة آلاف، إذ لا يعقل أن يسير عمرو لفتح مصر بأربعة آلاف مقاتل ثم يمده عمر بضعف هذا العدد. وربما بلغ المدد اثنى عشر ألفاً بالتدريج.

المسلمين. وفي ٦ يونية وصل المدد إلى (هليوبوليس) أو عين شمس التي اتخذها عمرو مركزاً لقيادته، وشرع يعد للموقعة الدانية عدتها.

٣ - واقعة هليوبوليس:

أما «تيودور» قائد الروم فقد عوّل على أن يسير بعشرين ألفاً من جند الروم يريد أن يزحزح بهم جند المسلمين عن (هليوبوليس)، على أن هذا الرأي كان ولا ريب في مصلحة عمرو بن العاص الذي رغب في أن يشتبك مع الروم في العراء. حيث يسهل عليه كسرهم أكثر مما لو تحصنوا في حصن بابلليون المنيع. فزحف «تيودور» على عين شمس فوضع عمرو كميناً في موضع خفى من الجبل الأحمر^(١) وأخّر في النيل قريباً من أم دنين ولاقى (تيودور) بالفريق الأكبر من الجيش. ونشب القتال في منتصف المسافة بين الجيشين تقريباً في حي العباسية الآن. وقد أيقن الفريقان أن على النجاح في هذا الميدان يتوقف حظ مصر، فحمى وطيس القتال بين الفريقين، ولما بلغ أشده خرجت قوة خارجية بن حذافة من الجبل وانقضت كالصاعقة على ساقة الروم. فاختل نظام جندهم وعرجوا إلى الغرب نحو أم دنين. فقابلتهم قوة العرب وأصبحوا بذلك بين جيوش العرب الثلاثة التي سحقتهم سحقاً فلم يبق منهم سوى عدد قليل سار بعضهم في النيل وفر البعض الآخر رجالاً إلى بابلليون^(٢).

وقد ذكر «تاريخ مصر إلى الفتح الإسلامي» المقرر تدريسها بالمدارس الثانوية أنه لم يبق من جند الروم عقب هزيمتهم في واقعة عين شمس سوى ٣٠٠ مقاتل. وقد أخذ هذا من كتاب (بطلر) الذي يقول: إن العرب المنتصرة استولوا ثانية على أم دنين، وقد قتل جميع

١ - شرقى العباسية.

٢ - ستانلى لين پول ص ٥، بطلر ص ٣٢٠ - ٣٢٣.

حامية الروم فى هذا الحصن فى المعركة إلا ٣٠٠ مقاتل، ويؤيد ذلك أيضاً ما ذكره «لين پول»: واحتل المسلمون تندونياس (أم دنين) التى هلكت حاميتها إلا ٣٠٠ مقاتل.

إلا أنه لا يعقل أن يفقد الروم تسعة عشر ألفاً وسبعمئة مقاتل من جندهم، وعدده لم يزد على عشرين ألف مقاتل.

اعتمد (بطلر) على تاريخ (يوحنا أسقف نقيوس) فيما يتعلق بغزو الفيوم وواقعة عين شمس مرجحاً ما ذكره هذا المؤرخ على غيره من مؤرخى العرب الذين لم يرد فى توارىخهم ذكر لغزو الفيوم، اللهم إلا ما ذكره بعضهم سيما «السيوطى» أن فتح الفيوم لم يتم إلا بعد سنة: أى بعد حصن بابلين.

وقد استدل «بطلر» على ترجيح «غزو الفيوم» قبل فتح حصن بابلين بأن عمراً تأكد أنه لا يتسنى له أن يقتحم الحصن بجنده القليل، فرأى أن يشغل جنده فى جهة بعيدة الخطر كالفيوم، فبغت فى عضد العدو بانتصاره عليه فى سلسلة وقائع جزئية. على أنه فات «بطلر» أن هذا مما كان يجعل جند عمرو فى أخرج المراكز، إذ يتسنى بذلك للروم أن يستردوا ما استولى عليه عمرو من المدن، فتضيع منه العريش والفرما وبلبيس وأم دنين وغيرها، فيقطعون عليه خط الرجعة. أضف إلى ذلك أن مسير عمرو إلى الفيوم كان فى النيل الذى يشرف عليه حصن بابلين، فيتسنى للروم أن يلحقوا بالمسلمين خسارة فادحة أثناء مرورهم فى النيل. وعلى هذا يضطر المدد لاسترداد هذه المدن من الروم أثناء مسيره إلى (هليوبوليس) فتحلق به خسارة كبيرة فى طريقه. ولم يثبت مما رأيناه من التواريخ أن هذا المدد قد لاقى أية مقاومة قبل وصوله إلى (هليوبوليس) والظاهر أن «بطلر» قد اعتمد على ما رآه فى بعض التواريخ عن شهداء البهنسا التى حدثت فيها موقعة بين

الروم والمسلمين على مارواه عن يوحنا أسقف نقيوس، فتوهم أن هذا حدث عند غزو الفايوم التي استولى عليها العرب بعد حصن بابليون من غير حرب أو قتال. ولعل هذا الحادث يرجع إلى قتل الروم لليعاقبة، فأطلق على القتلى الذين استشهدوا بالبهنسا «شهداء البهنسا» فتوهم البعض أن هذا كان وقت الفتح الإسلامي، وليس ببعيد أن يكون عمرو قد وقف على حصار حصن بابليون حتى وصل إليه المدد، فشرع يعمل لفتحه.

أما عين شمس فكان من السهل أن يستولى عمرو عليها قبل حصاره حصن بابليون، لأنه لم تكن بها حامية كبيرة من جهة، ولأنها كانت في طريقه. وربما استولى عليها قبل أم دنين، ثم نشب بينه وبين الروم القتال بعد وصول المدد إليه من عمر على أثر تدهوره إلى هذه المدينة. حيث رأى من مصلحته الحربية أن يستدرج الروم إلى العراء فيضعف حامية الحصن، فلا تقوى على المقاومة طويلاً.

٢ - حصار عمرو لحصن بابليون

وقبل أن نطرق هذا الباب يحسن أن نعرف من المقوقس

١ - المقوقس

اتفق المؤرخون على أن المقوقس لقب لرجل كان له شأن كبير عند الروم وقت فتح مصر، وأنه هو الذى صالح العرب عليها. ولكن اتفاقهم وقف عند هذا الحد، فاختلفوا فى اسمه وجنسه ووظيفته، والعمل الذى عمله، ومعنى اللقب الذى عُرِفَ به. وقد كثر الجدل فى هذه المسائل الآن، وللأسف لم تؤد هذه المناقشات إلى رأى قاطع يمكن أن نتخذه حجة دامغة، بحيث يكفى الغير مؤونة البحث.

ومن المؤرخين الذين عُنُوا باستطلاع خبر المقوقس عناية خاصة الدكتور (بطلر) فى كتابه (فتح مصر والاسكندرية) (ص ٥٠٨ - ٥٢٦) حيث أفرد له باباً خاصاً، والمسيو (اميلينو) الذى كتب مقالة شائقة فى المجلة الآسيوية فى نوفمبر سنة ١٨٨٨م تقع فى أكثر من عشرين صحيفة (ص ٣٨٩ - ٤١٠).

وقد اتفق هذان المؤرخان على أن المقوقس كان عاملاً على مصر من قبل الروم، وبطريقاً ملكياً، أى على خلاف مذهب السواد الأعظم من المصريين وهو اليعقوبى. أما مؤرخو العرب فقد خبطوا فى هذا الموضوع خبط عشواء. وقد رأينا أن ننقل بعض ما ذكره (بطلر) وغيره من أقوال كثيرين من المؤرخين الأوروبيين المحدثين فنقول:

قال المؤرخ «فون رانكى» إن المقوقس كان والياً على مصر، وأنه من القبط. و«دى غويه» الذى قال: يظهر أن مؤرخى العرب خلطوا أحياناً بين المقوقس وفيرس بطريق الإسكندرية، مع أنهما شخصان

مختلفان كانا يشغلان مركزين متباينين. والمستر «ملن» الذى قال فى كتابه «مصر فى عهد الرومان» إن المقوقس هو «جريج بن مينا» الذى ذكره «يوحنا أسقف نقيوس» وقال إنه كان والياً على أثريب، وأنه هو الذى أدلى بمقاليد مصر إلى العرب (ص ٢٢٤) و«ستانلى لين پول» (ص ٦) يميل إلى رأى المستر «ملن» فيما يتعلق باسمه، بالرغم مما ذكره مؤرخو العرب، وهو أنه كان والياً على ديار مصر من أقصاها إلى أقصاها، ولكنه اتفق مع هؤلاء على أنه كان من القبط... وقال الأستاذ «برى» فى كتابه (الإمبراطورية الرومانية فى عهدها الأخير) إنه كان والى مصر كلها، وكان من القبط.

ونحن نزيد على ما نقلناه عن مؤرخى الأفرنج ما قاله «جبون» (ج ٩ ص ٢٦٨) وهو أن المقوقس كان مصرياً وثرياً نبيلاً، وما قاله «إيرفنج» (ص ١٠٨) وهو أنه كان والى مصر؛ وكان من عنصر مصري (اعنى قبطياً) وفى مرتبة الأمراء أو النبلاء، وأنه كان منافقاً عظيماً، وكان يعقوبى الذهب. ولننقل ما قاله بعض مؤرخى العرب المعدودين فى هذا الصدد فنقول:

١ - قال البلاذرى فى «فتوح البلدان» (ص ٢٢٢ - ٢٢٣ - ٢٢٨) إن المقوقس صالح عمرا، ولم ينقض الصلح مع القبط حين رفضه (هرقل) وأنه اعتزل أهل الإسكندرية حين نقضوا، فأقره عمرو ومن معه على أمرهم الأول. وذكر بعض الرواة أنه كان قد مات قبل مجئ (منويل) لاسترداد الإسكندرية. ويظهر من هذا أن البلاذرى لم يسم لنا المقوقس.

٢ - وقال الطبرى (ص ٢٢٧): فلقيهم هنالك (أمام حصن بابليون) أبو مريم جاثليق مصر ومعه الأسقف، بعثه

المقوقس لمنع بلادهم، وقال فى مكان آخر إنه (المقوقس) صاحب الإسكندرية.

٣ - وقال سعيد بن البطريق^(١) : إن المقوقس كان ملكياً وكان عامل الخراج على مصر من قبل (هرقل) ، وكان يعقوبياً فى الباطن ملكياً فى الظاهر، وكان أيضاً قد أقطع أموال مصر حين حاصر الفرس القسطنطينية.

٤ - وقال (ساويرس بن المقفع)^(٢) أسقف الأشمونين فى كتابه «سير البطارقة» : ولما ملك (هرقل) أقام الولاة فى كل موضع، وأنفذ إلى مصر (فيس) ليكون والياً وبطريقاً. فلما وصل إلى الإسكندرية أعلم الأب بنيامين ملاك الرب به، وأمره أن يهرب هو ومن معه ههنا لأن شدائد عظيمة تنزل عليهم ... ثم قال عن سنى الاضطهاد: وهى السنين التى كان فيها هرقل والمقوقس مسلطين على ديار مصر... وقال أيضاً فلما تمت عشر سنين من مملكة هرقل والمقوقس، وأيضاً: خاف (بنيامين) الكافر - وهو كان والى الإسكندرية

١ - هو سعيد بن البطريق بطريق الإسكندرية. قال فى «عيون الأنباء» إنه من أهل فسطاط مصر، وكان طبيباً نصرانياً مشهوراً عارفاً بعلم صناعة الطب وعمله. ولد سنة ٢٦٣ هـ وجعل بطريقاً على الإسكندرية وسمى «أوتيوخوس» وعمره نحو ستين سنة، ويقى فى الكرسى والرئاسة نحو سبع سنين وستة أشهر ومات سنة ٣٢٨ للهجرة. وله كتب كثيرة فى الطب والتاريخ.

٢ - قال (بطلر) إنه أسقف قبطى كتب تاريخ البطارقة. ويوجد من كتابه ثلاث نسخ معروفة، واحدة فى المتحف البريطانى وهى من القرن الخامس عشر، وواحدة فى مكتبة باريس من القرن الرابع عشر، والثالثة أقدم منهما، وهى عند مرقس سميكة بك (باشا) فى القاهرة. وكانت فى القرن العاشر للميلاد، وفى نسخة باريس مقدمة لمحبوب بن منصور أحد شمامسة الإسكندرية كتبها فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر.

ويطيريرقها وأخيراً يخاطب بنيامين نفسه عن سنى
الاضطهاد «الذى نزل بى لما طردنى المقوقس». فيتبين مما
يقوله ساويرس أن بنيامين قد طُرد من كرسي البطيريرقية
بمجرد وصول (فيرس)، فبناءً على ما ذكره ساويرس هذا
يكون فيرس هو المقوقس.

وبعد موت ساويرس مرت حقبة من الدهر لا تقل عن
قرنين حتى جاء.

٥ - ابن الأثير فقال: فأخذ المسلمون (باب إليون) وساروا إلى
مصر، فلقيهم هناك أبو مريم جاثليق مصر ومعه الأسقف
بعثه المقوقس لمنع بلادهم... ثم قال: فلما التقى المسلمون
والمقوقس بعين الشمس واقتتلوا، وسار عمرو إلى
الإسكندرية فوجد أهلها معدين لقتاله فأرسل المقوقس إلى
عمرو يسأله الهدنة إلى مدة فلم يجبه إلى ذلك. وقال: لقد
لقينا ملككم الأكبر (هرقل) فكان منه ما بلغكم، فقال
المقوقس لأصحابه صدق...^(١) إلى غير ذلك من الخبط
الكثير، ولا سيما فيما رواه عن تنسيق الحوادث التي وقعت
فى أوائل الفتح.

٦ - وقال أبو صالح الأرمنى^(٢). وكان محمد صلى الله عليه وسلم
قد سير حاطب بن أبى بلتعة من لخم إلى المقوقس صاحب
الإسكندرية (فى السنة السادسة للهجرة أى سنة ٦٢٧ م).
وقال فى الكلام عن دير فى الصعيد: وكان يأوى بنيامين

١ - الكامل لابن الأثير (ج ٢ ص ٢٧٨ - ٢٧٩).

٢ - كان معاصراً لابن الأثير أو سابقاً له فقد قال فى أول كتابه: نبتدى بعون الله
وإرشاده أن فى عصرنا هذا فى ابتداء سنة أربع وستين وخمسمائة كان بناء
الكنيسة التى على اسم مارى يعقوب بناحية البساتين.

مختفياً فى ملك هرقل الخلقدونى المذهب، وجريج بن مينا
المقوقس بمصر إلى انقضاء مدة عشر سنين خوفاً منهما
كما أوحى إليه الملاك. ثم استرسل أبو صالح فى الكام فقال:
وهذه كانت مدة عشر سنين الاضطهاد. وهى المدة التى
قاسى منها الأرثوذكسيون (القبط) صعوبات جمة. وقال
أبو صالح: إنه وجد فى كتاب الجناح: وكان الأسقف من
الروم بمصر والإسكندرية يسمى فيرس.

٧ - وقال ياقوت فى معجمه: إن أمير الحصن كان وقت الفتح
المندفور من قبل المقوقس بن قرطب اليونانى، الذى كان
ينزل الإسكندرية.

٨ - وقال المكين إن المقوقس كان والى مصر من قبل هرقل، وأنه
صالح عمراً هو وكبار القبط.

٩ - وقال ابن خلدون: إن المقوقس كان من القبط.

١٠ - وقال ابن دقماق: إن المقوقس كان نائب هرقل وكان
رومانياً.

١١ - وروى المقرئى: ثم أحاط المسلمون بالحصن وأميره يومئذ
المندفور، الذى يقال له الأعيرج من قبل المقوقس بن قرطب
اليونانى. وكان المقوقس ينزل الإسكندرية، وهو فى سلطان
هرقل، غير أنه كان حاضراً الحصن حين حاصره
المسلمون. وتابع المقرئى ابن عبد الحكم فى إبقاء المقوقس
إلى زمن فتنة «مانويل» وتابع ياقوت فى وصفه المقوقس
بأنه ابن قرطب اليونانى. وقال أنه كان للقبط بطرق فى
الإسكندرية اسمه «أبو ميامين»، وأن المقوقس صالح العرب،
لكن هرقل أرسل إليه يقبح رأيه.

١٢ - وقال الواقدي: إن ملك القبط كان يومئذ المقوقس بن راعيل.

١٣ - وذكر أبو المحاسن أن بنيامين كان بطرق القبط بالإسكندرية وأن أمير الحصن يومئذ «المندفور» الذي يقال له الأعيرج من قبل المقوقس وهو ابن قرقب اليوناني.

وكان المقوقس ينزل الإسكندرية وهو في سلطان هرقل، غير أنه كان حاضراً الحصن حين حاصره المسلمون. ونقل عن «ابن كثير» أن جاثليق مصر كان أبا مريامين.

١٤ - أما السيوطي فلم يخالف أبا المحاسن فيما قاله.

ويظهر للمتأمل لما ذكره مؤرخو العرب مبلغ الخلط الذي وقعوا فيه من حيث تعدد الأسماء التي أطلقت على المقوقس، والاختلاف الكثير في معرفة وظيفته ومذهبه وغير ذلك. ولكن يستخلص من التواريخ العربية أن هناك ثلاثة رجال وهم: المقوقس، وأبو مريم، والأعرج.

١ - الأعرج والأعيرج:

لقبه ياقوت «بالمندفور» ولعل النساخ حرفوها عن «المنذور»: أي الأمير. وتابعة أبو المحاسن والسيوطي وزاد الأخير في تحريف هذه الكلمة فجعلها «المندفول». وقد رأى (بطلر) أن (الأعرج) تحريف كلمة (جريج) وأن اسم أمير الحصن كان «جريج» و«جورج». ويرى «لين پول» أن الأعرج أو الأعيرج ربما يشبه (أرطوبون).

٢ - أبو مريم:

قال «لين پول» إنه جاثليق مصر، ومعنى جاثليق بطريرك. وقد ذكره أولاً بهذا اللقب الطبري، لأنه لقب لبطارقة الكنائس النسطورية والأرمنية، وكان مألوفاً عنده لاتصاله ببلاد الفرس. وقال الطبري إنه

كبير بطارقة النصارى، وكناه بأبى مريم. ومعلوم أنه كان فى مصر فى زمن الفتح بطرقان (قيرس) و(بنيامين): فابن مريم لا يصح أن يكون محرفاً من قيرس ولكن يصح أن يكون محرفاً من بنيامين، وزاد تحريف الاسم فى زمن ابن الأثير فصار «أبو مريم» وسماه السيوطى «أبا ميامين» ووضح أن بنيامين حرّف فصار أبا ميامين ثم أبا مريم.

٣ - المقوقس:

إن المؤرخين الأقدمين الذين أشرنا إليهم كالبلاندرى والطبرى وساويرس أسقف الأشمونين وابن الأثير لم يكنوا المقوقس. وأول من قال إنه ابن مينا، أبو صالح الأرمنى. وقال ياقوت: إنه ابن قرقب اليونانى.

وقد خطأ (بطلر) الطبرى لقوله إن المقوقس كان عظيم القبط، وأنه كان فى الحصن عند استيلاء العرب عليه، أعنى أنه لم يكن يعقوبياً، ولم يكن حاضراً فى الحصن عند اقتحام العرب له؛ وكذلك خطأ «أوطيخا» (وكان ملكياً) لقوله إن المقوقس كان يعقوبياً، لكى لا تقع على الملكيين تبعة ما فعله.

ثم قال (بطلر): لا يكشف ما غمض من أمر المقوقس إلا ساويرس أسقف الأشمونين. وقد ألف كتابه من كتب كثيرة كانت محفوظة فى المكتبة فى دير مقاريوس فى مجاميع خاصة. ولا شك فى أنه تصعب قراءة مؤلفة لعدم ضبطه وإتقانه. ومع ذلك فالملحومات التى وجدتها فى كتابه جملة لا توجد فى المؤلفات القديمة التى أطلعت عليها. وهذا ما يقوله (ساويرس): أقام هرقل قيرس والياً على مصر بعد أن استردها الروم من الفرس ليكون بطريقاً للإسكندرية، وأنه أقام عشر سنين اضطهد الكنيسة القبطية فيها اضطهاداً شنيعاً. وهذه المدة بينها بنيامين «بالعشر سنين التى أقام فيها هرقل والمقوقس مسالطين على

ديار مصر» ويلقب قيرس بالكافر الذي كان والياً وبطريقاً للإسكندرية من قبل الروم. ويقول عن سنى الاضطهاد «الاضطهاد الذي نزل بى لما طردنى المقوقس»... ولم يبق إذ ذاك أدنى شك فى أن ساويرس جعل المقوقس هو «قيرس» وميزه من «بنيامين».

ثم أقام بطر الأدة على أن الأسقف ساويرس مصيب فيما ذكره وأن ما ذكره مورخو العرب خطأ محض.

والذى يظهر لنا مما ذكرناه أن مؤرخى العرب متفقون على المركز الذى كان يشغله المقوقس، وهو أنه كان والياً على مصر من قبل هرقل، وبطريقاً للإسكندرية، وأنه هو الذى صالح العرب. ولكن لم يتفقوا على حقيقة اسمه، بل شاع الخلط بينهم، وكذلك بين الأفرنج، ومنهم إميليئو الذى قال إن (قيرس) لابد أن يكون قد ترك مصر فى سنة ٦٣٩ م، ويحتمل أن يكون المقوقس قد اختير ليحل محل (قيرس) حيث يغلب على الظن أنه (المقوقس) كان عدو (قيرس). وبعد أن رجح «إميليئو» كون المقوقس ملكياً فى مقاله الذى نشره فى المجلة الآسيوية عارض نفسه فقال: إذا كان هذا صحيحاً (كون المقوقس ملكياً) فكيف يتأتى لمؤرخى القبط الذين أرخوا تواريخهم بالعربية مثل أوطيخا والمكين وأبى الفرغ أن لا يقولوا شيئاً عنها^(١)؟

أما خلاصة ما ذكره إميليئو عن المقوقس فهى كما يأتى:

١ - أن المقوقس كان يسمى جورج بن مينا وابن قرقب، وينبغى أن يكتب ابن قرقب.

٢ - إن المقوقس كان قبطى الجنس من جهة واحدة. إن لم يكن من جهتين، وكان فى خدمة الإمبراطور (هرقل) وكان فى

١ - رد (بطر) على هذا بقوله إن أبا الفرغ لم يكن قبطياً البتة، ولا مصرياً، وكذلك أوطيخا، أما المكين فقد قال إنه مؤرخ، وليس من وراء تاريخه فائدة كبيرة.

الأصل ملكى المذهب.

٣ - وأنه كان بطريقاً ملكياً، ولا يمكن أن يُعلم تاريخه إلا من باب الحدس والتخمين.

٤ - إن لفظ المقوقس كان كنيةً مشتقةً من (كوكيون باليونانية)، اسم نوع من النقود. وكذلك قال (بيريلا) ولم يصوب (بطلر) هذا الرأى، بل قال إن اللفظ الحبشى لهذه الكلمة هو المقوقس (بفتح القاف الثانية) وأن هرقل نقل (قيرس) إلى مصر من بلاد القوقاز، فلا يبعد أن يكون لقب فى مصر بالقوقاسى وهى (أوقواسيوس) باليونانية، و(بكوخيس) بالقبطية، ولا يبعد أن تكون الكلمة القبطية حرفت فى نقلها إلى العربية فصارت (مقوقس) أو قدمت عليها الميم للنسبة (كالمصر لمن أقام فى مصر).

أما الأمر الذى يهمنى بحثه وإبداء رأينا فيه بنوع خاص، فهو مذهبه، وهل كان المقوقس ملكياً أو يعقوبياً فنقول:

قد أورد أصحاب المقتطف (الجزء الثامن والعشرين سنة ١٩٠٣ من (ص ٢٣٢-٢٣٦) خلاصة ما ذكره (بطلر) عن المقوقس. وقد علقوا على ترجمة هذا الباب بقولهم: ويظهر لنا أنه (بطلر) عن المقوقس. وقد علقوا على ترجمة هذا الباب بقولهم: ويظهر لنا أنه (بطلر) حل عقدةً غامضةً من عقد التاريخ، وأبان أن البحث الدقيق يجلوا أغمض المسائل. أهـ.

أما نحن فنعترف للدكتور بدقة البحث وإصابة الرأى، ولكن ليته حل حقيقة هذه العقدة أو تلك العقد المرتبطة باسمه وجنسه ومذهبه، فإنها لا تزال مستعصية عليه كما شاهدنا.

ونحن نذكر ما عسى أن يكون له مساس بما ذكره (بطلر) خاصاً

بمذهب المقوقس، أيعقوبيًا كان أو ملكيًا، وإذا كان ملكيًا فلم صالح العرب وساعدهم؟

مما تقدم يعلم أن «بطلر» اعتمد على مارواه ساويرس أسقف الأشمونين من أن المقوقس كان ملكيًا، فجزم بصحة مذكره ساويرس وأنه طرح كلام مؤرخى العرب والأفرنج جميعًا، بعد بحث طويل ومجهود كبير، وأن مذكره سواء خطأ محض، فبنى حكمه على ما قرأه فى كتاب هذا الأسقف. ولكن للأسف قرر بطلر فى سياق مدحه له أنه يستحيل على القارئ قراءة كتاب ساويرس لنقص فى الإتيان، وكيف يجزم بطلر بصحة مذكره ساويرس وكتابه مهمل عديم التنسيق؟

فإذا سلم بطلر بأن (أوطيخا) الملكى المذهب قد جعل المقوقس يعقوبيًا لى لا تقع على الملكيين تبعة عمله، فلم لا يظن أيضًا أن (ساويرس) اليعقوبى المذهب قد جعله ملكيًا لأنه خان البلاد وصالح العرب عليها كما عدّ غيره من المؤرخين عمل المقوقس خيانة عظمى ومن بينهم بطلر؟

وإذا كان المقوقس رومانياً ملكياً محبباً للروم لا يخشى سوءاً إذا احتفظ بمصر فلم التف حوله القبط وتابعوه وصالحوا العرب لصلحه لهم وهو ملكى؟ وقد قدمنا أن اليعاقبة كانوا يعتبرون مجرد الاشتراك مع الملكيين فى أى عمل خيانة عظمى لا تغتفر.

وإذا كان المقوقس ملكى المذهب، وأنه هو الذى نكل بالقبط عشر سنين فكيف يعقل أن يكون القبط فى صفه، وأن تتركه الروم وشأنه ولم ينقض الصلح مع القبط، بينما استمر الروم فى الدفاع عن البلاد إلى النهاية؟

لهذا لا نوافق (بطلر) ولا غيره من المؤرخين الذين رأوا أن المقوقس

كان ملكياً، ونميل إلى القول بأن المقوقس كان قبطياً يعقوبى المذهب من أصل يونانى، عينه (هرقل) لما رأى فيه من الحزم والنبيل واحترام القبط له، وما اشتهر به من جميل الخصال وكريم الأفعال. وإذا كان ملكياً فى الظاهر، ولكنه اعتنق المذهب اليعقوبى سرّاً، كى لا يعلم بذلك (هرقل) فينقم عليه، ويصب عليه جام غضبه، وإذا قيل إن البطريق (بنيامين) فر من وجه المقوقس نفسه حين علم بعودته إلى مصر قبيل الاضطهاد الذى دام عشر سنين، فلا يبعد أن يكون المقوقس نفسه هو الذى أشار على (بنيامين) بالالتجاء إلى أحد الأديرة كى ينجو من ظلم الروم.

والظاهر أن المقوقس لم يكن له من النفوذ والسلطان ونفاذ الكلمة ما يكفل له وقف هذه المذابح التى قام بها الروم حتى لا تنكشف حقيقة أمره فيمثل به (هرقل) رواية الغدر، لأن الروم كانوا يقتفون أثر من اشتهر بمخالفة مذهب خلقدونية أو عرف بالميل إلى اليعاقبة أعداء هذا المذهب، ولا يبعد أن يكون (قيرس) والمقوقس شخصين مختلفين كما رأى أيضاً دى غويه، فكان للأول السلطة العسكرية، والثانى السلطة المدنية. وكان (قيرس) ملكياً متعصباً لمذهبه فقام بهذه الاضطهادات فى جميع أنحاء الديار المصرية، ولم يكن للمقوقس وهو الحاكم الملكى للبلاد من النفوذ والقوة بحيث يتمكن من إيقاف تلك المذابح البشرية والاضطهادات المريعة. فلما رأى المقوقس توغل العرب فى قلب مصر، وأن البلاد واقعة لا محالة فى أيديهم، وأن سلطان الروم أصبح قاب قوسين أو أدنى من الزوال، سرعان ما اتجه بقلبه وقالبه إلى العرب، وعمد إلى ممالأتهم هو والقبط، لأنه كان له نفس طموحه.

هذه كلها فروض نفرضها، ولكننا لا نستطيع أن نزعّم صحتها لنقص الأدلة التاريخية.

٢ - حصار عمرو وحصن بابليون

ب - ومزاسلة المقوقس عمراً بشأن الصلح

لما تم للمسلمين النصر على الروم فى واقعة عين شمس (هليوبوليس) سار عمرو لحصار حصن بابليون أو قصر الشمع فى أوائل سبتمبر سنة ٦٤٠ م وسنة ٢٠ هـ: أى زمن فيضان النيل. وكانت أسوار الحصن المتينة وأبراجه الشامخة يحيط بها النيل، وقد ارتفع مأؤه فامتلاً الخندق الذى حوله. وكان العرب مفتقرين لمعدات الحصار، بل وغير قادرين على استعمالها استعمالاً يكفل لهم أن يلحقوا بالروم خسارة كبيرة. كل ذلك أطال أمد الحصار حتى بلغ سبعة أشهر - كما اتفق المؤرخون على ذلك.

ولما حاصر المسلمون (بابليون) أو (باب إليون) كان بالحصن حاكم مصر المقوقس وكان قائد الحماية رجل يقال له الأعرج. ولم تكن قوته بأكثر من خمسة آلاف أو ستة آلاف مقاتل على مارواه (بطلر) ولكننا نشك فى صحة هذا العدد ونرجح أن يكون أكبر من هذا بكثير لورود الفالة إليه بكثرة عقب الوقائع المتقدمة.

صف عمرو جند المسلمين حول الخندق ووضع عليه المنجنيق. وهو أعظم آلات الحصار إذ ذاك، وقد جعل الروم للخندق أبواباً وجعلوا حسك الحديد (الأهرام الفارغة) موتدة بأفنية الأبواب، وظل القتال بين الفريقين شهراً كاملاً. ولما رأى المقوقس الجد من العرب، وصبرهم على القتال، وأنهم سوف يقتحمون الحصن، خرج هو ونفر من قومه من الباب القبلى حتى لحقوا بالجزيرة، حيث أرسل المقوقس إلى عمرو ابن العاص:

إنكم قوم قد ولجتم فى بلادنا، والاحتتم على قتالنا، وطال مقامكم

فى أرضنا، وأنتم عصابة يسيرة. وقد أظلتكم الروم، وجهزوا إليكم،
ومعهم العدة والسلاح، وقد أحاط بكم هذا النيل. وإنما أنتم أسارى فى
أيدينا، فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم، فلعله أن يأتى الأمر
فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل
أن تغشاكم جموع الروم، فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه. ولعلكم
تندمون أن كان الأمر مخالفاً لطلبتكم ورجائكم، فابعثوا إلينا رجالاً من
أصحابكم نعاملكم على ما نرضى نحن وهم به من شئ. أهـ.

وقد أخطأ المقوقس فى فهم عمرو بن العاص، فخفى عليه أنه لا
يؤتى بالتهديد والتخويف، فأرسل إليه مع رسله هذه العبارة التى تشتم
منها رائحة الإرهاب والتهديد إذ توهم أن جموع الروم وما معهم من
العدة والسلاح تحول دون تنفيذ إرادة عمرو أو تؤثر فيما أوتيه من
صدق الإيمان وحسن اليقين وعدم المبالاة بالموت ابتغاء مرضاة الله
ونصرة الإسلام.

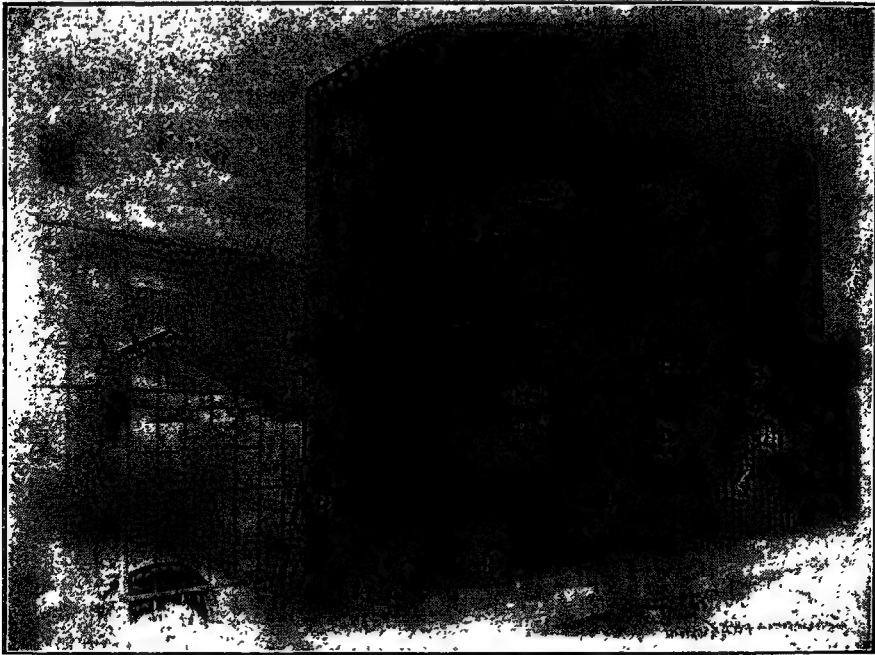
فلما أتت عمرو بن العاص رسل المقوقس أبقاهم عنده يومين
حتى خاف عليهم المقوقس فقال لقومه: أترون أنهم يقتلون الرسل
ويستحلون ذلك فى دينهم؟ ولم يدر المقوقس أن عمراً إنما أبقاهم ليروا
حال المسلمين. وبعد انقضاء اليومين رد عليهم عمرو قائلاً: إنه ليس
ببنى وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال:

١ - إما إن دخلتم فى الإسلام فكنتم إخواننا، وكان لكم مالنا
وعليكم ما علينا.

٢ - وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون.

٣ - وإما إن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم
وهو أحكم الحاكمين.

سر المقوقس بقدم رسله، وسألهم عن حال العرب فأجابوا:



حصن بابيلون والباب الذي خرج منه المقوقس أثناء الفتح

رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرقعة - ليس لأحد في الدنيا رغبة ولا نهمة، وإنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم.

فأرهب المقوقس هذا الكلام، وعلم أن قوماً هذه حالهم سوف يقتحمون الحصن، وينتصرون عليهم. وأشار على قومه باغتنام فرصة الصلح قبل فواتها. فأجيب إلى طلبه، فأرسل إلى المسلمين أن يبعثوا رسلاً منهم يتداعى معهم إلى ما عسى أن يكون فيه صلاح للفريقين.

فبعث عمرو بن العاص إليهم عشرة رجال عليهم عبادة بن الصامت، وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم - وأن لا يجيبهم إلا إلى إحدى هذه الخصال الثلاث - فلما دخلت رسل المسلمين إلى المقوقس، هاب هذا عبادة لسواده وفرط طوله، وأراد أن يتقدم إليه غيره ليكلمه فقال المسلمون: إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا، وإننا نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره به. أهـ.

ونحن نرى أن المقوقس قد توهم أن عمرواً أمر عبادة - هذا الأسود - أن يكون متكلم القوم تصغيراً لشأن المقوقس، وإلا فإن المقوقس لم يعدم أن يكون في قصره العشرات من العبيد.

فلم ير المقوقس بداً من محادثة ومفاوضة عبادة. وابتداء هذا الحديث وقال: إنما رغبنا وهمتنا الجهاد في الله، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة في دنياً، ولا طلب للاستكثار منها، إلا أن الله عز وجل قد أحل لنا ذلك؛ وجعل لنا ما غنمنا من ذلك حلالاً. وما يبالي أحدنا إن كان له قنطار من ذهب، أو كان لا يملك إلا رهماً؛ لأن غاية أحدنا

من النيا اكلة يأكلها يسد بها جوعه لليلة ونهاره، وشملة يلتحفها، فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله، واقتصر على هذا الذى بيده. إنما النعيم والرخاء فى الآخرة، وبذلك أمرنا الله، وأمرنا به نبينا وعهد إلينا أن لا تكون همة أحدنا من الدنيا إلا ما يمسك جوعته ويستتر عورته، وتكون همته وشغله فى رضوانه وجهاد عدوه. أهـ. باختصار.

فأمّن المقوقس على كلام عبادة، وأراد أن يسلك طريق الأرباب المصوغ فى قالب النصيحة فقال: أيها الرجل قد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده، قوم معروفون بالنجدة والشدة ما يبالى أحدهم من لقى ولا من قاتل، وإنا لنعلم أنكم لن تقدرُوا عليهم، ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم، وقد أقمت بين أظهرنا شهراً وأنتم فى ضيق وشدة من معاشكم وحالكم، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بين أيديكم، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولأميركم مائة دينار وخليفتكم ألف دينار، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم مالا قوام لكم به. أهـ.

فقال عبادة: يا هذا لا تغرنّ نفسك ولا أصحابك ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم، وأنا لا نقوى عليهم، فلعمري ما هذا بالذى تخوفنا به، ولا بالذى يكسرنا عما نحن فيه... إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا فى رضوانه وجنته، وما من شئ أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك. وإن الله عز وجل قال فى كتابه (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحاً ومساءً أن يرزقه الشهادة، وأن لا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه، ولا إلى أهله وولده، فنانظر الذى تريد فبيّنه لنا فليس بيننا وبينكم خصلة نقبلها منك ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث خصال، فاختر أيها شئت ولا تطمع نفسك فى الباطل. أهـ.

فألح المقوقس على عبادة وأصحابه أن يجيبوه إلى خصلة غير هذه الثلاث خصال. فرفع عبادة يديه وقال: لا ورب هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شيء، ما لكم عندنا خصلة غيرها فاختراروا لأنفسكم. فقال المقوقس لمن حوله: أجيبيوني وأطيعوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث فوالله ما لكم بهم طاقة، وإن لم تجيبوا إليهم طائعين لتجيبينهم إلى ما هو أعظم منها كارهين^(١). أهـ.

رجع المقوقس وأصحابه إلى الحصن حيث عقد اجتماعاً يعرض عليه حالهم وحال المسلمين إزاءهم، فأبوا أن يذعنوا لسلطان العرب وخالفوا المقوقس، وقبحوا رأيه، وعولوا على مواصلة القتال.

ومن هنا ظهر الخلاف بين روايات المؤرخين ظهوراً بيناً بحيث يصعب أن نقف على ما كان بين المسلمين والروم قبل أن يعقد المقوقس مع عمرو الصلح، ويكتب بذلك إلى هرقل.

١ - ذكر ابن عبد الحكم والمقرئى: أن شروط عمرو قد رفضت فألح المسلمون عند ذلك بالقتال حتى ظفروا بمن فى القصر وقتلوا منهم خلفاً كثيراً. ولما رأى المحاصرون ذلك قبلوا ما كان قد حملهم عليه المقوقس وأنعنوا بالجزية^(٢).

٢ - وقد ذكر السيوطى: أنه بعد انصراف عبادة بن الصامت نصح المقوقس لأصحابه أن يعملوا برأيه فيؤدوا الجزية للعرب، فرضوا بذلك، وطلب المقوقس الاجتماع بعمرو وبيعض أصحابه فاجتمعوا واصطلحوا على أن يكتب بذلك

١ - راجع فتوح مصر لابن عبد الحكم (ص ٥٩ - ٦٣)، والخطط للمقرئى (ج ٢ - ص ٢٩٠ - ٢٩٣).

٢ - ذكر مؤرخو العرب أن الحصار انتهى إلى هذا الحد وأن المسلمين استولوا على الحصن، وأن المقوقس أبرم شروط الصلح مع عمرو نفسه عن القبط، وهو يخالف ما ذكره بطر (ص ٢٦٤) أن هرقل استدعى المقوقس إلى القسطنطينية حيث اتبه واتهم بالخيانة ونفاه وهدده بالقتل.

الملك الروم فإن قبل ذلك ورضيه أجازوه، ورلا رجعوا إلى ما كانوا عليه، ولما رفض هرقل الصلح لم ينقض المقوقس عهده.

٣ - واتفق أبو المحاسن مع ابن عبد الحكم والمقریزی، ولكنه زاد على أن المقوقس أذعن للصلح عن نفسه وعن القبط معه، ولكنهم رفضوا ذلك، فألح عليهم المسلمون بالقتال حتى هزموهم واستولوا على الحصن، وأرغموهم على دفع الجزية.

٤ - وذكر ياقوت فى معجمه ما ذكره السيوطى وزاد عليه: أن اجتماع المقوقس وعبادة كان بعد استيلاء العرب على الحصن.

وبالرغم من تناقض هذه الأقوال فإننا نقف منها على أربعة أمور: ١ - أن الاجتماع حصل بالفعل وقت فيضان النيل فى شهر أكتوبر.

٢ - وأنه أدى إلى الرفض واستئناف القتال.

٣ - وأن القتال كان وبالا على الروم فغيروا رأيهم.

٤ - وأن معاهدة الصلح دونت بالفعل، وأن تنفيذها أرجئ إلى ما بعد موافقة الإمبراطور.

يستنتج مما تقدم أن ما ذكره ابن عبد الحكم والمقریزی وأبو المحاسن أن فتح حصن بابلليون كان عقب رفض الروم شروط الصلح مباشرة خطأ محض. لأنه لم يكن قد انقضى على الحصار إلا شهر واحد (أعنى زمن ارتفاع النيل) وقد اتفق المؤرخون على أن الحصار دام سبعة أشهر، فلا يعقل أن يكون استيلاء العرب على الحصن إلا وقت انخفاض النيل.

ج - معاهدة الصلح بين عمرو والمقوقس

وإنا ذا كرون ما ورد فى معاهدة الصلح بين عمرو والمقوقس نقلاً عن الخطط للمقرىزى (ج ١ ص ٢٩٢).

اصطلح عمرو المقوقس على أن يفرض لهم (للمسلمين) على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران على كل نفس. شريفهم ووضيعهم ممن بلغ منهم الحلم، وليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم، ولا على النساء شئ، وعلى أن للمسلمين عليهم النزل بجماعتهم حيث نزلوا، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم، وأن لهم أرضهم وأموالهم لا تعرض لهم فى شئ منها. أهـ.

وأحصوا عدد القبط يومئذ ممن بلغ الجزية وفرض عليهم الديناران فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها ستة آلاف ألف نفس (سنة ملايين) فكانت فريضتهم يومئذ إثنى عشر ألف ألف دينار (إثنى عشر مليوناً).

ولا يعقل أن يكون من بلغ الحلم من المصريين من الرجال وحدهم ستة ملايين. ولو كان عدد من بلغ الحلم ربع سكان المصريين، للزم أن يكون عددهم أربعة وعشرين مليوناً من الأنفس. وهو بعيد عن الحقيقة. يدل على ذلك ما رواه البلاذرى فى «فتوح البلدان»: جى عمرو بن العاص خراج مصر وجزيتها ألفى ألف. وجباها عبد الله بن سعد بن أبى سرح (فى خلافة عثمان) أربعة آلاف ألف. فقال عثمان لعمرو: إن اللقاح بمصر بعدك قد درت البانها. فقال عمرو: ذلك لأنكم أعجفتموها.

والذى يمكن أن يفهم أن الأثنى عشر مليوناً إنما كانت مجموع الخراج والجزية، لا الجزية خاصة.

د - رفض هرقل الصلح واستئناف القتال بين المسلمين والروم

لما تعاهد عمرو والمقوقس على ما تعاهدا عليه، شرط المقوقس للروم على أن يخيروا بين الرضى بما رضى به القبط، وبين اللحاق ببلاد الروم، وكتب إلى (هرقل) بما تم عليه الصلح. فكتب إليه كتاباً يوبخه فيه على التسليم ويحتقر قوة المسلمين. وكتب بمثل ذلك إلى قواد الروم فأعادوا الكرة على المسلمين ونبذوا صلحهم. أما المقوقس فلم يعبأ بقول هرقل، بل أقبل على عمرو وأعلمه أنه لم يخرج عما عاقده عليه، وأن القبط متمون له على ما صالحهم عليه. فطلب منه عمرو أن يضمّنوا له الجسرين جميعاً، ويقيموا لهم الانزال والضيافة والأسواق والجسور بين القسطنطينية والإسكندرية، وصارت لهم القبط أعواناً (ابن عبد الحكم ص ٦٤) وقد عد مؤرخو الفرنج أن هذا العمل خيانة من المقوقس، ولكن إذا ثبت لنا أن جند الروم قد بلغوا من الضعف بحيث لم يتمكنوا من رد العرب وهم عصابة قليلة، فلم يمكنهم التغلب عليهم، وقد دوخوا الفرس وقهروا هرقل، وقد سئم المصريون حكم الروم لظلمهم وعسفهم، وبلغهم أن المسلمين لم يتعرضوا لأهالى البلاد التى افتتحوها فأطلقوا لهم حرية الفكر والدين. إذا ثبت كل ذلك جاز أن نلتمس له عذراً فيما فعل.

والتأمل لعهد الصلح بين عمرو والمقوقس يرى أنه شمل قبط مصر كلهم، مع أن عمراً لم يفتح بعد بقية البلاد التى استعصت عليه فى القتال. فهل نقض القبط عهد الصلح؟ أم حامية الروم فى البلاد هى التى ناوت عمراً العداء، ووقفت فى وجهه مدة طويلة؟ والذى يلوح لنا ترجيح الأمر الثانى، وإذا كان بعض القبط قد اشتركوا مع الروم فلم يشتركوا إلا مرغمين.

هـ - اقتحام الحصن

حال ارتفاع مياه النيل دون اقتحام حصن بابليون ولم يكن لدى عمرو من الوسائل ما يكفل له اقتحامه سوى الاعتصام بالبر ريثما تغيض مياهه. ولم يرد لحماية الحصن من الأنباء ما يخفف عنهم ما كانوا فيه من ضيق وشدة، إلا أنهم تحملوا مشاق الحصار طويلاً وثابروا على الدفاع بصبر وجلد. وفي شهر مارس سنة ٦٤١ م (٢٠هـ) سمعوا في معسكر المسلمين صياحاً عالياً علموا منه بموت هرقل^(١).

فسلبهم هذا الحادث المحزن شجاعتهم وحميتهم وهيا للعرب سبيل الانتصار عليهم. أما اقتحام الحصن فقد كان على يد الزبير بن العوام. ذلك أنه لما أبطأ الفتح على عمرو قال الزبير بن العوام (على مارواه ابن عبد الحكم): إني أهب نفسي لله تعالى وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين، فوضع سلماً إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام^(٢) ثم صعد وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعاً فما

١ - ذكر السيوطي (ج١ ص ٥٢) وابن عبد الحكم (ص ٩٦) أن هرقل مات سنة ١٦هـ، وأخرج كل منهما عن الليث بن سعد أنه مات سنة ٢٠هـ، فكسر الله بموته شوكة الروم. وهذا بعيد لأن موت هرقل كان في ١١ فبراير سنة ٦٤١ م (٢٠هـ) ولم يكن العرب في هذا الوقت قد شرعوا في حصار الإسكندرية.

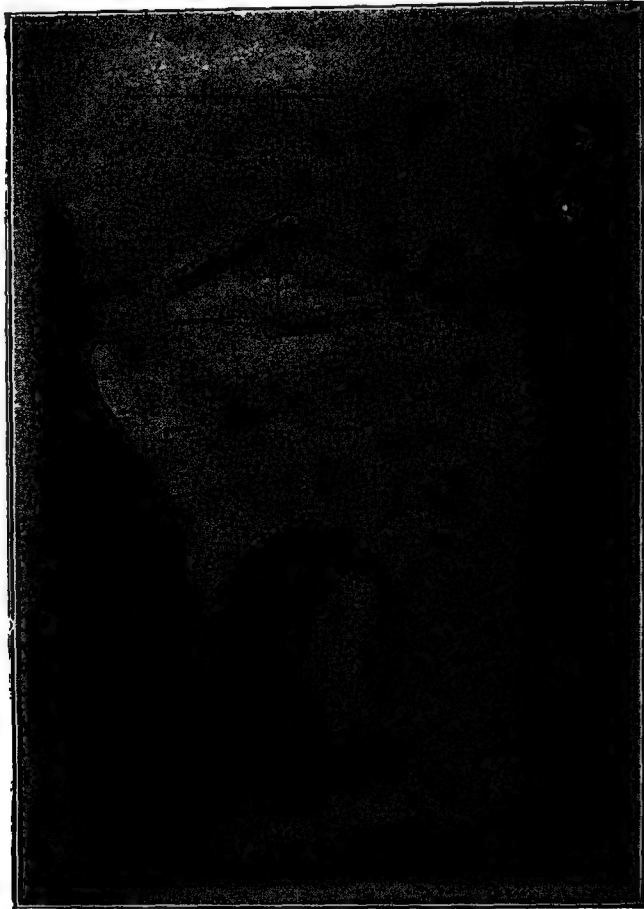
٢ - أجمع المؤرخون كابن عبد الحكم والمقريزي وأبو المحاسن والسيوطي وياقوت على أن الزبير اقتحم الحصن من الموضع الذي كان يعرف بسوق الحمام بعد ذلك. ولكن ليس من السهل أن تدل بالضبط على الموضع الذي وضع الزبير فيه السلم. فقال (بطر) نقلاً عن «أوتنجوس» أن سوق الحمام كان جنوبي الحصن. ومعن سار على هذا الرأي أيضاً البلاذري، وأضاف إليه أن الزبير أتى من الشمال إلى الجانب المقابل؛ أعنى الجنوب ويرى (بطر) أن هجوم العرب كان من الجنوب الشرقي للحصن حيث لا يزال السور قائماً إلى الآن. وذكر ياقوت أن هذا السلم كان بسوق وردان وظل باقياً في منزل من المنازل فاختنفى عقب احتراق هذا المنزل سنة ٣٩٠هـ (١٠٠٠م) وروى ابن عبد الحكم أن شركاً حيل بن جحية المرادي نصب سلماً آخر من ناحية الزمامرة اليوم.

شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف، وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفاً من أن يتكسر، وكبر الزبير تكبيره فأجابه المسلمون من الخارج، فلم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعاً فهربوا، وعمد الزبير بأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن، فلما خاف قائد الروم على نفسه ومن معه سأل عمرو بن العاص الصلح فأجابه عمرو إلى ذلك، وكان مكثهم على القتال حتى فتح الله عليهم سبعة أشهر^(١). أهـ.

وكان انتهاء أمد الحصار واستيلاء المسلمين على حصن بابليون فى شهر إبريل سنة ٦٤١ م (٢٠ هـ) على مارواه «بطلر»، أما كون المقوقس هو الذى عقد الصلح مع عمرو بعد سقوط الحصن وتسليم الحامية بعد سبعة أشهر على ما ذكره مؤرخو العرب فلا يمكن تصديقه، لأن المقوقس كان إذ ذاك خارج الديار المصرية. وإنما يحتمل أن عمراً صالح حامية الروم بعد تسليمها إليه. هكذا قال بطلر وهو بعيد، إذ صار المقوقس بالصلح مع العرب بعيد عن أن تناله يد (هرقل). وكان يجب على عمرو بمقتضى شروط الصلح أن يحميه من كل سوء، لأنه لم يعتزل الروم إلا بعد أن تحقق لديه أن العرب لا محالة منتصرون عليهم.

وقد روى بطلر عن المقرئى (ج ١ ص ٢٩٤) أن المسلمين قتلوا من الروم إثني عشر ألفاً وثلاثمائة عقب استيلائهم على الحصن. وهو خطأ، لأن المقرئى تناول الكلام على عدد جيش عمرو بن العاص وأنه كان خمسة عشر ألفاً عند حصاره لهذا الحصن (أخرج هذا عن يزيد بن أبى حبيب)، وأخرج عبد الرحمن بن سعيد بن مقلاص أن الذين جرت سهمانهم فى الحصن من المسلمين إثني عشر ألفاً وثلاثمائة بعد من أصيب منهم فى الحصار بالقتل والموت، أهـ.

١ - أصبح المقوقس مع العرب بعد شهر واحد من حصار حصن بابليون ولا بد أن تكون الحامية الرومية هى التى صالحت عمراً بخلاف ما ذكره ابن عبد الحكم وغيره.



الباب العمومي لحصن بابلون وهو الباب الذي خرج منه المقوقس

٣ - مسير عمرو إلى الإسكندرية واستيلاؤه عليها

١ - استيلاء عمرو على كوم شريك وسلطيس والكريون

كانت الاسكندرية عند استيلاء العرب على مصر قصبه الديار المصرية، وثانية حواضر الإمبراطورية الرومانية الشرقية. وقد أيقن إمبراطور الروم أن سقوط هذه المدينة فى أيدي العرب يؤدى حتماً إلى زوال سلطانه من مصر زوالاً لا رجوع بعده، فبعث إليها بالجيش الجرارة، واستجاشت الروم، وأغلقوا أبواب المدينة وتحصنوا فيها.

وبعد أن استولى عمرو بن العاص على حصن بابليون سار بجيشه إلى الإسكندرية، وخرج معه رؤساء القبط وقد أصلحوا لهم الطرق، وأقاموا لهم الجسور والأسواق وصارت لهم القبط أعواناً على ما أرادوا من قتال الروم، فلم يلق عمرو أحداً حتى بلغ (طرنوط)^(١) فلقى بها طائفة من الروم فقاتلوه قتالاً خفيفاً، فغلبهم على أمرهم.

روى «بطر ص ٢٨٢ - ٢٨٤» أنه بعد أن ترك عمرو مدينة (طرنوط) وقعت بين الروم والعرب موقعة هائلة فى مدينة نقيوس التى قامت على أطلالها قرية شبشير الواقعة إلى الشمال والغرب من منوف، انتصر فيها عمرو على الروم انتصاراً ميبناً. وقد عزا «يوحنا» أن انكسار الروم كان من جراء ما أصاب قائدهم من الفرع والهلع حين علم بدنو جند المسلمين، ففر مسرعاً إلى الإسكندرية، وطرح من تحت

١ - قال المرحوم على مبارك باشا فى خطته: الطرانة مدينة تذكر كثيراً فى كتب القبط، وتعرف فى الكتب القديمة: باسم (طرنوطيس) وسماها ابن حوقل ولأدريسى ومؤرخو بطارقة الإسكندرية (طرنوط) وهى واقعة على الشاطئ الغربى لفرع رشيد ومنها إلى القاهرة نحو ٤٠ ميلاً، وإلى الإسكندرية نحو خمسة أيام، وكان يجرى النيل فى وسطها.

إمرته من الجند سلاحهم، وقذفوا بأنفسهم فى الماء فلم يعثروا على قواربهم. وقد ولى فيها الملاحون الأدبار حين شعروا بدنو الخطر منهم لينجوا بأنفسهم حتى لحقوا بقراهم. وفى هذه الأثناء انقض المسلمون على الروم العزل فى الماء ووضعوا السيف فى رقابهم، وعلى أثر ذلك دخل العرب المدينة بلا مقاومة، حيث لم يبق من جند الروم على قيد الحياة أحد، وإن العرب قتلوا كل من لجأ إلى الكنائس أو صادفوه فى شوارع المدينة رجالاً ونساء وأطفالاً^(١).

وهذا محض افتراء لأن العرب لم يعلم عنهم أنهم تعرضوا لأهالى البلاد التى افتتحوها وهم عزل من السلاح غير قادرين على القتال. بل بالعكس كانوا يؤمنونهم على أموالهم وعيالهم فى حين خلودهم إلى السكينة، وجنوحهم إلى السلام ورغبتهم فى استتباب الأمن والنظام.

وقد ذكر المقرئى (جـ ١ ص ١٦٧) أن أول موضع قوتل فيه عمرو هو (مريوط) مع أن المسافة بين مريوط وطرنوط بعيدة جداً، ولعل هذا الخلط ناشئ من عدم دراية النساخ بالمواقع الجغرافية.

أرسل عمرو بن العاص شريك بن سسمى لتعقب جيش الروم المرتد على أعقابهم، فأخذ يطاردهم حتى أدركهم عند كوم شريك^(٢) فأحاطت به الروم، فلما رأى ذلك شريك بن سسمى أمر أبا ناعمة مالك بن ناعمة الصدفى فجد فى السير فلم تدركه الروم حتى أتى عمرراً فأخبره، فأقبل بجنده وسمعت به الروم فأنصرفت بعد قتال دام بينهم وبين

١ - وقد ذكر (بطر) إن مؤرخى العرب لم يتعرضوا لذكر هذه الواقعة وأن المصدر الوحيد الذى استقى منه هذه الواقعة مفصلة هو (يوحنا اسقف نقيوس). وقد بحثنا كثيراً عن كتابه فى المكتبة السلطانية، وفى مكتبة الجامعة المصرية وفى غيرهما من المكاتب الشهيرة فلم نعث علىه.

٢ - هذه المدينة واقعة على بعد ستة عشر ميلاً شمالاً شمالى طرنوط بمديرية البحيرة بمركز النجيلة.

شريك ثلاثة أيام على مارواه ابن عبد الحكم، ثم التقى عمرو بالروم بسُلطيس^(١) فهزّمهم وبعد مسيرة عشرين ميلاً التقى بالروم فى الكريون^(٢) وكانت آخر حلقة فى سلسلة الحصون التى بين بابلين والإسكندرية.

تحصّن «تيودور» فى حصنها المنيع وقاتل المسلمين قتالاً شديداً دام بضعة عشر يوماً، فأيد الله المسلمين بالنصر وولى الغالة الأدبار حتى وصلوا إلى الإسكندرية.

وكان عبد الله بن عمرو بن العاص على المقدمة، وحامل اللواء وردان مولى عمرو، فأصاب عبد الله جراحات كثيرة فقال: يا وردان لو تقهقرت قليلاً نصيب الروح. فقال وردان: الروح تريد الروح أمامك وليس خلفك فتقدم عبد الله فجاءه رسول أبيه يسأله عن جراحه فقال:

أقول لها إذا جشأت وجاشت * رويدك تحمدى أو تستريحي

فرجع الرسول إلى عمرو وأخبره بما قاله عبد الله. فقال عمرو: هو ابنى حقاً.

وقد استغرق عمرو فى مسيره إلى الإسكندرية وانتصاره على الروم فى الوقائع التى ذكرناها اثنين وعشرين يوماً على مارواه «جبون» (ج ٨ ص ١٧٠).

١ - هذه المدينة واقعة على ستة أميال جنوبى دمنهور فى منتصف المسافة بين كوم شريك والكريون.

٢ - ذكرها المرحوم على مبارك باشا فى خططه فقال: كانت هذ المحطة الأولى التى ينزل فيها السياحون بعد السفر من الإسكندرية. وقدر بعضهم تلك المسافة بمسيرة مرحلة. وقال «كترمير» إن هذه المدينة موجودة الآن وتعرف باسم (كريون).

ب - عمرو وقتح الإسكندرية

كانت مدينة الإسكندرية ثانية عواصم الإمبراطورية الرومانية الشرقية كما قدمنا، وأول مدينة تجارية فى العالم. لذا عنى الرومان والبطالسة من قبلهم بتحسينها، لتقوى على رد غارات المغيرين، وصد هجمات الفاتحين، ولوقوعها على بحر الروم كان يتدفق عليها المدد من إمبراطور الروم. ولم يكن لدى عمرو من السفن ما يمنع المدد من أن يصل إلى المدينة، وكانت حامية الروم لا تقل عن خمسين ألف جندي، مزودين بالمؤن الوفيرة. ولم تكن درية العرب كافية فى استعمال آلات الحصار (وقد استولوا على كثير منها عقب انتصاراتهم على الروم فى الوقائع السابقة، ولم يتمكنوا من نقلها). لذلك عولوا على الاستمسك بالصبر وعمل الحيلة فى الأعداء حتى يختم الله بالنصر، كما فعلوا فى حصارهم لدمشق وحلب وقيصرية من مدن الشام. وكانت قوة عمرو ضئيلة إذا قورنت بحامية الروم، لأنه لا بد أن يكون قد فقد من جنده أثناء الوقائع السابقة عدد غير قليل. وإذا كانت قوة عمرو قد بلغت خمسة عشر ألفاً وخمسمائة أثناء حصاره لحصن بابليون، فلم يزد عددهم عن إثني عشر ألفاً وهو على حصار الإسكندرية. وعندنا أن هذا العدد لا يكفى مطلقاً لاقتحام حصون المدينة التى لا ترام، فلا بد أن يكون جيش عمرو أكثر من هذا العدد بكثير، سيما إذا ذكرنا أن القبط كانوا للعرب أعواناً، وأن عدداً كبيراً منهم انضم تحت لوائه، ومهد له بعضهم سبيل الاستيلاء على المدينة.

نزل المسلمون^(١) ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه

١ - لا يمكن بالضبط تعيين الموضع الذى نزل فيه المسلمون. وقد زعم (بطر) أنه كان بالشرق أو الجنوب الشرقى، لأن المدينة محاطة بالبحر من الشمال وبحيرة مريوط من الجنوب وبقناة دراغون من الغرب. وكان نزول عمرو بعيداً عن أسوار المدينة تفادياً مما تلحقه بالمسلمين مقتنيات آلات الروم وسهامهم. وقال السيوطى إن نزولهم كان ما بين حلوة إلى قصر فارس.

من الأطعمة والعلوفة، فأقاموا شهرين (وكان ذلك فى أوائل يونيه تقريباً، يردون غارات الأعداء.

وقد أخرج ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد أن هرقل مات سنة ٢٠هـ، وعن يحيى بن أيوب وخالد بن حميد أن العرب أستأسدت عند ذلك، والحت بالقتال على أهل الإسكندرية وقتلوه قتلًا شديدًا، وكذلك ذكر المقرئ والسيوطى، وهذا يخالف ما قدمناه من أن موت هرقل كان والمسلمون على حصار بابليون، لأن العرب لم تكن حين موته (١١ فبراير سنة ٦٤١) قد استولت بعد على الحصن. إذ لم يتم لهم ذلك إلا حوالى أواخر مارس أو أوائل إبريل من تلك السنة. وقد أخرج ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد أنه خرجت من باب الحصن شرذمة من الروم وحملوا على المسلمين فقتلوا رجالاً من مهرة واحتزوا رأسه وانطلقوا به. فأبى المهيرون أن يدفنوه إلا برأسه؛ فقال لهم عمرو بن العاص: تتغضبون كأنكم تتغضبون على من يبالي بغضبكم! أحملوا على القوم إذا خرجوا فاقتلوا منهم رجلاً ثم أرموا برأسه يرمونكم برأس صاحبكم. فخرج الروم إليهم فاقتتلوا فقتلوا من الروم رجالاً من بطارتهم فاحتزوا رأسه ورموا به إلى الروم فرمت الروم برأس المهرى صاحبهم إليهم فقال عمرو: دونكم الآن فادفنوا صاحبكم. أهـ.

هذه الحادثة على سذاجتها تبين لنا بداهة عمرو النادرة وقدرته على درء ما عسى أن يؤثر فى جنده أو يشغلهم عن الجهاد من جراء مثل هذه الحادثة التى تشبث فيها المهريون بضرورة دفن صاحبهم مع رأسه. فلهذا عمد عمرو بدعائه وحسن سياسته على تهدئة خواطر أصحابه بهذا الرأى الصائب والنظر الثاقب. ولا غرو فعمرو بن العاص رجل فذ لا يبالي بما يصادفه من العقبات، فيعمل على تذليلها وتهديد السبيل للقضاء عليها.

قال «جبون جـ ٩ ص ٢٧١»: إن نفوس الأهلين كانت تتوق لهلاك هؤلاء الظالمين وطردهم من بلادهم، فلم يألوا جهداً فى مد يد المعونة إلى عمرو، مادية كانت تلك المعونة أو عسكرية. وقد لاحظ البطريرق «أو تيخوس» أن شجاعة العرب فى القتال كانت كشجاعة الأسود، (ورد هذا الوصف فى تاريخ ابن عبد الحكم) فردوا هجمات الروم المتواصلة وكانوا يقابلون هذه الهجمات بالمثل، فيحملون على أسوار المدينة وأبراجها. وفى كل هذه الحملات كنت ترى سيف عمرو ولواءه يتلألأ فى مقدمة المسلمين. أهـ.

بلغ القتال ذات يوم أشده بين الفريقين حتى اقتحم المسلمون الحصن وقاتلوا الروم فيه إلا أن هؤلاء حملوا عليهم (على المسلمين) حملة منكرة فأخرجوهم من الحصن إلا أربعة بينهم عمرو بن العاص ومسلمة بن مخلد، فالتجأوا إلى ديماس من حماماتهم فدخلوا فيه فأمر الروم رجالاً منهم يكلمهم بالعربية فقال لهم: قد صرتم بأيدينا أسرى فاستأسروا ولا تقتلوا أنفسكم، فامتنعوا عليهم ثم قال لهم: إن فى أيدي أصحابكم منا رجالاً أسروهم ونحن نعطيكم العهود نفادى بكم أصحابنا ولا نقتلكم، فأبوا عليهم، فلما رأى الرومى ذلك منهم قال لهم: هل لكم إلى خصلة وهى نصف، إن غلب صاحبنا صاحبكم استأسرتم لنا وأمكنتمونا من أنفسكم، وإن غلب صاحبكم صاحبنا خلينا سبيلكم إلى أصحابكم.

فرضوا بذلك وتعاهدوا عليه وتداعو إلى البراز، فبرز رجل من الروم وقد وثقوا بنجدته وشدته، وأراد عمرو أن يبرز فمنعه مسلمة وقال ما هذا؟ تخطئ مرتين، تشذ من أصحابك وأنت أمير، وإنما قوامهم بك، وقلوبهم معلقة نحوك لا يدرون ما أمرك حتى تبارز وتتعرض للقتل؟ فإن قتلت كان ذلك بلاءً على أصحابك، مكانك وأنا أكفيك إن شاء الله. فقال عمرو: دونك قريباً فرجها الله بك. فبرز مسلمة

للمرومى فأعانه الله عليه فقتله؛ فوفى لهم الروم بما عاهدوهم عليه
فخرجوا ولا يدري الروم أن عمراً فيهم حتى بلغهم ذلك فأسفوا كل
الأسف على ما فاتهم^(١) أه بتصرف.

هكذا ذكر ابن عبد الحكم والمقريزى، ونحن نشك فى صحة هذه
الحادثة، بل نقول إنه يستحيل أن تكون صحيحة، وإنما هى أساطير
نشأت بعد الفتح تمجيذاً للفاتحين وقائدهم.

ظل عمرو على حصار الإسكندرية أربعة عشر شهراً^(٢) فأقلق
هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وساورته الريب فى
سبب هذا الإبطاء، فبعث لعمرو بن العاص كتاباً يلومه فيه ويأمره أن
يقرأه على المسلمين ليستنهض بذلك همهم، ويحضهم على القتال،
ويرغبهم فى الصبر، وأن يكونوا يداً واحدة وقلباً واحداً. فقرأ عمرو
الكتاب، وعقد لعبادة ابن الصامت وولاه قتال الروم، ففتح الله عليه يديه
الإسكندرية وهزم الروم براً وبحراً.

-
- ١ - وقد ذكر «إيرفنج» أن عمرو بن العاص لما وقع أسيراً فى الإسكندرية وقف بين
يدى حاكمها فنسى عمرو الحالة التى كان فيها وتكلم كلاماً يدل على الشجاعة
وسمو المركز، فاشتبه فيه الحاكم وأمر بقتله وكان وردان بجانبه فصغفه على
وجنته وقال له: صه أيها الكلب لا تتكلم أمام رؤسائك، وهم مسلمة بالكلام
وقال للحاكم: أن الخليفة بعث لعمرو بن العاص يأمره بالكف عن الحصار
ومصالحة الروم، وطلب من الحاكم أن يتوسط بينه وبين عمرو فخلى سبيله.
- ٢ - روى الكندى (ص ٩) أن الحصار دام ثلاثة أشهر، وعن الليث أنه دام ستة أشهر،
وقال المقريزى (ج ١ ص ١٦٥) وابن عبد الحكم (ص ٧٢) والسيوطى (ج ١
ص ٥٣) وجيوت (٩ ص ٢٧٢) وإيرفنج (ص ١١١) أن حصار المسلمين دام أربعة
عشر شهراً. وقال البلاذرى (ص ٢٨٨) إنه دام ثلاثة أشهر. ونحن نرجح أن
الحصار دام أربعة عشر شهراً، لأنه لا يعقل أن يظل حصار المسلمين لهذه
المدينة ذات الحصون المنيعه والمؤن الوفيرة والمواصلات مع الخارج ثلاثة أشهر
أو ستة، مع أن المؤرخين أجمعوا أن قتال الروم بالإسكندرية كان أشد قتالاً.

وكان فتح الإسكندرية عنوة، فجعلهم عمرو ذمة على أن يخرج من يخرج، ويقيم من يقيم باختيارهم.

وقد أخرج المقرئ عن ابن لهيعة أن عمراً جبي جزية الإسكندرية ستمائة ألف دينار (٦٠٠,٠٠٠) لأنه وجد ثلاثمائة ألف من أهل الذمة، فقدر عليهم دينارين، فكانت مصر صلحاً كلها بفريضة دينارين على كل رجل^(١).

قال (بطلر): والذي عقد صلح الإسكندرية هو المقوقس فقد عاد إلى مصر من منفاه بعد موت هرقل. وإليك هذه الشروط على مارواه (بطلر) عن «يوحنا أسقف نقيوس»:

- ١ - دفع من فرضت عليهم الجزية دينارين كل سنة.
- ٢ - المهادة أحد عشر شهراً تنتهى فى ٢٨ سبتمبر سنة ٦٤٢م^(٢).
- ٣ - وعلى العرب الاحتفاظ بمراكزهم أثناء أمد الهدنة، وأن لا يباشروا أعمالاً حربية ضد الإسكندرية. وعلى الجنود الرومية أن تكفّ عن الأعمال العدائية.
- ٤ - وأن تبحر حامية الإسكندرية، وكل الجيوش التى بها، وأن يحملوا معهم كل ما يملكون من أموال وأمتعة؛ وعلى الجنود الذين يرحلون عن مصر برأ أن يدفعوا الجزية عن شهر عند رحلتهم.

١ - ذكر المقرئ أن عمراً لما فتح الإسكندرية كتب إلى عمر بن الخطاب أن فيها أربعة آلاف حمام، وأربعمائة ملهى للملوك وإثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر وسبعين ألف يهودى، وكان بالإسكندرية مائتا ألف من الروم.

٢ - والظاهر أن هذه الهدنة - كما قال ابن الأثير - كانت إلى أن يرد كتاب عمر بإقرار شروط الصلح بين عمرو والمقوقس.

- ٥ - وأن لا يعود أو يحاول استرداد مصر جيش رومى.
- ٦ - وأن لا يتعرض المسلمون للكنائس بسوء، وأن لا يتدخلوا
بأى حال فى أمور المسيحيين.
- ٧ - وأن تكون لدى المسلمين من الروم ١٥٠ من العسكريين،
و ٥٠ من الملكيين بمثابة رهينة لتنفيذ المعاهدة.
- والفقرة الأولى مؤداها إعطاء الأمان على أرواحهم وأموالهم
وكنائسهم وأن تطلق لهم حرية الدين:
- وهؤلاء هم أهل الذمة^(١)، أهـ.

ومن الغريب أن ابن عبد الحكم وغيره من المؤرخين المعدودين قد
ذكر أنه قتل من المسلمين وهم على حصار الإسكندرية إلى أن فتحت،
اثنان وعشرون مقاتلاً، وهو يخالف ما ذكره «جبون» أنه فقد من
المسلمين ثلاثة وعشرون ألفاً. وعندنا أن كلا العددين مبالغ فيه. لأنه لا
يعقل أن يفقد المسلمون اثنان وعشرين مقاتلاً وهم على حصار
الإسكندرية ذات الحصون المنيعة والأبراج العديدة، التى كانت تصلحهم
ناراً^(٢) حامية مع طول أمد الحصار، وهو شئ قليل جداً يزيد عليه عدد
من يموت حتف أنفه من الجيش أضعافاً كثيرة.

ولا يمكن أن نستسلم للرأى القائل بأن المسلمون قد فقدوا ثلاثة
وعشرين ألفاً، لأن جند عمرو عند شروعه فى حصار المدينة لم يبلغ هذا
العدد.

١ - وكانت هناك قرس ناصرت الروم على العرب وهى بلهيب وسلطيس وسخا
وقرطيا، فسيوا أهلها وفرقت سباياهم بالمدينة فردهم عمر بن الخطاب إلى
قراهم وصيرهم وجماعة القبط أهل ذمة.

٢ - هذه العبارة كناية عن شدة الحرب.

هكذا تم لعمر بن العاص فتح الإسكندرية. أغنى مدن العالم وأوفرها ثروة، وأوسعها تجارة، وأخرج الروم منها أذلة، وردهم على أعقابهم حين حدثتهم أنفسهم باستردادها.

ولا يسعنا إلا الإقرار له بالفضل والترنم بالثناء عليه لما حازه من الانتصار المبين، فزال سلطان الروم فى هذه الديار على يديه، فأذعن أهلها بالطاعة، ودان السواد الأعظم منهم بالإسلام على مر السنين وتوالى الأجيال.

ج - عمرو ونسبة حريق مكتبة الإسكندرية إليه

لغط بعض المتأخرين من المؤرخين فى مسألة إحراق مكتبة الإسكندرية الشهيرة. وناقش هذا الخبر كثير من علماء الأفرنج مثل «جبون» و«بطلر» و«سديو» و«جوستاف ليبون» وغيرهم فلم يمكنهم الجزم بأن عمرو بن العاص هو الذى أحرقها حقيقة بأمر الخليفة عمر بن الخطاب، كما زعم بعضهم - بل ارتابوا فى صحة هذه الدعوى التى تنافى التقاليد الإسلامية، ولا يؤيدها أحد من المؤرخين المعاصرين للفتح الإسلامى، مثل «أوتيوخوس» الذى وصف فتح الإسكندرية بإسهاب، فلم يرد لهذا الخبر ذكر البتة فى تواريخهم. والذى يدل على اختلاق هذا الخبر أيضاً أنه لم يرد فى تواريخ المتقدمين، كالطبرى والكندى واليعقوبى والبلاذرى وابن عبد الحكم، ولا عمن أخذ عنهم من المتأخرين كالمقرئى والسيوطى. لذلك طرحت هذه الأقوال الآن جانباً، لأنها ليست قائمة على أساس متين.

وأول من نسب حريق مكتبة الإسكندرية إلى عمرو بن العاص عبد اللطيف البغدادى الذى توفى سنة ١٢٣١م، بخلاف ما ذكره المؤرخون المحدثون أن أبا الفرج الملقب^(١) كان أول من ذكر هذه الحادثة،

١ - هو غريغوريوس أبو الفرج بن أهرن المعروف بابن العبرى؛ ولد سنة ١٢٢٦م. وكانت ولادته فى مدينة ملطية قاعدة أرمينية الصغرى. جد من صغره فى الحفظ، وأقبل على ارتشاف العلم فدرس أولاً اليونانية والسريانية والعربية، ثم اشتغل بالفلسفة واللاهوت. فرَّبه والده إلى أنطاكية سنة ١٢٤٣م فاختار أبو الفرج هنالك طريقة الزهد والتسك، وانفرد فى مغارة بالبرية. ولم يلبث غريغوريوس برهة فى المغارة حتى شخض إلى طرابلس الشام، وأكمل قراءة البيان والطب مع رفيق له يسمى صليبا. وفى تلك الأثناء استدعاه البطريرق أغناطيوس ساباً إلى أنطاكية، ورقاه فى العشرين من سنة إلى أسقفية =

لأنه عاش من سنة ١٢٢٦ إلى سنة ١٢٨٦ ب.م: أى بعد عبد اللطيف
البغدادي، أما أبو الفرج فقد نسب هذا الحريق إلى عمرو في كتابه
«مختصر الدول» وتناقل هذه المسألة عنه كتاب الأفرنج إلى هذه الغاية.
واليك رواية أبي الفرج عن كيفية حريق هذه المكتبة على يد عمرو
ابن العاص. قال:

كان في وقت الفتح رجل اكتسب شهرة عظيمة عند المسلمين
يسمى «يوحنا النحوي» كان قسيساً قبطياً من أهل الإسكندرية، وفي
هذا الزمان اشتهر بين الإسلاميين بيحيى المعروف عندنا
(بفرماطيقوس) أى النحوي. وكان إسكندرياً يعتقد اعتقاد النصارى
اليعقوبية ويشيد عقيدة (ساوري). ثم رجع عما يعتقده النصارى في
التثليث.

فاجتمع إليه الأساقفة بمصر وسألوه الرجوع عما هو عليه فلم
يرجع، فأسقطوه من منزلته، وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة
الإسكندرية. ودخل على عمرو -وقد عرف موضعه من العلوم -

= جوياس من أعمال ملطية، ونصب رفيقه أسقفاً على كنيسة عكاء. وما زال يرتقى
في المناصب الكبرى حتى كانت سنة ١٢٦٤م فانتخبه البطريرق أغناطيوس
الثالث مغرياناً (مغريان كلمة سريانية معناها للثمر. وكان منصب المغريان
عند اليعاقبة من أكبر المناصب بعد البطريركية، وهو بمقام كبير رؤساء
الأساقفة) على جهات الشرق - أى نواحي ما بين النهرين الشرقية والعراق
العجمي، فقام بمهام منصبه وأتى في مغريانيته أعمالاً خطيرة وأثارك مشكورة.
وعمر أبو الفرج ستين سنة وتوفي سنة ١٢٨٦م وكان ابن العبري رجل كد
وعمل، ولم تنقطع حياته كلها عن المطالعة والتأليف، فإنه ألف ما يزيد على
الثلاثين كتاباً بالعربية والسريانية في الفلسفة وعلم الهيئة والطب والتاريخ
والنحو والشعر وغيرها. أما تأليفه لكتاب «تاريخ الدول» فإنه نقله من السريانية
إلى العربية في أواخر حياته، وضمته أموراً كثيرة لا توجد في المطول
السرياني، ولا سيما فيما يتعلق بدولة الإسلام والمغول وتراجم العلماء
والأطباء. أه بإيجاز عن كتاب مختصر الدول ص: ح. د. هـ. و. (موجود
بالمكتبة السلطانية نمرة ١٢٢٤ قسم التاريخ).

فأكرمه عمرو وسمع من ألفاظه الفلسفية التي لم تكن للعرب بها أنسة ماها له ففتن به. وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه، وكان لا يفارقه ثم قال له يحيى يوماً: إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأشياء الموجودة بها، فمالك به انتفاع فلا أعارضك فيه، ومالا انتفاع لك به فنحن أولى به. فقال له عمرو: وما الذى تحتاج إليه؟ قال: كتب الحكمة التي فى خزائن الملوكية. فقال له عمرو: لا يمكننى أن أمر فيها إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. وكتب إلى عمر وعرفه قول يحيى، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه: وأما الكتب التي ذكرتها فأن كان فيها ما يوافق كتاب الله، ففي كتاب الله عنه غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله، فلا حاجة إلييه فتقدم بإعدامها. فشرع عمرو بن العاص فى تفريقها على حمامات الإسكندرية وإحراقها فى مواقدھا. فاستنفدت فى ستة أشهر، فاسمع ما جرى وأعجب. أهـ.

وإذا حللنا حكاية أبى الفرج تحليلاً دقيقاً وجدناها عبارة عن محض اختلاق واقتراء لا أساس لهما.

وقد فتّدها كل من «جبون» و«بطر» و«سديو» وكذلك شبلى أفندى العمانى و«چوستاف ليبون» وغيرهم فقال «جبون» فى تاريخه:

بعد ما نقل كتاب أبى الفرج إلى اللاتينية، وتناقل خبر تلك المكتبة تأسف الكتاب كلهم لضياح كثير من العلم والأدب. وأما أنا (يعنى نفسه) فأنى شديد الميل إلى إنكار الحقيقة وما ترتب عليها من النتائج. والغريب أن هذه الرواية يذكرها رجل من أطراف بلادماى (الفرس) بعد فتح الإسكندرية بستمائة سنة، ولا يكتبها مؤرخان مسيحيان من مصر وأقدمهما البطريرق «أوتيوخوس» الذى أسهب فى فتح الإسكندرية. على أن تعاليم الإسلام تخالف هذه الرواية، إذ ترمى إلى عدم التعرض للكتب

الدينية اليهودية والنصرانية المأخوذة فى الحرب، فلا يجوز إحراقها. وأما كتب الفلسفة والطب والتاريخ والشعر وسواها من العلوم غير الدينية فإنه يجوز أن ينتفع المسلمون بها، ولا أرى داعياً لتكرار ما حلّ بمكتبة الإسكندرية وما أصابها من الحريق عندما كان «يوليوس قيصر» محاصراً بالإسكندرية (سنة ٤٧ ق.م) وما أضمره النصارى من الكراهية للوثنيين فلم تال (النصارى) جهداً فى استئصال الوثنية من ديار مصر. ولكن إذا تدرجنا من زمن أنطونين إلى عهد طيودوس علمنا من سلسلة الشواهد العديدة أن القصر الملكى وهيكلى (سيرابيس) لم يكونا يحويان بعد ذلك الأربعمئة ألف مجلدًا والسبعمئة ألف التى عنى بجمعها اللاجوسيون، وإذا كان ما أحرق من هذه الكتب فى الحمامات من كتب المجادلات الدينية بين الأريوسيين وأصحاب الطبيعة الواحدة (أى اتباع مذهب خلقدونية)، فكل عاقل حكيم يضحك سروراً بأن ذلك حصل لخدمة البشر. أهـ (جبون ج٩ ص ٢٧٤ - ٢٧٦).

ولا داعى لاستغراب جبون ذكر أبى الفرغ لهذه الرواية لبعده عن مصر، وقد ذكرها قبله عبد اللطيف البغدادى الذى توفى سنة ١٢٣١م. ولا يبعد أن يكون هذا قد رواها أيضاً عن غيره: أعنى هذه الحادثة كان لها ذكر من قبله، وغاية ما يقال فى رواية أبى الفرغ أنه يظهر فيها شئ من المبالغة والتهويل. أما احتمال إحراق كتب المجادلات الدينية، وأنه حصل لخدمة البشر فإنه يناقض ما يريد جبون إثباته، وهو إنكار الحقيقة وما ترتب عليها من النتائج.

قال حضرة أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار: ولكن متى علمنا أن عبد اللطيف البغدادى - الذى كان قبل أبى الفرغ الملطى بزمان قليل - قد ذكر أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية كانت التبعة عليه دون أبى الفرغ، لاحتمال أن يكون أبو الفرغ أخذ هذه المقالة عن عبد اللطيف البغدادى - الذى رمى بهذه الجملة بغير سلطان أتاه، ولم يقل

لنا من أى تاريخ أخذ، ولا من أى مصدر استقى. والظاهر أنه حين علم بأنه كان فى هذا المكان مكتبة عفى الزمان على أثرها، افترض أن الذى دمرها إنما هو عمرو بن العاص قائد المسلمين، وربما شجعه على ذلك أقوال العامة أو نحو ذلك، فظن الأمر حقيقة واقعة - وعلى الجملة فالحظ الأكبر فى نسبة الأحراق إلى عمرو بأمر عمر واقع على عبد اللطيف لا على أبى الفرج. اهـ.

وقال العلامة «سديو»: ذكر أبو الفرج (١٢١٦ - ١٢٨٦ ب. م) وأبو الفداء (١٢٧٣ - ١٣٣١ ب. م) أن مكتبة السيرايوم الشهيرة احترقت عقب استيلاء العرب على الإسكندرية. وقد ناقش هذه الرواية كثير من الكتاب، ويظهر بادئ ذى بدء أن هذه الرواية أخذت فراغاً كبيراً من التاريخ. والمعلوم أن عمرًا هو الذى استشار الخليفة فى موضوع تلك المكتبة فأمره بإحراقها. ولم يذكر ذلك أحد من المؤرخين المعاصرين للفتح الإسلامى. وإن صح هذا الأمر لا تقتصر أثره على عدد قليل من الكتب، لأن المكتبة كان قد احترق بعضها فى عهد القيصر «طيودوس» سنة ٣٩١ م، ولم يكن فى الإسكندرية من هذه الدار إلا حوائط لم يأمر عمرو بهدمها إلا على أثر هياج السكان (ج١ ص ١٥٥ - ١٥٦).

وقد طرحت هذه المسألة على بساط البحث فى المجلة العلمية الفرنساوية فقال مسيو «لكرك»: نأسف إذا خالفنا مسيو سديو. إذ من المحقق أن هذه المكتبة لم تكن موجودة فى ذلك الوقت (أى وقت الفتح الإسلامى).

وقال الدكتور «جوستاف ليبون» نقلاً عن «لودفيك لالان» الذى ناقش مسألة إحراق مكتبة الإسكندرية مناقشة علمية مختصرة: إن أول مؤلف ذكر حريق العرب لهذه المكتبة هو عبد اللطيف الطبيب العربى البغدادى الذى توفى سنة ١٢٣١ م. أى بعد ٥٩١ سنة من وقوع تلك

الحادثة. أما من خصوص حريق مكتبة الإسكندرية المزعوم فإنه همجية وعداوة للمدنية منافية لأخلاق العرب على خط مستقيم، حتى إنه يمكن أن يسأل الإنسان نفسه: كيف أن قصة كهذه قبلها منذ زمن طويل كثيرون من الذين يعتقد بعلمهم؟ وقد كذب العلماء هذه القصة فى زمننا مرات كثيرة. فلا نرى حاجة فى العودة إليها لتكذيبها. ولا أسهل من الاستشهاد على ذلك بإيراد أقوال كثيرة جلية تثبت أن المسيحيين كانوا أعدموا الكتب الوثنية التى بالإسكندرية قبل العرب بزمن طويل، وكسروا كل التماثيل أيضاً، ويفهم من ذلك أنه لم يكن بعد بالإسكندرية ما يحرق (ص ٢٠٨).

وروى المقرئ فى خطه (ج ١ ص ١٥٩): ويذكر أن هذا العمود (عمود السوارى) من جملة أعمدة كانت تحمل رواق (أرسطو طاليس) الذى كان يدرس به الحكمة، وأنه كان دار علم، وفيه خزانة كتب أحرقها عمرو ابن العاص بإشارة عمر بن الخطاب رضى الله عنه. أهـ.

أما عبد اللطيف البغدادى الذى كان فى الحقيقة أول من ذكر حريق العرب لمكتبة الإسكندرية فقد قال فى كتاب «الإفادة والاعتبار»: ورأيت أيضاً حول عمود السوارى من هذه الأعمدة بقايا صالحة. بعضها صحيح، وبعضها مكسور، ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة، والأعمدة تحمل السقف وعمود السوارى عليه قبة هو حاملها، وأرى أنه كان الرواق الذى يدرس فيه أرسطو طاليس وشيعته من بعده، وأنه دار العلم التى بناها الإسكندر حين بنى مدينته، وفيها كانت خزانة الكتب التى أحرقها عمرو بن العاص بأذن عمر رضى الله عنه^(١).

١ - كتاب الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ص (٢٨).

وقال «أرفانيتاكي»: وهذه الحقيقة (أى حقيقة إحراق مكتبة الإسكندرية) مختلف فيها الآن. فقد قرر الكثيرون أن المكتبة الملكية وكذلك مكتبة السيراپيوم كلاهما ما كانتا تنتظر غزو العرب لقصد إفنائها. وفرض هؤلاء أن عدداً كبيراً من الكتب المنسوخة بخط اليد كان قد نقل إلى بوزنطية حين حاصر عمرو الإسكندرية.

وذكرت دائرة المعارف الفرنسية (جـ ٣ ص ٦٤٨) أن مجموعة المؤلفات التى كانت بالسيراپيوم قد أحرقتها النصارى فى القرن الرابع الميلادى، أما الكتب التى كانت بالمتحف فقد أهملت وعبثت بها أيدي الترك حين جاءوا الإسكندرية سنة ٨٣٨م فخربوا كل الآثار وتناولت أيديهم إلى ما كان بالمتحف من الكتب المهجورة المهمة. أهـ.

وهو كلام لم يرق عليه دليل ولا يؤيده نقل، ولعله يقصد القائمين بأمر الدولة الطولونية.

ومما ذكرنا يعلم أن عمراً وعمر بريثان مما نسب إليهما، وأن رواية أبى الفرج (وكذا عبد اللطيف البغدادى الذى مات ولأبى الفرج خمس سنين، ولكننا إذا ألقينا التبعة على أبى الفرج، فمن قبيل التساهل لقصد تفنيد روايته التى تحتوى على شئ كثير من التهويل والمبالغة، لأنها فى اعتقادنا عبارة عن أكاذيب وأضاليل) الذى عاش بعد فتح مصر بنحو ستة قرون ولم يسبقه إليها أحد من المؤرخين المعاصرين لهذا الفتح، ولا ممن أتى بعده إن هى إلا محض افتراء ليس لها أساس من الصحة على الإطلاق.

يدلك على ذلك ما نقلناه عن المؤرخين المتقدمين وما ننقله أيضاً عما ذكره شبلى أفندى النعمانى فى رسالته فى الرد على من قال بأحراق عمرو لمكتبة الإسكندرية، وهى تلك الرسالة التى ألفت باللغة الأوردية وترجمت إلى الإنجليزية، وكان بودنا لو ظفرنا بالترجمة

الإنجليزية، إلا أننا عثرنا على ما لخصته عنه مجلة الهلال فى سنتها الثانية: قالت الهلال:

وخلاصة ما أراد إثباته (يعنى المؤلف) أن أول من نسب حريق مكتبة الإسكندرية إلى عمرو بن العاص مؤرخ اسمه أبو الفرج بن طبيب يهودى اسمه قارون (أفرون) ولد سنة ١٢٢٦ م فى ملاطية... وهو أول كتاب ذكرت فيه مسألة حريق مكتبة الإسكندرية وتناقضها عنه كتاب الأفرنج حتى قام المؤرخ (جبون) الإنجليزى فانتقد هذا الرأى (وهو الانتقاد الذى تقدم) وأظهر ارتيابه فى صحته لعدم وجود الأدلة عليه، لأنه كتب بعد فتح الإسكندرية بستمائة سنة، ولم يذكره أحد من قبل (وهو يناقض ما قدمناه، فانتبه مؤرخو الإفرنج من غفلتهم، وأخذوا يبحثون عن حقيقة هذا القول.

غير أن المجتهدين منهم فى خلع هذه التهم عن الأفرنج وإلباسها للعرب عادوا فقالوا: إن هذه الحادثة لم يذكرها أبو الفرج فقط، وإنما ذكرها المقرئى (وقد قدمنا تأييداً لرأينا أن المقرئى مات بعد أبى الفرج بمدة طويلة) وعبد اللطيف البغدادى وحاجى خليفة من مؤرخى الإسلام حتى قال بعضهم إن ابن خلدون ذكرها أيضاً.

قالت الهلال: ثم أخذ صديقنا (أى المؤلف) فى تفنيد هذه الأسانيد فقال: أما ابن خلدون فتاريخه متداول بيننا، وكل من أطلع عليه يعلم أن لا ذكر لهذه الحادثة على الإطلاق.

أما المصادر الثلاثة الباقية فأثبت أولاً أنها لا تعتبر ثلاثة مصادر مستقلة، لأن المقرئى ذكر المكتبة عن عبد اللطيف حرفاً حرفاً، فيبقى عبد اللطيف وحاجى خليفة.

أما عبارة حاجى خليفة فلا ذكر فيها لمدينة الإسكندرية، وإنما أشار إلى العرب فى صدر الإسلام لتعلقهم بالوحى، وخوفهم من تسلط

العلوم الأجنبية على عقولهم كانوا (كما قيل) يحرقون الكتب التي يعثرون عليها في البلاد التي يفتتحونها؛ فيظهر من ذلك أن عبارة حاجي خليفة لا تفيد ما أراوده؛ لأنه إنما يريد الإشارة إلى عدم اعتناء العرب بالعلم. ولكي يؤيد قوله ألمع إلى مسألة حريق الكتب، وهو لم يذكرها كأنها حقيقة.

أما عبد اللطيف البغدادي فقد ذكر حرق المكتبة أثناء كلامه عن عمود السواري، وهذا نص عبارته (وقد سبق أن قدمناها) فيظهر من نص العبارة أنه ذكر مسألة المكتبة بطريق العرض، وكانت أشبه بخرافة تتداولها الألسنة فذكرها على علاتها. على أن عبارته هذه بجملتها غير صحيحة كما ثبت بالبحث.

ثم أعقب المؤلف هذا التفنيذ بالأدلة على عدم إمكان احتراق مكتبة الإسكندرية بأمر عمر بن الخطاب أو غيره من الخلفاء أو الأمراء المسلمين، وأثبت أنها إنما احترقت قبل الإسلام، أحرق نصفها (يوليوس) قيصر الرومان، وأتم على باقيها بطارقه الإسكندرية قبل الإسلام. أهـ.

ومما يدل على اختلاق رواية أبي الفرج (ومن تقدمه) ما ذكره (بطلر) إذ حل هذه الرواية تحليلاً لا يسع القارئ إلا أن يحكم ببراءة عمرو بن العاص مما نسب إليه والاعتراف بأن مكتبة الإسكندرية لا بد أن تكون قد فنيت قبل الفتح الإسلامي بمدة طويلة؛ فذكر نقلاً عن «أميانوس مارسلينوس» أن السبعمائة ألف مجلد التي كانت تحتوى عليها مكتبة الإسكندرية قد أتلقت إتلافاً تاماً حين حوضر «يوليوس» قيصر الروم بالإسكندرية كما تقدم، وممن أيد هذا الرأي أورازيوس^(١)

١ - هو الذي زار الإسكندرية في القرن الرابع الميلادي، ووجد جميع رفوف المكتبة خالية من الكتب كما قدمنا.

حيث اعتقد أيضاً أن هذه المكتبة قد دمرت فى حريق يوليوس المذكور، والأستاذ إسماعيل رأفت بك حيث قال: وقلنا أيضاً، إنه فى هذا الوقت (أى وقت فتح الإسكندرية) لم تكن دار كتب الإسكندرية موجودة وإن قسماً كبيراً من قسميها أحرقتة جنود «يوليوس قيصر» من غير قصد سنة ٤٧ ق. م (كما تقدم أيضاً) وإن قسمها الثانى تلاشى كذلك بعد الزمن المذكور بنحو أربعة قرون أى فى سنة ٣٩١ ب. م بأمر الأسقف «تيوفيل» ولا ندهش لهذا الأمر لأسباب أخصها أن الآداب والفلسفة الوثنية كلها كانت منعت وقضى عليها قضاء تاماً طول تلك المدة فى كل مكان. حتى أن «چوتنيانوس» أمر بأغلاق مدارس أثينا. أهـ.

وأضاف «بطلر»: ومن سوء الحظ أن مثل جواب عمر قد ورد أيضاً بخصوص إحراق الكتب فى فارس. وقد علق الأستاذ «برى» بقوله: إن شعور المسلمين نحو كتب الوثنيين الفرس قد يختلف اختلافاً تاماً عن شعورهم نحو كتب النصارى. إذ كانوا يكرهون أن يتعرضوا لما فيه اسم الله أهـ.

وإذا سلمنا جدلاً بأن إحراق مكتبة الإسكندرية قد حصل فعلاً - كما رواه أبو الفرج - الذى ذكر أن الكتب قد وضعت فى سلات وزعت على الأربعة آلاف حمام، وأنها ظلت تسخن مياهها ستة شهور فإن هذا الخبر - على ما يظهر لنا - عبارة عن أكاذيب وأضاليل لا حقيقة لها أصلاً. إذ لو قصد تدمير هذه الكتب حقيقة لأمر بإحراقها فى الحال، ولم يكن عمرو بالرجل الساذج الذى يضع هذه الكتب تحت رحمة أصحاب الحمامات، فلا يصعب بذلك على «يوحنا» أو أى إنسان سواه أن يستولى على قدر عظيم من هذه الكتب بثمن بخس، ولدى يوحنا وغيره من عشاق الكتب ما يكفى لتحقيق هذه الأمنية، وهى انتشار عدد كبير منها من مخالب النيران. على أن ما جاء برواية أبى الفرج من أن هذه الكتب كفت الحمامات سبعة شهور، مما يثير الدهشة والاستغراب فى نفوسنا، لأنه لو قدر لكل حمام مائة مجلد فى اليوم (وهو قليل

بصرف النظر عن أن حجم هذه المؤلفات كان صغيراً جداً) لبلغ هذا العدد الذى أحرق فى ذلك الوقت ٧٢,٠٠٠,٠٠٠ مجلد وهو ضعف عدد مجلدات المكتبة بنحو ١٠٣ مرات تقريباً. ويستدل مما ذكرنا أن السبعمئة ألف مجلد لم تكن لتكفى الأربعة آلاف حمام ساعة واحدة لا ستة شهور.

وزاد على ذلك حضرة أستاذنا إسماعيل رافت بك مؤيداً استبعاد وقوع هذا الأمر بقوله: مع أن الكاغد - بقطع النظر عن الرق - وإن كان يصلح لإيقاد النار، إلا أنه لا يصلح لبقائها متقدمة أصلاً (١).

وقد برهن (بطلر) على أن يوحنا النحوى الذى ذكره أبو الفرج فى روايته لم يكن حياً يرزق وقت فتح الإسكندرية سنة ٦٤٢م، لأن يوحنا هذا كان قد اشترك مع «ديوسقوروس» و«جايوس» و«ساويرس» أسقف أنطاكية» فى الكتابة ضد مجمع خلقدونية، وظلوا حتى تولى چوستنيان (٥٢ هـ. ب. م)، ويكون قد عاش بضع سنين فى أوائل القرن السابع الميلادى: أى قبل سنة ٦٤٢م. ولا بد أن يكون قد مات قبل دخول عمرو الإسكندرية بثلاثين أو أربعين سنة. وذكر أيضاً أن السيرابيوم كانت دمرت سنة ٣٩١م. (كما قدمنا) وبُنِى على انقاضها كنيسة أو جملة كنائس مسيحية، ولم يبق منها إلا حوائط كما ذكر «سديو». فلايبعد أن تكون أيدي النصارى قد تطاولت إلى الكتب الوثنية فأتلفوها كلها، وحملوا الكتب العلمية إلى القسطنطينية. ولا نستبعد هذا الأمر إذا علمنا أن النصارى قد هشموا هيكل «سراپيس» وأحرقوه فى الحال ولم يتركوا أى حجر من أحجار أشهر وأفخم معبود فى العالم قائماً أهـ.

١ - وافق بطلر حضره الأستاذ فقال: إن معظم الكتب التى كانت بالسيربيوم كانت من الكاغد الذى كان يفضل القبط كثيراً، وختم كلامه بقوله: إذا كانت أوامر الخليفة قد حالت دون إحراق هذه الكتب، فماذا حدث إذن لكل الكتب المنسوخة بخط اليد؟ واستدل من ذلك على أن هذا الجبر خرافة مضحكة، ولا يسمع الإنسان إلا أن يصغى ويضحك.

ومن هذا نرجح أن الكتب قد التهمت بها النيران التي أضرمت لإحراق هذا الهيكل لا أن تكون قد حملت إلى القسطنطينية. يؤيد ذلك ما ذكره «أورازيوس» من أنه وجد رفوف المكتبة خالية من الكتب، وذلك قبل سنة ٤١٤ م، وهي السنة التي كتب فيها عن زيارته لهذا المكان، لا عن إحراق مكتبة الإسكندرية.

وختم (بطلر) كلامه عن حريق مكتبة الإسكندرية فقال: لا أزال أقول إن إحراق العرب لتلك المكتبة غير محتمل جداً لهذا السبب، لأن العرب لم تدخل الإسكندرية إلا بعد استيلائهم عليها بأحد عشر شهراً، وقد ذكر في عهد الصلح أنه يجوز للروم أن يحملوا إلى بلادهم كل أمتعتهم، وفي غضون هذه المدة كان البحر مفتوحاً، ولم تكن أمامهم أية صعوبة لحملها إلى بلادهم. وما كان يصعب على يوحنا (بفرض وجوده) وأمثاله أن يقتنوا هذه الكتب قبل أن تقع الإسكندرية نهائياً في أيدي العرب.

لقد أوردنا كثيراً من أقوال المؤرخين بشأن إحراق مكتبة الإسكندرية لكي نثبت بعد فحص هذه الأقوال والآراء إن كان عمرو ابن العاص هو الذي أحرقها بأمر الخليفة عمر، أو أن هذه المكتبة لم تكن موجودة حين الفتح الإسلامي، فنرى بعد هذه الأقوال الجلية الكثيرة أنه لم يكن بالإسكندرية ما يحرق وقت الفتح. وعلى هذا لا يسعنا إلا تكذيب رواية أبى الفرج الذي نسب هذه التهمة إلى كل من عمرو وعمر وهما منها بريئان. يشهد بذلك ما نذكره من الأدلة القاطعة على دحض رواية أبى الفرج. وإليك هذه الأدلة التي نستنتجها مما مر من الأقوال لنعزز بذلك رأينا بإيجاز فنقول:

١ - عند تحليل رواية أبى الفرج ظهر لنا لأول وهلة أنها عبارة عن أكاذيب وأضاليل، وأنها أشبه شئ بخرافة طالما نعثر على أمثاله في أسفار المتقدمين. من ذلك أن كتب هذه المكتبة قد

كفت أربعة الآلاف حمام شتة شهور، وقد أثبتنا أنها لم تكن تكفيها ساعة واحدة.

٢ - أما يوحنا الذى ذكره أبو الفرج فقد دل «بطلر» بأجلى بيان على أنه لم يكن على قيد الحياة وقت فتح الإسكندرية، وأنه توفى قبل استيلاء العرب عليها بثلاثين أو أربعين سنة على الأقل.

٣ - إن رواية أبى الفرج (وكذا عبد اللطيف) ظهرت بعد مرور نحو ستة قرون على هذه الحادثة المزعومة، ولو سلمنا جدلاً بصحة هذه الرواية لما مر عليها مؤرخان شهيران معاصران للفتح الإسلامى وهما «أوتيوخوس» الذى فصل خبر فتح الإسكندرية تفصيلاً مسهباً، وكذلك «يوحنا أسقف نقيوس» وهو مؤرخ عاش أيضاً فى القرن السابع الميلادى وتاريخه عن فتح مصر من أهم المصادر التى يعتمد عليها ويركن إليها. ولم يذكر هذا الخبر البتة أحد من المؤرخين المتقدمين كالطبرى واليعقوبى والكندى وابن عبد الحكم والبلاذرى، حتى جاء أبو الفرج (وكذا عبد اللطيف) فذكرها فى القرن الثالث عشر بعد الميلاد: أى بعد ستة قرون.

٤ - إن هذه المكتبة قد أصابها الحريق مرتين: مرة فى عهد يوليوس قيصر، فأتلف كثيراً مما كان بها من الكتب، ثم أحرقت أخيراً بتمامها فى حكم قيصر (طيودوس) بأمر الأسقف (تيوفيل) سنة ٣٩١ م بواسطة جماعة من المتعصبين للنصرانية، ولم يبقوا على هيكل (سيرابيس) وأحرقوا الكتب التى كانت بالسيرابيوم، أو نقلوها إلى القسطنطينية.

٥ - إن زيارة «أورازيوس» المتقدم الذكر للإسكندرية فى أوائل القرن الخامس الميلادى تثبت أنه لم يكن لهذه المكتبة وجود

قبل دخول العرب فى الإسكندرية بنحو قرن ونصف قرن،
ولا أدل على هذا من قوله: إنه وجد رفوف هذه المكتبة خالية
من الكتب - وما ذلك إلا لأن المسيحيين كانوا أتلفوها فى
نهاية القرن الرابع الميلادى.

٦ - إن التعاليم الإسلامية تخالف رواية أبى الفرج (وعبد اللطيف)
إذ ترمى إلى عدم التعرض للمكتب الدينية اليهودية
والنصرانية، وأنه لا يجوز إحراقها. أما غيرها من الكتب
العلمية فيجوز أن ينتفع بها المسلمون.
ومن هنا يتضح أن هذه الرواية منافية لأخلاق العرب الذين
كانوا يتعرضون لما فيه ذكر الله.

٧ - وإذ ثبت أن المسيحيين أحرقوا هيكل سيرايس، فمن
المعقول أن النيران تلتهم ما فيه من الكتب فلا تبقى عليها ولا
تذر.

٨ - وفى غضون القرون الخامس والسادس والسابع: أى بعد
حريق هذه المكتبة لم يرد لها ذكر فى الآداب إذ ذاك.

٩ - ولو كانت مكتبة الإسكندرية لم تزل باقية عند الفتح
الإسلامى لما أحجم الروم عن نقلها إلى القسطنطينية، وقد
أجاز لهم عمرو حسب عقد الصلح والهدنة حمل ما يقدر
عليه من رخيص وغال، ولديهم من الوقت ما يكفى لتحقيق
هذا الغرض.

فترى أن القول بأن إحراق مكتبة الإسكندرية كان بأمر عمرو بن
العاص محض افتراء، فإنه حصل إحراقها مراراً قبل دخول العرب
مصر، والمكتبة القديمة الموروثة عن الأعصر الخالية قد محتها أيدي
النصارى. ومن المستحيل أن يبقى فى هذه المكتبة مع توالى الحرق عليها
والنقل منها ما تصل إليه يد عمرو بالحرق.

٤ - ١ - عمرو وتنمة الفتح في مصر

استولى عمرو بن العاص على العريش والفرما وبلبيس وأم دنين، واستولى على هليوبوليس وقصر الشمع وما والاها، وصالح المقوقس وفرض على المصريين الجزية، ثم سار إلى الإسكندرية، وأخضع في طريقه كلا من نقيوس وطرثوس وكوم شريك وسلطيس والكريون، وأقام على حصار الإسكندرية حتى فتحها الله على يديه وفرض على أهلها الجزية كباقي مدن مصر، وضرب عليهم الضرائب، فانطفأ سراج الروم من هذه الديار.

ومما ذكرنا يعلم أنه لم تخضع لسلطان عمرو جميع البلاد قاصيها ودانيها، وأن شروط الصلح قد شملت جميع المصريين وأصبحوا بحكم هذه المعاهدة في حوزة العرب، إلا أنه كانت لا تزال أمامه مدن لا مندوحة له من الاستيلاء عليها، ليتم له بذلك فتح مصر كلها.

أما كون هذه البلاد قد فتحت قبل استيلاء عمرو على بابليون أو بعده؛ أو بعد حصاره للإسكندرية، فأمر قد لغط المؤرخون فيه. وكان بوجدنا أن نتعمق في البحث حتى نقف على جلية الأمر، وأي الرأيين أحق أن يتبع، إلا أننا لم نأبه لذلك، لأن هذه الوقائع ثانوية محضة، أعنى أنه لم تتوقف عليها أهمية كبرى، أو أعقبتها نتائج خطيرة. ولنذكر بعض هذه الوقائع بإيجاز حتى لا نركب الشطط، إذ لا تزال هناك أمور أحق بالإسهاب، وأولى بالتفصيل وأجدر بالتعمق في البحث، نرجئها حتى يأتي حينها فنقول:

روى البلاذري في فتوح البلدان (ص ٢٢٤) أن عمرو بن العاص لما فتح القسطنطينية وجه عبد الله بن حذافة السهمي إلى عين شمس فغلب على أرضها، وصالح أهل قراها على مثل حكم القسطنطينية، ووجه خارجه

بن حذافة العدوى إلى الفيوم والأشمونين وأخميم والبشرودات^(١)
وقرى الصعيد ففعل مثل ذلك.

ووجه عمير بن وهب الجمحى إلى تنيس ودمياط وتونة^(٢)
ودميرة^(٣) وشطا ودقهلة^(٤) وبنا^(٥) وبوصير^(٦) ففعل مثل ذلك. ووجه
عقبة ابن عامر الجهنى (ويقال وردان مولاه) إلى سائر قرى أسفل
الأرض ففعل مثل ذلك. فاستجمع عمرو بن العاص فتح مصر فصارت
أرضها أرض خراج. اهـ.

١ - لعلها البشرود (بالتحريك وضم الراء وسكون الواو والدال مهملة) التى ذكرها
ياقوت فى معجمة فقال: كورة من كور بطن الريف بمصر من كور أسفل
الأرض.

٢ - قال المرحوم على مبارك باشا فى خططه: تونة: هى جزيرة من نواحي مصر
من فتوح عمير بن وهب. وبها جزيرة قرب دميرة.

٣ - قال ياقوت فى معجمه: دميرة (بفتح أوله وكسر ثانية وياء مثناة من تحت)
قرية كبيرة بمصر قرب دمياط وهما دميرتان: أحدهما تقابل الأخرى على
شاطئ النيل فى طريق من يريد دمياط.

٤ - ذكرها ياقوت فى معجمه فقال: دقهلة: بلد بمصر على شعبة من النيل، بينها
وبين دمياط أربع فراسخ، وبينها وبين دميرة ست فراسخ، ذات سوق وعمارة،
ويضاف إليها كورة فيقال كورة الدقهلية. وذكرها المرحوم على مبارك باشا فى
خططه فقال: هى قرية قديمة من مديرية الدقهلية بمركز فارسكور سميت
المديرية باسمها.

٥ - ذكرها ياقوت فى معجمه فقال: بلدة قديمة بمصر وتضاف إليها كورة من
فتوح عمير بن وهب، قال أبو الحسن الملهبى: من القسطنطينية إلى بناها ثمانية
عشر ميلاً وإلى صنهشت ثمانية أميال، وإلى مدينة بناها وهى مدينة جاهلية لها
ارتفاع جليل ومنها إلى سمنود ميلان.

٦ - قال المرحوم على مبارك باشا فى خططه: بوصير (بكسر الصاد وياء ساكنة
وراء) اسم يشترك فيه أربعة بلاد بالديار المصرية فمنها بليدة بكورة
السمنودية من الوجه البحرى ومنها (بوصير) الفيوم و(بوصير) الجيزة
و(بوصير) البهنسا أما (بوصير) التى بالجه البحرى فتسمى بنا لقربها من
قرية بنا الواقعة على شاطئ النيل الغربى، وبين بوصير هذه وبنا نحو
فرسخين، وهذه هى التى توجه إليها عمير بن وهب وفتحها.

الفيوم :

قال السيوطي (ج ١ ص ٦٢) : أقامت الفيوم سنة لم يعلم المسلمون بها ولا مكانها، حتى أتاهم أت فذكرها لهم، فأرسل عمرو معه ربيعة بن حبيش ابن عرفة الصدقي فألقى أهل الفيوم بأيديهم من غير قتال.

دمياط :

ذكر المقرئ (ج ١ ص ٢١٣ - ٢١٤) أن الذي وجهه عمرو إلى دمياط هو المقداد بن الأسود، وكان عليها رجل من أخوال المقوقس يقال له (الهاموك) فامتنع بدمياط واستعد للحرب وحارب المسلمين، وقتل ابنه في الحرب فعاد إلى دمياط، وجمع أصحابه فاستشارهم في أمره، وكان عنده حكيم قد حضر الشورى فقال: أيها الملك إن جوهر العقل لا قيمة له، وما استغنى به أحد ولا هداه إلى سبيل الفوز والنجاة من الهلاك، وهؤلاء العرب من بدء أمرهم لم ترد لهم راية، وقد فتحوا البلاد وأذلوا العباد، وما لأحد عليهم قدرة، ولسنا بأشد من جيوش الشام ولا أعز وأمنع، وإن القوم قد أيدوا بالنصر والظفر، والرأي أن تعقد معهم صلحاً ننال به الأمن وحقن الدماء وصيانة الحرم، فما أنت أكثر رجلاً من المقوقس، فلم يعبأ الهاموك بقوله، وغضب عليه فقتله. وكان له ابن عاقل وله دار ملاصقة للسور، فخرج إلى المسلمين في الليل ودلهم على عورات البلد فاستولى المسلمون عليها، وبرز الهاموك للحرب، فلم يشعر بالمسلمين إلا وهم يكبرون على سور المدينة وقد ملكوها.

فلما رأى «شطأ» بن الهاموك المسلمين فوق السور لحق بهم ومعه عدة من أصحابه ففت ذلك في عضد أبيه، واستأمن للمقداد فتسلم المسلمون دمياط، واستخلف المقداد عليها، وسير بخبر الفتح إلى عمرو بن العاص. أهـ.

البرلس^(١) والدميرة^(٢) وأشموم طناح^(٣) وتنيس^(٤) وشطا^(٥).

ذكر المقریزی فی خططه (جـ ١ ص ٢١٤): وخرج شطا وقد أسلم إلى البرلس والدميرة وأشموم طناح، فحشد أهل تلك النواحي وقدم بهم مدداً للمسلمين وعوناً لهم على عدوهم، وسار بهم لفتح تنيس، فبرز لأهلها وقاتلهم قتالاً شديداً حتى قتل رحمه الله في المعركة شهيداً، بعدما أنكى فيهم وقتل منهم، فحمل من المعركة ودفن في مكانه المعروف به خارج دمياط. وكان قتله في ليلة الجمعة النصف من شعبان، فلذلك صارت تلك الليلة كل سنة موسماً يجتمع الناس فيها من النواحي عند شطا ويحيونها وهم على ذلك إلى اليوم.

١ - ذكرها المرحوم على مبارك باشا في خططه فقال: البرلس (بضم الموحدة والراء واللام المشددة وبعد سين مهملة) ثغر عظيم من ثغور مصر، ويشتمل خط البرلس على جملة قرى متقاربة واقعة في الرمال التي بين البرلس وشاطئ البحر. والبرلس مدينة كانت قاعدة هذا الخط، وبلاد البرلس الآن من مديرية الغربية.

٢ - دميرة واقعة على بحيرة المنزلة بالقرب من تنيس، ذكرها ابن دقماق (جـ ٧٩ ص ٧٩) عند كلامه على تنيس ودمياط فقال: قال الحافظ جمال الدين: وبتنيس ودمياط يعمل القماش الرفيع، وإن كانت شطا وديبق ودميرة وتونة وما قاربها من تلك الجزائر يعمل بها الرفيع من القماش، ولا بد أن يكون العرب قد استولوا على هذه المدينة مع تنيس ودمياط.

٣ - ذكرها ابن دقماق فقال: أشموم طناح وهي (بضم الألف وسكون الشين المعجمة وضم الميم وسكون الواو وفي آخرها ميم وقيل نون) تعرف بأشموم طناح، وأشموم الرمان، وهي قصبة كورة الدقهلية، وهي مدينة ذات حمامات وأسواق وجوامع وفنادق، وهي على خليج النيل الشرقي، وهو البحر الذي حفره السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري الصالح.

٤ - وقد أطنب كل من المقریزی وابن دقماق بذكر تنيس فقال المقریزی: كانت تنيس مدينة كبيرة. وكان أهلها مياسير أصحاب ثراء وأكثرهم حاكّة، وكان يعمل بها الرفيع من القماش. وكان يصنع فيها للخليفة ثوب يقال له البدنة لا يدخل فيه من الغزل سداء ولحمه غير أو قيتين، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحوج إلى تفصيل أو خياطة وقيمته ألف دينار.

٥ - مدينة عند تنيس ودمياط، وإليها تنسب الثياب الشطوية ويقال إنها عرفت بشطا بن الهاموك، وكانت تعمل كسوة الكعبة بشطا.

وكان على تنيس رجل يقال له «أبو ثور» من العرب المنتصرة، فلما فتحت دمياط سار إليها المسلمون، فبرز لهم نحو عشرين ألفاً من العرب المنتصرة والقبط والروم فكانت بينهم حروب ألت إلى وقوع أبى ثور فى أيدي المسلمين، وانهزم أصحابه فدخل المسلمون البلد وبنوا كنيستها جامعاً، وقسموا الغنائم. اهـ.

أما أبو ثور الذى ذكره المقرئى وابن دقماق وغيرهما فيظهر لنا أنه اسم مختلق. والذى يؤيد ملاحظتنا ادعائهم أنه كان من العرب المنتصرة، مع أننا لم نسمع بأن هؤلاء العرب قد اشتركوا مع الروم فى مصر حين الفتح الإسلامى.

ومن الخطل أن نوافق هؤلاء المؤرخين فيما يختص بعدد الجند الذين جمعهم حاكم تنيس. ونرى أنهم ربما بلغوا ألفين لا عشرين ألفاً، وذلك لسببين:

١ - لأن تاريخ فتح مصر لم يدون إلا بعده (الفتح) بقرنين على الأقل.

٢ - لأننا لم نعثر فى كتب مؤرخى القبط المعاصرين للفتح على ذكر «أبى ثور» ولا للعشرين ألفاً، وممن أيد هذا الرأى أيضاً الدكتور «بطلر».

أما «شطا» الذى سميت المدينة باسمه فقد نقل «بطلر» عن «يوحنا أسقف نقيوس» أن مدينة شطا كانت معروفة قبل الفتح الإسلامى بزمان طويل، ومع ذلك فلا يبعد أن يكون من قواد القبط من اعتنق الإسلام، وحارب فى صف العرب بحمية وبسالة.

ب - هل فتحت مصر صلحاً أو عنوة

اختلف المؤرخون فى فتح مصر فقال قوم إنها فتحت صلحاً، وقال آخرون إنما فتحت عنوة. ولم تؤد أقوالهم إلى نتيجة ما، سوى سرد بعض الروايات، وعدم تمحيصها لكى يهتدوا بذلك إلى رأى قاطع فى هذا الموضوع.

وقد قدمنا شروط الصلح التى كانت بين عمرو والمقوقس. ولنذكر الآن بعض هذه الروايات المتباينة المتناقضة بإيجاز ليتسنى لنا بذلك ترجيح أحد القولين: أعنى كونها فتحت صلحاً أو عنوة.

والظاهر أن اضطراب المؤرخين راجع إلى أمور يعلم منها أن بعض مدن مصر فتح صلحاً، والبعض الآخر فتح عنوة.

واليك هذه الأمور:

١ - من الشروط التى كانت بين عمرو المقوقس أثناء فيضان النيل (أى حين جنح المقوقس للصلح ودفع الجزية) يتضح أن عمراً عامل أهل مصر معاملة من فتحت بلادهم صلحاً. ولكن نظراً لرفض «هرقل» هذه الشروط واستمرار الروم فى الدفاع عن الحصن حتى فتحه العرب عنوة، يتضح أن هذا الفتح كان عنوة. ولكن إذا لاحظنا أن الحامية الرومية سلمت بشروط الصلح السابقة الذكر، وأن عمراً أجابهم إلى ذلك يتبين أن الحصن فتح صلحاً، وأن هذا العهد شمل جميع المصريين ممن فرضت عليهم الجزية.

٢ - وأما ما يتعلق بمدينة الإسكندرية فيتضح أنها سلمت قبل أن يتم لعمرو الاستيلاء على المدينة، وأبى عمرو أن يقسم

الغنائم أو يسبى أهلها فضرِب عليهم الجزية. ولما نقض الروم الصلح عاد عمرو من بابلين واستردها، وبذلك فتحها عنوة، وأراد أن يجعل أموالهم فيئاً للمسلمين فأبى عليه عمر وأمره أن تكون كسائر بلاد مصر، فأحصى من دخلوا في عهد الصلح من الأهالي فكانوا ثلاثمائة ألف، فضرِب عليهم الجزية وأمروا بدفع الخراج.

٣ - على أن عمراً قد استولى بالفعل على قرى بلهيب^(١) وسلطيس وقرطيا وغيرها وسبى أهلها لأنهم ظاهروا الروم على العرب وفرقت سباياهم حتى وصلت المدينة، فردهم عمر وصيرهم أهل ذمة.

وإذا أمعنا النظر في هذه النتائج الغربية لفتح مصر ومبلغ الاختلاف في روايا - المؤرخين، جاز لنا أن نؤكد أن هؤلاء المؤرخين كانوا معذورين في اعتقاداتهم، وما وصلت إليه أفكارهم من الاضراب والتشويش والتعقيد.

ولعل ذلك راجع لبقاء العربي مدة قرنين مكتفياً بسرد روايات الفتوح الإسلامية شفويًا، وعدم تدوين ما وقع من الحوادث كتابة ليكون ادعى للبقاء، وما كنا نقرأ أن زياداً الراوية روى عن خالد مثلاً أن مصر فتحت صلحاً أو عنوةً.

فمن هنا جاء التناقض وتولد الاختلاف، وضاعت أكثر حقائق التاريخ، وأصبح البحث عن هذه الحقائق شاقاً على النفس غير محتمل الوصول إليها إلا في القليل النادر. من ذلك أن بعض المؤرخين روى أن

١ - قال ياقوت في معجمه، بلهيب من قرى مصر كان عمرو بن العاص حين قدم مصر صالح أهل بلهيب على الخراج والجزية. إلا بلهيب وخيس وسلطيس وقرطيا وسخا فإنها إعمانت الروم على المسلمين.

حصن بابليون فتح صلحاً، وذكر بعضهم أنه فتح عنوة. وكذلك الحال فيما يتعلق بفتح الإسكندرية.

ومن المؤرخين الذين اتفقوا على أن مصر فتحت صلحاً؛ البلاذري (ص ٢٢٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص. وابن عبد الحكم (ص ٧٦) عن الليث فقال إن مصر فتحت كلها صلحاً ما عدا الإسكندرية فإنها فتحت عنوة، وعن هشام بن اسحق العامري أن شروط الصلح بين عمرو بن العاص وأهل مصر ستة وهى:

- ١ - لا يخرجون من ديارهم .
- ٢ - ولا تنتزع نساؤهم .
- ٣ - ولا كنوزهم .
- ٤ - ولا أراضيهم .
- ٥ - ولا يزداد عليهم .
- ٦ - ويدفع عنهم موضع الخوف من عدوهم^(١).

فصارت الأرض بذلك أرض خراج، على أن يكون خراجهم وما صالح عليه القبط كله قوة للمسلمين، ولا يجعل المسلمون فيئاً ولا عبيداً ففعلوا. (ابن عبد الحكم ص ٧٦- ٧٩، والمقرئى ج ١ ص ٢٩٤).

ومن المؤرخين الذين ذكروا أن مصر فتحت عنوة، المقرئى عن ابن لهيعة، وعن زيد بن أسلم أنه كان تابوت لعمر بن الخطاب فيه كل عهد كان بينه وبين من عاهدوه. فلم يوجد فيه لأهل مصر عهد؛ وابن عبد الحكم عن يحيى بن عبد الله بن بكير أنه خرج أبو مسلمة ابن عبد

١ - والشرط السادس لم يذكره ابن عبد الحكم ولكنه ورد فى كتاب معاوية لعقبة بن أبى سفيان حين سأل هذا أرضاً يسترفق فيها عند قرية عقبة.

الرحمن يريد الإسكندرية فى سفينة فاحتاج إلى رجل يجدف فتسخر رجلاً من القبط فكلم فى ذلك فقال: إنما هم بمنزلة العبيد إن احتجنا إليهم.

وقد ذكر المقرئ أن عمرو بن العاص قال: لقد قعدت مقعدى هذا، وما لأحد من قبط مصر على عهد ولا عقد. وعن يحيى بن بكير أن مصر كان فتح بعضها بعهد وئمة وبعضها عنوة فجعلها عمر بن الخطاب جميعاً ئمة.

ولكن إذا عرفنا أن مصر فتحت بالسيف واستولى عليها العرب بعد أن طردوا الروم منها، وهم المسلمون عليها، فلا نحجم عن القول بأنها فتحت عنوة، وإن المؤرخين الذين ساروا على هذا الرأى قد نظروا إلى الفتح من الوجهة العسكرية وهو صحيح، بدليل قول عمرو بن العاص «لقد قعدت مقعدى هذا وما لأحد من قبط مصر على عهد ولا عقد» والظاهر أن الذين يميلون إلى القول بأن مصر فتحت عنوة يستدلون بما كان من الحرب بالفرما وبلبيس وأم دنين والإسكندرية، وكون هذه البلاد لم تفتح إلا بعد جهاد ونضال.

ولكن لا تغفل نص الصلح الذى كان بين عمرو والمقوقس، وهو متداول معروف. رواه أكثر المؤرخين المعدودين كالطبرى وابن عبد الحكم والبلاذرى والمقرئ والمسعودى، ومنه يعلم أن عمراً أبى أن يقسم الغنائم قبل أن يكتب لعمر بن الخطاب، فكتب إليه عمر يأمره بإجابة المصريين إلى دفع الجزية والخراج.

وهذا يدل على سياسة رشيدة من جانب كل من عمر وعمرو، الذى لا بد أن يكون قد اقترح على أمير المؤمنين أن يعامل المصريون معاملة من فتحت بلادهم صلحاً لكى يتألف بذلك قلوبهم. وهذا يحدث

كثيراً عقب فتوح البلاد. فيتجاوز الفاتحون عن بعض أمور في مصلحة البلاد المحكومة، لكي يستقر بذك ملكهم على أهون سبيل.

يدلك على ذلك قول عمر لعمر «واعلم أن ما قبلك من أرض مصر ليس فيها خمس، وإنما هي أرض صلح، وما فيها للمسلمين في» .

أما كون أبي مسلمة بن عبد الرحمن قد تسخر رجلاً من القبط يجدف له، وأنه اعتبر القبط كالعبيد، فإن هذه الحادثة الفردية لا تدل بأي حال على أن مصر فتحت عنوة.

ولا يمكننا أن نسلم بذلك من أجل حادثة كهذه، إذ قد يكون هذا القبطي قد تطوع للقيام بما طلب منه عن طيب خاطر، وأن عمل هذا الرجل لا يصلح أن يكون حجة على أمة بأسرها، ولا ناقضاً لأقوال الآخرين الذين ذكروا أن أهل مصر إنما هم أهل صلح.

أما قول يحيى بن خالد أن مصر فتح بعضها صلحاً وبعضها عنوة، وأن عمر جعلها كلها ذمة، فهو القول الذي نميل إليه، ونرغب في ترجيحه، وهذا ما يمكن أن نستنبطه بعد بحث وتمحيص أقوال المؤرخين المتباينة. ومادام عمر رضى الله عنه قد أمر أن تعامل البلاد جميعها معاملة الصلح فيدفع أهلها الجزية والخراج، لا أن تكون ملكاً للفاتحين يتصرفون فيها كيف شاءوا، فيستولون على أراضيها وأموالها ويسبون نساءها، فإننا نرجح أن مصر فتحت عنوة، ولكن عمر عاملها معاملة البلاد التي فتحت صلحاً ليتألف بذلك قلوب المصريين.

٥ - عمرو وتثبيت الفتح

١ - عمرو وفتح برقة وطرابلس

لم تقف همة عمرو العالية وعزيمته الماضية عند حد القناعة بفتح مملكة الفراعنة، وإخراج الروم منها وضياع سلطانهم على يديه، بل طمح إلى ما هو أبعد غاية. وهى بلاد المغرب. ومما دعاه إلى القيام بهذا العمل شغفه بالفتح، ورغبته فى نشر لواء الإسلام، وميله إلى القضاء على سلطان الروم من البلاد الواقعة غربى الديار المصرية، ليأمن على مصر من هجماتهم إذا حدثتهم أنفسهم باستردادها.

فلما فتح عمرو الاسكندرية سار فى جنده يخترق الصحراء حتى بلغ برقة^(١). وإقليمها هو حد مصر من الغرب، وتسمى أنطابلس - كما قال ابن دقماق والسيوطى. افتتحها عمرو وصالح أهلها على الجزية وقدرها ثلاثة عشر ألف (١٣,٠٠٠) دينار يؤدونها إليه. ومن هنا يستدل على أنها فتحت صلحاً لا عنوة.

وقد أيد رأينا السيوطى (ج١ ص ٦٣) وابن دقماق (ج١ ص ١٤) وغيرهما.

وجه عمرو بن العاص عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة، وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين، ثم سار عمرو حتى نزل أطرابلس^(٢) فى

١ - قال المرحوم على مبارك باشا فى خطته: إن برقه تسمى فى لغة الروم (بنطاپوليس) يعنى الخمس مدن. لأن (بنطا) معناها خمسة و(پوليس) : معناها مدينة، وبرقة واقعة فى صحراء حمراء، وهى دائمة الرخاء كثيرة الخير، وأكثر ذبائح أهل مصر منها، ويحمل إلى مصر منها العسل والقطران.

٢ - ذكرها البلاذرى وابن دقماق (أطرابلس) وذكرها على مبارك باشا (طرابلس) فقال: ومعنى (طرابلس) ثلاث مدن، فإن (طرا) معناها ثلاث و(پلس) معناها مدينة. وقال البكرى: وطرابلس مدينة على البحر لها سور من الحجر، وبها جامع وأسواق وحمامات، وهى كثيرة الفاكهة.

سنة ٢٢ للهجرة (يونيه سنة ٦٤٣م) على ما ذكره البلاذرى (ص ٢٢٣) والكندى (ص ١٠) وبطلر (ص ٤٣٨)، وكانت حصونها أقوى من حصون برقة، وحاميتها أكثر عدداً فامتنعت عن العرب شهراً كاملاً^(١).

ولما أنهك أهلها الجوع وشدة القتال تمكن العرب من الاستيلاء على المدينة من جهة البحر، لأنه لم يكن لها سور من جهته، فغزوا أهل المدينة وجندوها بحراً ودخلها عمرو بجنده، ومن ثم عاد إلى برقة حيث أذعنت لطاعته قبيلة لواته التي كانت تسكن معظم هذه البلاد.

وكتب عمرو إلى أمير المؤمنين: إنا قد بلغنا أطرابلس وبينها وبين إفريقية (تونس) تسعة أيام، فأن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا فى غزوها فعل... فكتب إليه عمر ينهاء عنها، ويأمره بالوقوف عند هذا الحد، فعاد مكرهاً بعد أن استخلف على البلاد عقبة بن نافع الفهري الذى صار إليه بعد لك فتح المغرب^(١) أهـ.

وحسناً فعل أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه، لأنه كان أحرص ما يكون على جند المسلمين، وأمره عمر بالوقوف عند هذا الحد يدل على حسن سياسته وبعد نظره، لأن تغلغل عمرو فى جوف تلك الأراضى الواسعة والأقطار الشاسعة بجيشه القليل وعدته الضعيفة قد يستنفد قوته من غير أن يفوز بطائل، سيما والروم لم يزالوا من القوة بحيث يتمكنون من استرداد مصر والقضاء على حاميتها القليلة فى حين انشغال عمرو بغزو هذه البلاد.

فكان من رأى عمر أن يحتفظ بما فى يديه وأن لا يطوح بجنده فى مهاوى التهلكة وفى معامع حروب لا يعلم نتيجتها إلا الله.

-
- ١ - ذكر ياقوت أن الحصار دام ثلاثة أشهر وذكر ابن خلدون أنه دام شهراً واحداً، وقال ابن عبد الحكم إنها افتتحت سنة ٢٢ هـ، وهذا يدل على أنها افتتحت بعد برقة بمدة طويلة. اللهم إلا إذا كان فتح الأخيرة فى نهاية سنة ٢٢ هـ.
 - ٢ - فتوح البلدان للبلاذرى (ص ٢٢٣) وتاريخ اليعقوبى (ج ١ ص ٢٢٣).

ب - عمرو وقتح بلاد النوبة

لم يكتف عمرو بتأمين مصر من جهة الغرب، بل حاول أن يؤمنها من الجهة الوحيدة التي كانت لا تزال مصدر الخوف؛ وهى جهة الجنوب، فبعث نافع بن عبد القيس الفهرى (وكان نافع أخا العاص بن وائل لأمه) فدخلت خيلهم أرض النوبة فقاتلهم أهلها قتالاً شديداً فانصرفوا. ولم يزل الأمر على ذلك حتى عزل عمرو بن العاص عن مصر، ووليها عبد الله بن سعد وصالحهم، وذلك فى سنة ٣١هـ على أن يؤدوا للمسلمين ثلثمائة وستين رأساً، ولوالى البلد أربعين رأساً^(١).

١ - تاريخ اليعقوبى (ج١ ص ١٨٠). أما شروط الصلح التى عقدها المسلمون مع أهالى النوبة فهى كثيرة وقد ترجمها «ستانلى لين پول» فى كتابه «تاريخ مصر فى العصور الوسطى» (ص ٢١ - ٢٣).

ج - عمرو وانتفاض الروم في الإسكندرية

على أن الفتح برغم هذا كله لم يستقر لعمرو، فما زال الروم يتطلعون إلى مصر، وما زال في مصر ناس يتطلعون إلى الروم. وكان انتفاض الروم في خلافة عثمان بن عفان^(١) في السنة الخامسة والعشرين^(٢).

وقد قيل في سببه أن «طَلَمًا» صاحب إخوانا قدم على عمرو فقال: أخبرنا ما على أحدنا من الجزية، فأبى عمرو فغضب صاحب إخوانا وخرج إلى الروم فقدم بهم فهزمهم عمرو، وأسر القبطي، وأتى به إلى عمرو فأطلقه رغمًا عن إلحاح الناس بقتله، فرضى طلما بأداء الجزية وعدَّ إطلاقه مكرمة عظيمة من عمرو حتى أنه صرَّح بأنه لو أتى به إلى ملك الروم لقتله لوقته.

ونحن نرى أن هذا الخبر لا أساس له لأن عمرًا لم ينقض عهده مع القبط أو زاد خراجهم، حتى أدى تمسكه بذلك إلى ازدياد النفرة والجفاء بينه وبين عمر.

أما السبب الذي يمكن الجزم بصحته فقد رواه ابن الأثير، وهو أن

١ - يبيع عثمان بن عفان رضى الله عنه في ذي الحجة سنة ٢٣ هـ واستهل المحرم سنة ٢٤ هـ، وفي خلافته نقض الروم صلحهم، واعتزل عمرو بن العاص ولاية مصر، وتولاها عبد الله بن سعد بن أبي سرح.

٢ - ممن اتفق على هذه السنة البلاذري (ص ٢٢٨) (وفي قول آخر له سنة ٢٣ هـ) وابن الأثير (ج ٣ ص ٣٩) وأبو المحاسن (ج ١ ص ٨٨) الذي حذا حذو البلاذري إلا أنه رجح سنة ٢٥. والمقرئزي (ج ١ ص ١٦٨) والسيوطي (ج ١ ص ٧٠) واليعقوبي (ج ١ ص ١٨٩) ويطلر (ص ٤٩٦) وستانلى لين پول (ص ٢١).

أهل الإسكندرية كتبوا إلى «قسطنطين» إمبراطور الروم يهّونون عليه فتح الإسكندرية لقلّة ما بها من حامية المسلمين. فتدبر قسطنطين الأمر، ولم يكن جرح الروم قد اندمل من ضياع مصر مصدر ثروة الإمبراطورية، فأمر بأن تعدّ على جناح السرعة وفي طيّ الكتمان عمارة بحرية لغزو الإسكندرية. وكان الروم في ذلك الحين لا يزالون سادة البحار، فلم تجرؤ أمة من الأمم على مناوأتهم أو منافستهم في هذا المضمار.

انتصار عمرو على الروم

قدم «منويل» الخصى إلى الإسكندرية على رأس جيش رومى كبير، واستولى عليها، فزحف عمرو في طريق الإسكندرية سالكا الطريق التى كان قد سلكها من قبل، وضمّ تحت لوائه كثيرين من القبط.

وزحف «مويل» ومعه من نقض من أهل الإسكندرية وغيرها من قرى الدلتا، وأخذوا يعيثون في الأرض فساداً، ينزلون القرى فيشربون خمرها، ويأكلون أطعمتها وينهبون كل ما مروا به من دواب ومتاع ونحو ذلك، فلم يتعرض لهم أهالى تلك القرى لضعفهم، حتى وصلوا إلى (نقيوس) حيث اشتبكوا مع المسلمين^(١). في القتال في البر والبحر^(٢) وكثر الترامى بالنشاب حتى أصابت فرس عمرو، فنزل عنه، ثم شدّ المسلمون على الروم، وقتلوه قتل المستميت، ومازالوا بهم

١ - كان جند المسلمين خمسة عشر ألفاً على ما رواه البلاذرى (ص ٢٢٩) ولا شك أن جيش الروم كان أكبر من جيش المسلمين.

٢ - يراد بكلمة «البحر» - القناة التى كانت تمر بمدينة نقيوس.

حتى غلبوهم على أمرهم، وانتصروا عليهم انتصاراً مبيناً بحسن قيادة عمرو بن العاص. ولم يقف عمرو عند هذا الحد، بل تعقب الفالة إلى الإسكندرية، واستردها منهم، ووضع في رقابهم السيف. ثم أوقف رضى الحرب، وأمر بأن يبنى في الموضع الذى رفع فيه السيف مسجد، أطلق عليه فيما بعد مسجد الرحمة، وقد قتل «منويل» فى هذه الموقعة التى لم تقل هولاً عن سابقتها^(١).

وقد هدم عمرو سور الإسكندرية، وكان قد حلف لئن أظفهره الله عليهم ليهدمن سورها، حتى تكون مثل بيت الزانية يؤتى من كل مكان.

١ - زعم كثير من مؤرخى العرب كالمقريزى (ج١ ص ١٦٧) والسيوطى (ج١ ص ٧٠) وغيرهما أن عمراً قد ضم إلى المقوقس من أطاعه من القبط. مع أنه قد مات منذ مدة طويلة فخلطوا روايتهم فتكلموا على انتفاض الروم فى ولاية عثمان من حيث يريدون انتفاضهم الأول، ولعلهم عنوا (بنيامين) الذى كان حقيقة كبير القبط يومئذ. فخلطوا بينه وبين المقوقس الذى كان كبير القبط أيضاً فى أثناء فتح مصر منذ يضع سنوات. وقد شك البلاذرى فى بقاء المقوقس إلى هذا العهد فقال (ص ٢٢٩): قيل إن المقوقس اعتزل أهل الإسكندرية حين نقضوا فاقره عمرو ومن معه على أمرهم الأول. وروى أيضاً أنه كان قد مات قبل هذه الغزاة، فكانهم أرادوا (بنيامين) من حيث كانوا يريدون المقوقس. ومن سار على هذا القول أيضاً، بطر (ص ٤٧٨ - ٤٨١) وستانلى لين پول (ص ٢١).

الباب الثالث

**{ ولاية عمرو الأولي علي مصر
وأعماله الإدارية فيها }**

١ - عمرو ووصف مصر لعمر بن الخطاب

لما تم لعمر بن العاص فتح مصر أرسل إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتاباً يصفها له فيه، ويشرح له السياسة التى سيتخذها فيها.

مصر تربة غبراء^(١) وشجرة خضراء^(٢) طولها شهر، وعرضها عشر^(٣) يكتفها جبل أغبر^(٤) ورمل أعفر^(٥) يخطُ وسطها نهر ميمون الغدوات. مبارك الروحات^(٦) يجرى بالزيادة والنقصان، كجرى الشمس والقمر له أوان^(٧) تظهر به عيون الأرض وينابيعها، حتى إذا عَجَّ عجاجه^(٨) وتعظمت أمواجه^(٩) لم يكن وصول بعض أهل القرى إلى بعض إلا فى خفاف القوارب، وصغار المراكب، فإذا تكامل فى زيادته نكص^(١٠) على عقبة كأول ما بدأ فى شدته، وطما فى حدته^(١١) فعند ذلك يخرج القوم ليحرقوا بطون أوديته وروابييه^(١٢) يبذرون الحب، ويرجون الثمار من الرب، حتى إذا أشرق وأشرف^(١٣) سقاه من فوقه الندى، وغذاه من تحته الثرى. فعند ذلك يدر حلاله ويغنى ذبابه^(١٤) فبينما هى يا أمير المؤمنين درة بيضاء إذا هى عنبرة سوداء، وإذا هى

-
- ١ - سهلة الإنبات.
٢ - بمعنى أنها كثيرة الشجر الأخضر.
٣ - لعله يزيد أن الماشى يقطعها طولاً فى شهر، وعرضاً فى عشرة أيام.
٤ - يحيط بها جبل ضارب إلى السواد.
٥ - أبيض مائل إلى الحمرة أو الصفرة.
٦ - محمود الذهب والإياب.
٧ - يزيد وينقص فى أزمنة معينة.
٨ - معظم مائه.
٩ - تقطعت وتسربت فى الأراضى.
١٠ - رجع وذهب.
١١ - أى نقص بشدة كما زاد بقوة.
١٢ - أعالي الأرض وأسافلها.
١٣ - ظهر وبان.
١٤ - يعظم محصوله.

زبرجدة خضراء، فتعالى الله الفعّال لما يشاء، الذى يصلح هذه البلاد وينميها ويقر قاطنتها فيها، أن لا يقبل قول خسيسها فى رئيسها، وأن لا يستأدى خراج ثمرة إلا فى أوانها، وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وتراعها، فإذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال، والله تعالى يوفق فى المبتدأ والمآل^(١). أهـ.

وصف عمرو مصر لعمر بهذا الكتاب الذى رواه كثير من المؤرخين المتأرخين، ولكننا نشك فى أن الفاظه الحديثة المنمقة صدرت عن عمرو فى صدر الإسلام.

قال أبو المحاسن: فلما ورد هذا الكتاب على عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: لله درك يا ابن العاص. لقد وصفت لى خبراً كأنى أشاهده.

وقد تُرجم كتاب عمرو بن العاص الذى أرسله إلى عمر لما استولى على مصر، ونشر هذه الترجمة الكاتب الفرنساوى الشهير «أوكتاف أوزان» فى جريدة (الفيجارو) الفرنساوية، ونقلته عنها برمته مع التعليقات التى علقها عليه المسيو «أوزان» والذى وصف فيها هذا الكتاب بأنه من أكبر آيات البلاغة فى كل لغات العالم، وقال عنه إنه من الفرائد فى إيجازه وإعجازه، واقترح وجوب تدريسه فى جميع مدارس المعمورة، حتى يتعلموا منه مع قوة الوصف ومتانة التعبير صحة الحكم على الأشياء، وكيفية تنظيم الممالك وسياسة الاستعمار.

وقد ترجم هذا الوصف من مؤرخى الإنجليز المؤرخ «جيبون» والدكتور «بطلر».

١ - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لأبى المحاسن (ج ١ ص ٣٣ - ٣٤).

ب - تحول عمرو إلى الفسطاط وتحبيه إلى القبط ورده بنيامين إلى كرسية

بعد استيلاء عمرو بن العاص على الإسكندرية تحول بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى الفسطاط بعد أن قرره والياً عليها، وسبب تحوله أنه لما فتح الإسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغاً منها (قد شيدت غير محتاجة إلى إصلاح) وقد جلا من كان يسكنها منازلهم، هم أن يسكنها وقال: منازل قد كفيناها، فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك فسأل عمر الرسول: هل يحول بيني وبين المسلمين ماء؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل. فكتب إلى عمرو: إني لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف، فلا تجعلوا بيني وبينكم ماء. متى أردت أن أركب إليكم راحلتى حتى أقدم عليكم قدمتم. أهـ.

كانت الصلة بين مصر وبين الدول المالكة لها منذ الإسكندر، تستلزم أن تكون العاصمة في الإسكندرية، فلما انتقل مركز السيادة على مصر إلى بلاد العرب، كان يجب أن تكون العاصمة إما على البحر الأحمر، وإما على نقطة تسهل منها المواصلات البرية. ولكن العرب لم يكونوا أمة بحرية، فلم يكن بد من أن تكون عاصمة مصر في نقطة برية سهلة التواصل مع بلاد العرب، إلى هذا كله لا تغفل عن حكمة عمرو في اختيار موقع الفسطاط، لأنه كان يمكنه من ملاحظة قسمة البلاد المصرية شمالاً وجنوباً، مع أنه قريب من الطريق إلى بلاد العرب. يدل ذلك على قول عمر «إني لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف».

تحول عمرو إلى الفسطاط، فكان خير وال، وأعظم قائد، وأحبّ
الولاة إلى الرعية، وأشدّهم قياماً على العدل، والنظر في عمران البلاد
وراحة أهلها، فتألف بدهائه وحسن سياسته قلوب القبط حتى جعلهم
عونا للمسلمين، ورأى بما اشتهر عنه من بعد النظر وحسن السياسة
أن يتحجب إلى القبط فيمتهلك قلوبهم، ليرجع الأمن إلى نصابه ويسود
السلام والطمانينة في ربوع البلاد، فيأمن الفتن والقلاقل، ثم يتفرغ
بعد إلى إدارة البلاد وإنهاضها. ولا غرو إذا تغافى المصريون في محبته
وبالغوا في تعظيمه، فقد أزال ما حاق ببلادهم من نير الروم، وما حل
بهم من شدة البلاء، ففكّهم من أسر الضيم الذي عانوه، ولم يتعرض
لهم في عاداتهم بشئ ألبتة، وأمنهم على أموالهم وعيالهم وحمل بلادهم
من هجمات المغيرين وعبث العابثين، وقد قاسوا الأمرين من جراء
الانتصار لمعتقدتهم في عهد الروم كما بينا.

ومما يذكر لعمرو بالشكر أن أنه كتب أماناً للبطريق بنيامين
ورده إلى كرسيه بعد أن تغيب عنه زهاء ثلاث عشرة سنة، فسر هذا
العمل البطريق وشكر عمرًا عليه.

سار بنيامين إلى الإسكندرية حيث أمر عمرو باستقباله بكل
حفاوة وتعظيم، ولما قدم البطريق ولقى عمرًا ألقى على مسامعه
خطاباً بليغاً ضمنه كل ما عن له من الاقتراحات التي رآها لازمة لحفظ
كيان الكنيسة، فتقبلها عمرو ومنحه السلطة التامة على القبط والسلطان
المطلق لأدارة شؤون الكنيسة.

وقد لاحظ «بطلر» أن عودة بنيامين إلى عرض الكنيسة قد كفاها
شر الوقوع في أزمة خطيرة كانت لا محالة مؤدية بها إلى الاضمحلال
والدمار.

وإن الخطبة البليغة التي ألقاها باسيلي أسقف نقيوس بدير
مقاريوس لخير شاهد على أن القبط قد أصبحوا بعد الفتح الإسلامي في
غبطة وسرور لتخلصهم من عصف الروم. يدلك على صحة ما نقول رد
بنيامين على باسيلي بقوله «لقد وجدت في مدينة الإسكندرية زمن
النجاة والطمأنينة التي كنت أنشدهما بعد الاضطهادات والمظالم التي قام
بتمثيلها الظلمة المارقون» فهذه هي الكلمات التي فاه بها البطريرق
ومنها يتجلى للقارئ مبلغ الراحة التي شعر بها المصريون في عهد
عمرو. ومما يؤيد هذا القول وصف «ساويرس» القوم بأنهم كانوا في
ذلك اليوم (أي اليوم الذي زار فيه بنيامين دير مقاريوس) كالثيرة إذا
أطلقت من قيودها.

ج - عمرو وتأسيس مدينة الفسطاط

أ - ما قيل في تسمية الفسطاط

شرع عمرو فى غرس بذور الحضارة الإسلامية فى مصر
وبسط جناح الإسلام فى أرجاء البلاد، وكان أول ما قام به من أعماله
الخالدة تأسيس مدينة الفسطاط لجعلها حاضرة البلاد ودار الإمارة.

وكان موضع الفسطاط قضاء ومزارع بين النيل والمقطم، ولم يكن
فى هذا المكان من البناء سوى حصن بابليون، حيث كان ينزل به شحنة
الروم، وكان إلى الشمال والشرق من هذا الحصن أشجار ونخيل
وكروم، وبين الحصن والجبل عدة كنائس وأديرة، وقد عين موضعها
الأستاذ يوسف افندى أحمد فقال: إنها تقع فى المنطقة التى حول جامع
عمرو والتى تمتد شرقاً حتى قرب سفح جبل المقطم، وشمالاً حتى
جهة فم الخليج وقناطر السباع وجبل يشكر، وغرباً حتى النيل،
وجنوباً حتى ساحل أثر النبى. أه.

وقد ذكر المقرئ أن عمرو بن العاص لم افتتح مدينة
الإسكندرية الفتح الأول نزل بجوار هذا الحصن واختط الجامع المعروف
بالجامع العتيق، وجامع عمرو بن العاص، واختطت قبائل العرب من
حوله، فصارت مدينة عرفت بالفسطاط.

وقد قيل فى تسمية الفسطاط بهذا الاسم أقوال كثيرة، فقال
بعضهم إن عمرو بن العاص لما أراد المسير إلى الإسكندرية أمر بفسطاطه
أن يقوض فإذا بيمامة قد باضت فى أعلاه فقال: لقد تحرمت بجوارنا،
أقروا الفسطاط حتى يطير فراخها فأقر فى موضعه، فبذلك سميت
الفسطاط.



جزء من أطلال مدينة الفسطا ط

وذكر ابن قتيبة أن العرب تقول لكل مدينة فسطاط، وقيل: لما عاد عمرو من الإسكندرية قال: أين تنزلون؟ فقالوا: الفسطاط - يعنون فسطاط عمرو الذي خلفه، وكان مضروباً في موضع داره الصغرى التى بحذاء دارهبرى وجامعه، فاختط عمرو داره فى موضع الفسطاط، والدار التى إلى جانبها، فلما نزل موضع فسطاطه انضمت القبائل بعضها إلى بعض، وتنافسوا فى المواضع فولى عمرو على الخطط أربعة من المسلمين، فكانوا هم الذين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل^(١).

ولا يبعد أن يكونوا قد اختاروا النزول فى الموضع الذى نزلوا فيه أولاً، لصلاحه وقربه من النيل.

وقال ابن قتيبة فى كتاب (غريب الحديث) إن النبى صلى الله عليه وسلم قال: عليكم بالجماعة فإن يد الله على الفسطاط (بضم أوله وكسره وإسكان ثانيه): أى المدينة. وقال بطر: إن مدينة الفسطاط مأخوذة من لفظ «فسّاتم»، ومعناه «مدينة حصينة» أخذها العرب عن الروم أثناء حربهم فى الشام، وربما كان هذا هو أرجح الأقوال.

٢ - الفسطاط ودار الإمارة:

اختلفت مدينة الفسطاط بعد الفتح الإسلامى بناء على رغبة أمير المؤمنين عسمر بن الخطاب رضى الله عنه، حتى لا يحول بينه وبين المسلمين ماء، فصارت قاعدة للديار المصرية، ومقرّاً للإمارة حتى بنيت مدينة العسكر (جهة زين العابدين والمذبح والسيدة زينب والكبش) سنة ١٣٣ للهجرة، فنزل فيها أمراء مصر وسكنوها.

ومما قاله ابن خلدون فى مقدمته (١٦٩): ويشترط فى اختيار موضع المدينة أن تقع إما على هضبة متوعدة من الجبل، وإما باستدارة

١ - ذكر هؤلاء ابن دقماق فقال (ج! ص ٢٢٢): معاوية بن حديج التجيبى وشريك بن سمي الغطيفى وعمرو بن قحزم الخولانى، وحويل بن ناشر المعافى.

بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور، وطيب الهواء للسلامة من الأمراض، وقرب الزرع منها ليحصل الناس على الأقوات. وختم كلامه بقوله بأن العرب لم يراعوا هذه الشروط فى اختيار مواقع المدن التى أسسوها كالقيروان والكوفة والبصرة، وأنها كانت أقرب إلى الخراب لما لم تراعى فيها الأمور الطبيعية. أهـ.

وإن كان ابن خلدون قد أصاب فى بعض ما ذكره؛ فإن إقواله تنطبق من جهة على بعض المدن التى أسسها العرب، ولا تنطبق من جهة أخرى على البعض الآخر كالفسطاط، لمراعاة الأمور الطبيعية والسياسية التى أدت إلى تأسيسها، لأن النيل يحدّها شرقاً والجبل غرباً، وتقع المزارع فيما بينها، وبين الجبل من جهة، وبين جبل يشكر من جهة أخرى، وكذا لوقوعها على رأس الدلتا ليسهل الإشراف على الوجهين البحرى والقبلى، ولما لم تكن العرب أمة بحرية كما تقدم، لم يكن هناك داع لتأسيس العاصمة على البحر الأحمر حتى لا يحول بينها وبين العرب ماء، كما رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

٣ - الخطط التى كانت بمدينة الفسطاط:

قال المقرئى (ج ١ ص ٢٩٦) اعلم أن الخطط التى كانت بمدينة فسطاط مصر بمنزلة الحارات التى هى اليوم بالقاهرة، فقليل لتلك فى مصر خطة وقيل لها فى القاهرة حارة. أهـ.

فلما عزم عمرو على تخطيط الفسطاط ولى أربعة من المسلمين كما قدمنا فاختلفوا لكل قبيلة خطة.

قال «بطلر»: والظاهر أن الذى قام بتنفيذ هذا الأمر إنما هم القبط لدرايتهم بفن العمارة، التى كان يجهلها العرب.

ونحن نستبعد ذلك لأن الأبنية التي أقامها العرب هي من لبن دور واحد لا تحتاج إلى معمارى أو هندسة. ودليلنا على ذلك ما سيرد فى بناء جامع عمرو فإنه بنى بسقف منخفض بدون نوافذ وبدون فراغ فى السقف حتى يتخلل الهواء داخله، وقد كان العرب يستظلون بفنائه وينتقلون بجوانبه تبعاً للظل، وذلك من شدة الحر بداخله.

وكانت بيوت الصحابة فى بادئ الأمر طبقة واحدة، وأول من ابتنى غرفة بالفسطاط خارجة بن حذافة، فبلغ عمر بن الخطاب أمرها وأنه أراد أن يطلع على عورات جيرانه، فكتب إلى عمرو بن العاص يقول: ادخل غرفة خارجة، وانصب فيها سريرك، وأقم عليه رجلاً ليس بالطويل ولا بالقصير، فإن أطلع من كواها فاهدمها. ففعل ذلك عمرو، ولم يبلغ الكوى فآقرها.

بعد ذلك أخذت الدور تزداد فى الاتساع والعلو شيئاً فشيئاً حتى صار ارتفاع أغلب الأرض خمس طبقات وستاً وسبعاً وثمانياً. وبعد أن كانت الدار تسكنها أسرة قليلة العدد أصبح يسكنها المائتان من الناس، وكانوا لا يسكنون فى أسفل دورهم (الطابق الأرضى) لعدم جفافه وقلة وصول الشمس والضوء الكافية إليه. بل يجعلونه مخزناً لهم، وقلما تخلو دار من بئر وأحواض لخزن المياه العذبة وحمام وبركة (فسقية).

وكانت أبنيتهم على جانب عظيم من الترتيب والإبداع، وأسواقهم وشوارعهم واسعة وأبنيتهم شاهقة - كل ذلك بعد الفتح بزمان.

وإليك صور بعض الأبنية الباقية من مدينة الفسطاط أخذها حضرة محمد أفندى يوسف بالتصوير الشمسى خصيصاً لهذه الرسالة، ومنها يظهر ما كانت عليه هذه المدينة.

د - عمرو وتأسيس الجامع العتيق

إلى الشمال من حصن بابليون جامع عمرو بن العاص، وهو أقدم جامع إسلامي^(١) بنى فى مصر يظهر عليه الجلال وتكسوه المهابة، لأن اسمه مقرون باسم مؤسسة، لهذا وجب على المصريين ولا سيما المسلمين منهم أن يعتنوا بهذا الجامع عناية كبرى.

أسس هذا الجامع سنة إحدى وعشرين من الهجرة على مارواه أبو المحاسن وابن دقماق والذى حاز موضعه قيسية^(٢) بن كلثوم التجيبى، فلما رجع المسلمون من الإسكندرية سأل عمرو بن العاص قيسية هذا فى منزله ليحعله مسجداً فأجابه إلى طلبه وتصدق به على المسلمين، ومن ثم شرع عمرو فى بنائه، فكان طوله خمسين ذراعاً وعرضه ثلاثين.

ومن هنا يتضح أن هذا الجامع كان فى مبدأ أمره أصغر بكثير مما هو عليه الآن. ويقال إنه وقف على إقامة قبلته ثمانون من الصحابة منهم الزبير بن العوام والمقداد^(٣) بن الأسود وعبادة بن الصامت.

ولم يكن للمسجد الذى بناه عمرو محراب مجوف وأول من بناه قرة ابن شريك^(٤)، وكان له بابان مقابلان دار عمرو وبابان شماليه وبابان غربية، وكان الخارج من زقاق القناديل^(٥) يلقي ركن الجامع

١ - ولم يبق من البناء القديم شئ أصلاً. والبناء الموجود الآن بعضه منذ سبعة قرون والبعض منذ خمسة والأغلب منذ سنة ١٢١١ هـ.

٢ - ذكر هذا اللفظ السيوطى وابن دقماق، وذكره أبو المحاسن «قتيبة» وهو خطأ.

٣ - ذكر بطبر فى تاريخه هذا اللفظ خطأ فقال «قناد».

٤ - كان والى مصر من قبل الوليد بن عبد الملك بن مروان من سنة ٩٠ إلى سنة ٩٦ هـ.

٥ - دعى بهذا الاسم لأنه كان منازل الأشراف، وكان على أبوابهم القناديل، وقيل إنما قيل له زقاق القنديل لأنه كان يرسمه قنديل يوقد على باب عمرو؛ وهو من الخطط القديمة، وله أربعة مسالك.



جامع عمرو بن العاص

الشرقى محاذياً ركن جامع عمرو الغربى، وكان طوله من القبلة إلى الغرب مثل طول دار عمرو، وسقفه منخفضاً جداً ولا صحن له، وكانوا يصلّون بفنائنه، وكان بينه وبين دار عمرو سبعة أذرع، وكان الطريق محيطاً به من جميع جوانبه، وكان عمرو قد اتخذ منبراً فكتب إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأمره بكسره: «أما يحسبك أن تقوم قائماً والمسلمون جلوس تحت عقبيك؟» فكسره عمرو.

هـ - خطبة لعمر بن الخطاب في هذا الجامع

وقبل أن نختم كلمتنا نأتى بأحدى خطب عمرو بن العاص في هذا الجامع. أخرج أبو المحاسن عن ابن عبد الحكم عن سعيد بن ميسرة المعافى قال:

رحتُ أنا ووالدى إلى صلاة الجمعة، وذلك آخر الشتاء بعد خميس النصراني بأيام يسيرة، فأطلقنا الركوع، إذ أقبل الرجال بأيديهم السيوط يزجرون الناس فذعرت فقلت: يا أبت من هؤلاء؟ قال: يا بني هؤلاء الشرط، فأقام المؤذنون الصلاة فقام عمرو بن العاص على المنبر، فرأيت رجلاً ربعة، قصير القامة، وافر الهامة، أدعج أبلج عليه ثياب موشاة كأن به العقبان تأتلق، عليه حلة وعمامة وجبة، فحمد الله وأثنى عليه حمداً موجزاً، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، ووعظ الناس وأمرهم ونهاهم، فسمعتة يحضُّ على الزكاة، وصلة الأرحام، ويأمر بالاعتقاد، وينهى عن الفضول، وكثرة العيال وإخفاض الحال فقال:

يا معشر الناس إياكم وخلالاً أربعاً، فإنها تدعوا إلى النصب بعد الراحة، وإلى الضيق بعد السعة، وإلى الذلة بعد العزة: إياكم وكثرة العيال، وإخفاض الحال، وتضييع المال، والقيام بعد القيل في غير درك ولا نوال، ثم لا بد من فراغ يؤول إليه المرء في توديع جسمه، والتدبير لشأنه وتخليته بين نفسه وبين شهواتها، ومن صار إلى ذلك فليأخذ بالقصد^(١) والنصيب الأقل، ولا يضيع المرء فراغه نصيب العلم من نفسه، فيجوز من الخير عاطلاً، وعن حلال الله وحرامه باطلاً. يا معشر الناس: إنه قد تدلّت الجوزاء، وزلّت الشعري، وأقلعت السماء^(٢) وارتفع

١ - الاعتدال.

٢ - أقلعت السماء أى كفت، وهو كناية عن انقطاع المطر.

الوباء وقل الندى وطلب المرعى، ووضعت الحوامل ودرجت السخائل، وعلى الراعى بحسن رعيته حسن النظر، فحى لكم على بركة الله تعالى إلى ريفكم، فتناولوا من خير ولبنه وخرافه وصيده، وأربعوا خيلكم وأسمنوها، وصونوها وأكرموها، فأنها جنتكم^(١) من عدوكم، وبها مغانمكم وأنفالكم، واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيراً، وإياكم والمومسات المعسولات^(٢) فإنهن يفسدن الدين، ويقصرن الهمم، حدثنى أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً، فإن لهم فيكم صهراً وذمة، فكفوا أيديكم وعفوا فروجكم وعضوا أبصاركم^(٣)، ولا أعلمن^(٤) ما أتى رجل قد أسمن جسمه، وأهزل فرسه، وأعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال، فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك، وأعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة، لكثرة الأعداء حولكم، وتشوف قلوبهم إليكم؛ وإلى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية. وحدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً، فذلك خير أجتاد الأرض. فقال له أبو بكر رضى الله عنه: ولم يارسول الله؟ قال لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة. فاحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم، فتمتعوا فى

١ - الجنة هى الوقاية.

٢ - العواهر.

٣ - يشير إلى قوله تعالى: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون﴾، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن... إلخ.

٤ - جواب قسم محذوف أكد بالنون الثقيلة. وما مصدرية، أى فوالله لا أعلمن إتيان رجل موصوف بما ذكر، وفى طيه من الترهيب البليغ ما لا يخفى، وقد بين بعد جزاء من فعل ذلك بقوله: فمن أهزل فرسه. إلخ.

ريفكم ما طاب لكم، فإذا يبس العود، وسخن الماء، وكثر الذباب، وحمض اللبن وصوح البقل، وانقطع الورد من الشجر، فحى إلى فسطاطكم على بركة الله؛ ولا يقدم أحد منكم ذو عيال، إلا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته أو عسرتة، أقول قولى هذا وأستحفظ الله عليكم^(١) أهـ.

هذه الخطبة تمثل لنا عمرو بن العاص رجلاً ناصحاً لرعيته، حريصاً على الاستمساك بسياسة عمر بن الخطاب، وإظهار زهد عمر، وإن كانت تنمُّ بحبه للذات الحياة، وحثه الناس على أن يستمتعوا بها من غير إسراف؛ ثم نلاحظ هنا حثه الناس على تعهد الخيل، فإنه ربما دلنا على أن عمر كان يضمّر فى نفسه حرباً أخرى فى أفريقية الشمالية، مع أن هذا كان لازماً، لأن الروم كانوا يترقبون الفرص للإغارة على مصر من جديد، مما يدل على أن عمر لم يكن يقتنع بفتح مصر، وإنما كان يحث الناس على الاعتناء بالخيل كأنه يضمّر حرباً أخرى ما حاول من فتح برقة، وكان هذا الفتح طبيعياً، لأن مصر ما زالت منذ عصورها الأولى إلى الآن تلاحظ هذا القسم من أفريقية الشمالية كأنه امتداد طبيعى لها.

١ - الخطط للمقرئى (ج ٢ ص ٢٦٠).

٩ - عمرو وحفر خليج القاهرة

كان من أعمال عمرو المشكورة فى مصر حفر خليج القاهرة -المعروف بخليج أمير المؤمنين-. وقد قال المرحوم على مبارك باشا فى خططه: يظهر من أقوال المقرئى وغيره أن هذا الخليج بعض من خليج قديم كان مستعملاً فى الأزمان الغابرة فى الملاحة، وموصلاً بين النيل والبحر الأحمر، وكانت بواسطته تجارة بلاد العرب والهند والسودان تدخل القطر المصرى، وتتوزع فى بلاده، كما أن التجارة المصرية كانت تحملها السفن فيه إلى البحر الأحمر فتدخل فى جميع البلاد المذكورة، فهو بهذا الاعتبار أثر من الآثار العتيقة يستحق الذكر. اهـ.

ولم يترك صاحب الخطط التوفيقية واردة إلا أوردها ولا شاردة إلا اقتفى أثرها، مما لا يترك زيادة لمستزيد، كذلك أفرد له المقرئى باباً خاصاً أطال القول فيه، وعنه أخذ على مبارك باشا والسيوطى وغيرهما... وقد ذكر المقرئى فى خططه أن هذا الخليج بظاهر القاهرة من جانبها الغربى فيما بينها وبين المقس. عُرف فى أول الإسلام بخليج أمير المؤمنين، وهو خليج قديم أول من حفره «طوطيس بن ماليا» أحد ملوك مصر الذين سكنوا مدينة منف، وهو الذى قدم خليل الله إبراهيم عليه السلام فى أيامه إلى مصر وأخذ امرأته سارة وأخدمها هاجر أم إسماعيل، فلما أسكنها إبراهيم هى وابنها إسماعيل فى مكة بعثت إلى طوطيس تعرفه أنها بمكان جدد وتستغيث به، فأمر بحفر هذا الخليج وبعث إليها فيه بالسفن تحمل الحنطة وغيرها إلى جدة فأحيا بلد الحجاز.. وقد تمادت الدهور والأعوام فجدد هذا الخليج أندرومانوس (إدريان) قيصر الروم وسارت فيه السفن قبل الهجرة بنيف وأربعمئة سنة. اهـ.

ونحن نستبعد جداً أن يأمر سلاطيس بحفر هذا الخليج من أجل
خادمة ونجزم بأنها خرافة.

ولما وفد «هيرودوت» على مصر وساح فى أرضها قبل المسيح
بأربعة قرون ونصف قرن قال فيما كتبه عليها إن «نيخوس بن
ابسامتكوس» هو أول من شرع فى اتصال النيل بالبحر الأحمر، ولم
يتمه، ولما دخلت مصر فى حكم الفرس فى زمن «دارا» شرع فيه مرة
ثانية فأتته، وجعل طوله أربعة أيام ملاحية وعرضه بحيث تمر فيه
سفينتان بالمجازيف، وكان يملأ بماء النيل، ومبدؤه فوق مدينة
بويسط^(١) بقليل بقرب مدينة باطموس^(٢). ثم يتبع سير الأودية بعد أن
يبعد عن الجبل فى جهة الجنوب ويصب فى البحر.

وفى تاريخ القرون الوسطى لمؤلفه «لبون» أن عمر بن الخطاب لم
يأذن بفتح خليج البرزخ بين الفرما والبحر الأحمر، واكتفى عمرو بن
العاص بأصلاح خليج «تراچان» الذى كان (أدريان) مدّه إلى النيل بقرب
ببليون، ويمر ببليبيس، وأوصله بخليج (نيخوس) القديم، الذى كمله
(دارا) ملك الفرس، واجتمع من الخليجين خليج واحد، كان ينتهى إلى
مستنقع المالح. وفى زمن «بطليموس لاغوس»^(٣) عملت ترعة من
نهايته لتوصيل المياه الحلوة إلى مدينة أرسنوية^(٤) لنهاية البحر الأحمر
الذى فيه الآن مدينة السويس، وكان مبدأ هذا الخليج مدينة ببليون،
ويمر بعين شمس، ووادى الطميلات إلى القنطرة، ثم يتصل بالبحر
الأحمر عند القلزم.

١ - تل بسطة بجوار الزقازيق.

٢ - مدينة باطموس هى التى خلفتها قرية التل الكبير الآن، وكان مبدأ هذا الخليج
بقربها.

٣ - يقول بطليموس إن هذا كان فى زمن (بطليموس فيلادلف الثانى).

٤ - كانت مدينة أرسنوية على ساحل البحيرات المرة، وقد زالت الآن.

ومما تقدم يعلم أن خليج تزاچان وأدريان هما بجملتهما خليج واحد، وهو خليج القاهرة، وكان ينتهى إلى البحيرات المرة، ثم مده (بطليموس) إلى السويس، وهذا الخليج لا يصلح للملاحة إلا فى زمن ارتفاع النيل، وقد أهملته الروم حتى طُم وُردم بالأتربة فى معظم مواضعه حتى احتفروه عمرو ثانياً، واستعمله لنقل الميرة فى المراكب إلى الحجاز، ولم يقل طول هذا الخليج عن ثمانين ميلاً.

وكان سبب حفر هذا الخليج فى عهد عمرو بن العاص على ما أخرجه السيوطى عن ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد، أن الناس بالمدينة أصابهم جهد شديد فى خلافة عمر عام الرمادة، فكتب إلى عمرو بن العاص وهو بمصر: من عبد الله أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص سلام عليك. أما بعد، فلعمري يا عمرو ما تبالى إذا شبعنت أنت ومن معك أن أهلك أنا ومن معى. فياغوثاه ثم يا غوثاه.

فكتب عمرو بن العاص: أما بعد فيالبيك ثم يالبيك قد بعثت إليك بغير أولها عندك وأخرها عندى والسلام عليك ورحمة الله... فبعث إليه بغير عظيمة فلما قدمت على عمر وسع بها على الناس، وكتب إلى عمرو بن العاص إن يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر معه، فقدموا عليه. فقال عمر: يا عمرو إن الله قد فتح على المسلمين مصر، وهى كثيرة الخير والطعام، وقد ألقى فى روعى لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين التوسعة عليهم حين فتح الله مصر، وجعلها قوة لهم، ولجميع المسلمين، أن أحفر خليجاً من نيلها حتى يسيل فى البحر فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة، فإن حمل على الظهر يبعد، ولا نبلى به ما نريد، فانطلق وأصحابك فتشاوروا فى ذلك حتى يعتدل فيكم رأيكم. فانطلق عمرو فأخبر من كان معه من أهل مصر. فثقل ذلك

عليهم وقالوا: نتخوف أن يدخل من هذا ضرر على مصر، فنرى أن تعظم ذلك على أمير المؤمنين، وتقول له إن هذا أمر لا يعتدل ولا يكون، ولا تجد إليه سبيلاً. فرجع عمرو بذلك إلى عمر فضحك عمر حين رآه وقال: والذي نفسي بيده لكأنى أنظر إليك يا عمرو وإلى أصحابك حين أخبرتهم بما أمرت به من حفر الخليج فثقل ذلك عليهم وقالوا يدخل من هذا ضرر على أهل مصر، فنرى أن تعظم ذلك على أمير المؤمنين، وتقول له: هذا لا يعتدل ولا نجد إليه سبيلاً. فعجب عمرو من قول عمر وقال: صدقت والله يا أمير المؤمنين. لقد كان الأمر على ما ذكرت. فقال عمر: انطلق يا عمرو بعزيمة منى حتى تجد فى ذلك، ولا يأتى عليك الحول حتى تفرغ منه إن شاء الله تعالى. أهـ.

ويخيل إلينا أن كل هذا إنما اخترع فيما بعد، وأن عمراً رأى آثار هذا الخليج القديم، فاحتفره وأصلحه تسهيلاً للمواصلات بينه وبين المدينة.

فانصرف عمرو وجمع لذلك من الفعلة ما بلغ منه ما أراد، ثم احتفر الخليج الذى فى حاشية الفسطاط الذى يقال له خليج أمير المؤمنين، فسأقه من النيل إلى القلزم (السويس)، فلم يأت الحول حتى فرغ وجرت فيه السفن. فحمل فيه ما أراد من الطعام إلى المدينة ومكة، فنفذ الله بذلك أهل الحرمين، وسمى «خليج أمير المؤمنين» ثم لم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه عمر بن عبد العزيز، ثم ضيعة الولاة بعد ذلك، فترك وغلب عليه الرمل، فانقطع وصار منتهاه إلى ذنب التمساح من ناحية بطحاء القلزم^(١). أهـ.

وقد ذكر الكندى أن عمراً حفر الخليج فى سنة ثلاث وعشرين (٦٤٣م) وفرغ منه فى ستة أشهر.

١ - يقرب من محلها الآن مدينة السويس، وإليها ينسب البحر فيقال بحر القلزم.

يتضح مما تقدم أن عمر أمر بحفر الخليج، وقد شرع في ذلك أثناء خلافته، وفعلاً جرت المؤن فيه ووصلت إلى بلاد العرب قبل وفاته في ذي الحجة سنة ٢٣ للهجرة، ولا يفهم من قول الكندي هل شرع في حفر الخليج سنة ٢٣هـ أو تم حفره سنة ٢٣، فيحتمل أن يكون قد شرع في حفره في نهاية سنة ٢٢هـ، وحينئذ لا يكون ذلك عام الرمادة وهو الأشبه.

وقد أجهزت الحكومة المصرية على الباقي من هذا الخليج فأمرت بطمه سنة ١٨٩٧م.

ز - عمرو ومقاييس النيل وزيادته

لا ريب فى أن حياة مصر متوقفة على النيل، وعلى هذا يتوقف محصول البلاد، الذى يزداد بزيادة مائة، وينقص بنقصانه، لهذا لم يأل حكام مصر منذ الأزمان الغابرة جهداً فى قياس درجة فيضانه فى كل سنة فى مواضع كثيرة، لأن القياس المذكور هو القاعدة فى ربط المال وتوزيعه على البلاد، وعليه يتوقف تنظيم الخراج، ولم يعزب عن بال عمرو ضرورة قياس النيل قياساً مضبوطاً، ليتأتى له جباية الأموال بالقسط والعدل.

فلما فتح العرب مصر، عرف عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما يلقي أهلها من الغلاء عند وقوف النيل عن حده، فكتب إلى عمرو يسأله عن شرح الحال فأجابه: إني وجدت ما تروى به مصر حتى لا يقحط أهلها أربعة عشر ذراعاً، والحد الذى يروى منه سائرهما حتى يفضل عن حاجتهم، ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ستة عشر ذراعاً، والنهائيتان المخوفتان فى الزيادة والنقصان، وهما الظمأ والاستبحار اثني عشر ذراعاً فى النقصان وثمانية عشر ذراعاً فى الزيادة، فكتب إليه عمر أن يبني مقياساً، وأن يضيف ذراعين على الأثنى عشر ذراعاً؛ وأن يقر ما بعدها على الأصل، وأن ينقص من ذراع بعد الستة عشر ذراعاً أصبعين، ففعل ذلك وبناءه بخلوان، وجعل الأثنى عشر ذراعاً أربعة عشر ذراعاً، لأن كل ذراع أربعة وعشرون إصبعاً، فجعلها ثمانية وعشرين من أولها إلى الأثنى عشر، ثمانية وأربعين إصبعاً وهى الذراعان، وجعل الأربعة عشر ستة عشر، والستة عشر ثمانية عشر، والثمانية عشر عشرين، وهى المستقرة الآن، المقرينى (ج ١ ص ٧٤).

ج - عمرو وخراج مصر في الإسلام

سار عمرو مع المصريين بمقتضى شروط الصلح من حيث تقسيم الجباية، ومراعاة حال النيل في النقصان والزيادة، وربما اضطر أحياناً إلى كسر الخراج، فكان عمرو رضى الله عنه يظن فيه الظنون، وربما كان ذلك لجبايته (١٢,٠٠,٠٠) دينار، مع أن المقوقس جباها (٢٠,٠٠٠,٠٠٠) ويظهر ذلك من المكاتبات التى دارت بين عمرو وعمرو بهذا الصدد، ومنها يُعلم أن النزاع ازداد بينهما، وأن سوء التفاهم قد وصل إلى مدى بعيد.

واليك كتاب عمر إلى عمرو حين استبطاه مرة فى الخراج نقلاً عن «حسن المحاضرة» للسيوطى: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص، سلام عليك. أما بعد فأنى فكرت فى أمرك والذى أنت عليه، فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة قد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً وقوة فى بر وبحر، وإنها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملاً محكماً، مع شدة عتوهم وكفرهم، فعجبتُ من ذلك، وأعجبُ مما عجبتُ أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحط ولا جذب، ولقد أكثرتُ فى مكاتبتك فى الذى على أرضك من الخراج، وظننت أن ذلك، سيأتينا على غير نزر (قلة) ورجوت أن تفيق فترفع إلى ذلك، فأذا أنت تأتينى بمعاريض^(١)

١ - المعارض هى التورية بالشئ عن الشئ وهى الستر، يقال عرفته فى معراض

كلامه وفى لحن كلامه، فالتعريض خلاف التصريح من القول.

٢ - أى يظنها مما يعبا به أى يهتم له، وهى لا شئ عندى، وقد ذكرها السيوطى «تفتالها».

تعباً بها^(٢) لا توافق الذى فى نفسى، ولست قابلاً منك دون الذى كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك، ولست أدرى مع ذلك ما الذى أنفرك من كتابى وقبضك، فلئن كنت مجرباً كافياً صحيحاً إن البراءة لنافعة، ولئن كنت مضيقاً نطعاً^(١) إن الأمر لعلى غير ما تحدث به نفسك، ولقد تركت أن ابتلى^(٣) ذلك منك فى العام الماضى رجاء أن تفيق فترفع إلى ذلك، وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك إلا أن عمالك عمال سوء، وما توالس عليك وتلف^(٤) اتخذوك كهفاً، وعندى بأذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه، فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه، فإن النهر يخرج الدر والحق أبلج^(٥) ودعنى وما عنه تلجلج^(٥) فإنه قد برح الخفاء والسلام. أهـ.

هذا الكتاب يدلنا:

أولاً: على ما هو معروف عن عمر من شدته وضربه على أيدي العمال والولاة.

ثانياً: على أن نفرًا من المنافسين لعمر بن العاص كانوا قد أخذوا يسيئون ما بينه وبين الخليفة، ويبينون لهذا إهمال عمرو وسوء إدارته، وربما اتهموه بمحاباة العمال المفسدين حين لم يستطيعوا أن يتهموه مباشرة بالخيانة.

ونحن نستدل مما جاء فى هذا الكتاب على أن عمر كان قد كتب إلى عمرو بخصوص الخراج من قبل، وأن مصر لم تكن تؤدى نصف

١ - التشدق بالكلام.

٢ - امتحن وأختبر.

٣ - قوله توالس وتلفف بمعنى واحد.

٤ - مضى مشرق لا يخفيه التمويه.

٥ - التردد فى الكلام.

ما كانت تؤديه، إن صح أن مصر كانت تؤدى هذا المقدار قبل الإسلام، أى أن الخراج كان أقل من عشرة آلاف ألف (١٠,٠٠٠,٠٠٠). ولا ندرى ما هى المعاريض التى كان يأتى بها عمرو، وقد ظنّ عمر أن قلة الخراج كانت راجعة إلى عدم مراقبته عمال الخراج وقلة جبايته، وأنهم كانوا يستولون على بعضها لأنفسهم، وإن صح ذلك كان نقطة ضعف فى سياسة عمرو، ولكن إذا عرفنا أن من أموال الخراج كانت تُدفع أعطيات الجند، وتنفَّذ المشاريع التى يتطلّبها الإصلاح، كشق الترع وبناء القناطر، فلا نحجم عن القول بأن عمراً كان له العذر فيما فعل، إذ راعى مصلحة الدولة الحاكمة والبلاد المحكومة، ورأى أن مصر فى حاجة إلى الإصلاح الذى لا يتم إلا بالمال، وكتاب عمر كما يظهر مفعم بالتعريض واللوم. أما قول عمر رضى الله عنه: إنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه قبل ذلك، يفيد أن عمراً قد خفف على المصريين الأعباء الثقيلة التى كانوا يثنون تحتها من تعدد الضرائب التى شلّمت كل شىء كما قدمنا، وهو مظهر من مظاهر الاستبداد لا يرضى به عمرو. ومن راجع كتاب المستر ملن «مصر فى عهد الرومان» حيث أفرّد فيه باباً خاصاً للضرائب، لا يسعه إلا أن يعزو نقص الخراج فى أيام عمرو عما كان عليه فى عهد الروم إلى إلغاء كثير منها، وعدم رضائه بالإخلال بعهدده لأهل مصر، ذلك العهد الذى شمل شروطاً ثابتة، راعى فيها عدد القبط وحال الأرضين. ولا شك أن خراج مصر قد قلّ نسبياً بعد الفتح لاعتناق كثير من المصريين الإسلام فيما بعد. ففى أيام الدولة الأموية كتب عمر بن عبد العزيز إلى حيان بن شريح أن يضع الجزية عمن أسلم، فكتب إليه حيان إن الإسلام قد أضرّ بالجزية حتى سلف من الحارث ابن ثابت عشرين ألف درهم أتمّ بها عطاء أهل الديوان، وطلب منه أن يأمر بقضاؤها، فكتب إليه عمر «ضع الجزية عمن أسلم قبّح الله رأيك، فإن الله

إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً ولم يبعثه جابياً، ولعمري لعمراً أشقى من أن يدخل الناس كلهم في الإسلام على يديه» .

ولكن نفس عمرو العالية، وعدم تَعُوده احتمال الضيم أو سماع المكروه أبى عليه ذلك، فكتب إلى أمير المؤمنين كتاباً يرد عليه قوله ويبرئ فيه نفسه، ويظهر له أنه ذو نفس أبيّة، وأن ماضى تاريخه خير شاهد على صحة ما يقول، وإليك نص هذا الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم. لعبد الله أمير المؤمنين من عمرو بن العاص، سلام الله عليك. فأنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو. أما بعد فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين فى الذى استبطأنى فيه من الخراج، والذى ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلى، وإعجابه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك منذ كان الإسلام، ولعمري للخراج يومئذ أوفر وأكثر والأرض أعمر، ولأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب فى عمارة أرضهم منا منذ كان الإسلام، وذكرت أن النهر يخرج الدر فحلبته حلباً قطع درهماً، واكثر فى كتابك وأنبئت وعرضت وتربت^(١) وعلمت أن ذلك عن شئ تخفيه على غير خبر، فجئت لعمري بالمفظعات المقدّعات، ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق، وقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده فكناً سابقاً.

فبينما عمرو يقول إن المصريين استنظروه فأنظروهم، إذ الرسول يقول إن عمراً لا ينظر إلا لما يقع تحت عينه من مال، وفى هذا

١ - تربت: بالتاء المثلثة بعدها راء مشددة بعدها باء موحدة من تحت ثم تاء مثناة، بمعنى ضيقت. ومنه قول يوسف لأخوته: لا تثريب عليكم اليوم، ويراد بها الحث والتحريض كما فى قوله عليه السلام (تربت يدك - من باب تعب أيضاً) وهى من الكلمات التى جاءت عن العرب صورتها دعاء، ولا يراد بها الدعاء، بل الحث والتحريض.

الدليل الواضح على أن عمرًا أراد أن يقنع الخليفة بأنه مع رفيقه ولطفه بالمصريين لا يستطيع أن يقنعه.

أراد عمر أن يوسع على عمرو لكي لا يتطلع إلى أموال الخراج، فكتب إليه كتابًا يعلمه بذلك، ويبين له طريقة توزيع الخراج:

أما بعد فأني فرضت لمن قبلي في الديوان (أي فرض العطاء) ولمن ورد علينا من أهل المدينة وغيرهم ممن توجه إليك وإلى البلدان، فانظر من فرضت له ونزل بك، فاردد عليه العطاء وعلى ذريته، ومن نزل بك ممن لم أفرض له، فافرض له على نحو ما رأيته فرضت لأشباهه، وخذ لنفسك مائتي دينار^(١) ولم أبلغ بهذا أحدًا من نظرائك غيرك، لأنك من عمال المسلمين، فألحقتك بأرفع ذلك، وقد علمت أن مؤنًا تلزمك، فوفر الخراج وخذه من حقه، ثم عفا عنه بعد جمعه، فإذا حصل إليك وجمعته، أخرجت عطاء المسلمين، وما يحتاج إليه مما لا بد منه، ثم انظر فيما بقي بعد ذلك فاحمله إلى، وأعلم أن ما قبلك من أرض مصر ليس فيها خمس، وإنما هي أرض صلح^(٢) وما فيها للمسلمين ففى، تبدأ بمن أغنى عنهم فى ثغورهم (أي المرابطين)، وأجزأ^(٣) عنهم فى أعمالهم، ثم اقض ما فضل بعد ذلك على من سمي الله^(٤) وأعلم يا

١ - لعل هذا الفرض الذى فرضه لعمرو هو جريته (مرتبته) على عمله لا فرض العطاء، إذ إن عمر كان يجرى على العمال جريته هى غير نصيبهم من العطاء، وقد ذكر فى سراج الملوك أن عمر أجرى على عمار فى كل شهر ستمائة درهم مع عطائه لولاته وكتابه ومؤذنيه، وأجرى عليه فى كل يوم نصف شاه ورأسها وجلدها وأكارعها، ومن هنا يعلم أن عماله كان لهم جريات، وهى غير العطاء كما يتضح ذلك من قوله: (مع عطائه).

٢ - وهذا يؤيد رأينا بأن مصر فتحت صلحًا لا عنوة، وإن عمر قد أمر بأن يعامل أهالى المدن التى فتحت عنوة معاملة الصلح، فشمل ذلك جميع المصريين على السواء.

٣ - اقض. ٤ - أى فى القرآن.

عمرو أن الله يراك ويرى عملك، فإنه قال تبارك وتعالى في كتابه: ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ يريد أن يقتدى به، وإن معك أهل ذمة وعهد، وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وأوصى بالقبض فقال (استوصوا بالقبض خيراً فإن لهم ذمة ورحماً) ورحمهم أن أم إسماعيل منهم، وقد قال صلى الله عليه وسلم (من ظلم معاهداً أو كلّفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة) إحذر يا عمرو أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم لك خصماً، فإنه من خاصمه خصمه، والله يا عمرو لقد ابتليت بولاية هذه الأمة، وأنست من نفسي ضعفاً، وانتشرت رعيتي ورقّ عظمي، فأسأل الله أن يقبضني إليه غير مفرط، والله إنني لأخشى لو مات جمل بأقصى عملك ضياعاً أن أسأل عنه. أهـ.

ومن هنا يتضح أنه كان لعمرو منزلة خاصة في نفس عمر بالرغم من معاملته الشديدة في مكاتباته له. ولم تقف معاملة عمر لعمرو عند هذا الحد بل قاسمه ماله (عمر) كما يعلم من رواية البلاذري (ص ٢١٧) قال: كان عمر بن الخطاب يكتب أموال عماله إذا ولّاهم، ثم يقاسمهم ما زاد على ذلك وربما أخذه منهم، فكتب إلى عمرو بن العاص «إنه قد فشيت لك فاشية من متاع ورقيق وأنية وحيوان، لم تكن حين وليت مصر».

فكتب إليه عمرو: إن أرضنا أرض مزدور ومتجر، ونحن نصيب فضلاً عما نحتاج إليه لنفقتنا. فكتب إليه عمر: إنني قد خبرت من عمال السوء ما كفى، وكتابك إلى كتاب من ألقه الأخذ بالحق، وقد سؤت بك ظناً، وقد وجهت إليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك، فأطلعه طلعه وأخرج إليه ما يطالبك، وأعفه من الغلظة عليك، فإنه برّج الخفاء. فقاسمه عمرو ماله. أهـ.

خضع عمرو لما أمره به أمير المؤمنين وقاسمه ابن مسلمة ماله، وكفى نفسه مؤونة الغلظة (وأعفه من الغلظة عليك) وهو كما لا يخفى من أشراف العرب، ومن أهل الشرف والرياسة، ومن ذوى الرأى فيهم. ولكن أبى عليه عمر أن يترقفه فى معيشتة، كما كان أبوه العاص من قبله، وقد كان يلبس الخز بكفاف الديباج، لهذا لا نعجب إذا أثرت هذه الكلمات فى نفس عمرو تأثيراً كبيراً حتى قال: «إن زماناً عاملنا فيه ابن حنتمة هذه المعاملة لزمان سوء، لقد كان العاص يلبس الخز بكفاف الديباج» فقال محمد: «مه لولا زمان ابن حنتمة هذا الذى تكرهه ألفيت معتقلاً عنزاً بفناء بيتك يسرك غزرها ويسوءك بكاؤها» قال عمرو: «أنشدك الله أن لا تخبر عمر بقولى، فإن المجالس بالأمانة» فقال محمد: «لا أذكر شيئاً مما جرى بيننا وعمر حي».

وهذه القصة أوضح الأشياء دلالة على ما استحدث عمر فى الإسلام من الأعمال، هى تدلنا على أنه استحدث مراقبة العمال ومحاسبتهم محاسبة فعلية، وندب من يقوم بذلك من ثقاته. ومثل هذا كان معروفاً قبل الإسلام عند الرومان.

هكذا عامل عمر عمرو بن العاص؛ ذلك السياسى المحنك، والقائد العظيم الذى دوخ الروم فى فلسطين ومصر، إلا أن عمر لم يعبأ بكل هذه المزايا. بل أجرى الحق مجراه، خوفاً أن يقتدى به بقية العمال وتسوء الحالة والإسلام فى غضاضته.

ي - استقرار أمر مصر عمرو

ولى عمرو بن الخطاب عمرو بن العاص على مصر ولاية مطلقة، وبقي والياً عليها، قائماً بالعدل محبوباً عند القبط وجنود العرب، ضابطاً لبلاده أحسن ضبط، وقد قام فى هذه المدة بكثير من الإصلاحات العظيمة، فنظّم الإدارة، ونصّب القضاة، ورسم الخطة الأولى فى جباية الخراج، وعنى عناية كبرى بالأعمال الخاصة بهندسة الرى، من كرى الخلجان، وبناء مقاييس النيل، وإنشاء الأحواض والقناطر والجسور، فأقام لذلك العمال لا يفترون عن العمل صيفاً وشتاء.

هذه هى السياسة التى سار عليها عمرو فى مصر على نهج العدل، وعدم تحميل المصريين ما لا يطيقون، وبهذه الطريقة أتى له تنفيذ أوامره على أهون سبيل، لأنه كان دائماً يضع مصلحة المصريين نصب عينيه، ولم يأل جهداً فى ترفيهم، وجلب الخير لهم، واكتساب محبتهم، فدانوا له بالطاعة، وأحبوا ولايته، فلم ير إخراج القبط فلا يطيعوه، عملاً بالمثل القائل «إذا أردت أن لا تطاع فمر بما لا يستطاع». وكان عمرو يأخذ من الخراج مما لا بد منه لإصلاح البلاد، ويأخذ لنفسه عطاءً، ويعطى الأعطيات لأربابها، وما يبقى يرسله إلى الخليفة.

استقر لعمرو بن العاص أمر ملك مصر. فساس البلاد هذه السياسة الرشيدة، فلم يعامل القبط بمثل ما عاملهم به الروم من قبل، فلما فتح مصر لم يتعرض لهم فى شئ البتة، فأطلق لهم حرية معتقدتهم، وترك لهم أرضهم، وأخذ على عاتقه حمايتهم، وأمّنهم على أنفسهم ونسائهم وعيالهم، فشعروا براحة كبيرة لم يعهدها منذ زمن طويل - ومما يدل على حسن سياسة عمرو، إقراره قبط مصر على

جباية خراج بلادهم، واهتمامه بالنظر فى أمورهم، والسهر على ترفيهم، يؤيد ذلك أنه بعد استيلائه على حصن بابلين، كتب بيده عهداً للقبط بحماية كنيسهم، ولعن كل من يجرؤ من المسلمين على إخراج القبط منها.

ومما يدل أيضاً على حسن سياسة عمرو أنه لم يفرق بين الملكية واليعاقبة من المصريين، فلم يتحيز لأحد الطرفين، فكانا متساويين أمام القانون، وأظلهما بعدله، وحماهما بحسن تدبيره، ولم يتبع السياسة القائلة «فرق تسد». تلك السياسة العقيمة التى ظهر للملأ أنها تؤدى إلى أوخم العواقب. لهذا لا ينكر علينا أحد إذا قلنا إن عمرو بن العاص قد نال من السلطان فوق ما كان يتمناه، فدانت له البلاد قاصيها ودانيها، وأجمعت على محبته، حتى كان يقال: «ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة».

ك - اعتزال عمرو ولاية مصر

لم تتفق كلمة المؤرخين فى ثبوت السنة التى اعتزل فيها عمرو بن العاص ولاية مصر، وتولاها عبد الله بن سعد بن أبى سرح، فقال بعضهم إن عزله كان قبل استيلاء (منويل) على الاسكندرية، ثم استدعاه عثمان لما كتب له أهل مصر يسألونه أن يقرّ عمرًا حتى يفرغ من قتال الروم، لأن له معرفة بالحرب وهيبة فى نفس العدو، فأجابهم إلى ذلك، ومن هؤلاء المؤرخين البلاذرى (ص ٢٣١) والمقريزى (ج ١ ص ١٦٧، ج ١ ص ٢٩٩) والسيوطى (ج ١ ص ٦٩)، وقال ابن الأثير إن عزل عمرو بن العاص كان سنة ٢٦هـ. وقال الطبرى، إنه اعتزل سنة ٢٧هـ. أعنى بعد استيلاء منويل على الإسكندرية.

ونحن نؤيد ما ذكره كل من الطبرى وابن الأثير لأسباب منها:

أولاً : لأن عثمان لم يسرح عبد الله بن سعد بن أبى سرح لغزو أفريقية، إلا سنة خمس وعشرين من الهجرة، وهى السنة التى انتقض فيها الروم فى الإسكندرية.

ثانياً : ولأنه أقام على غزوها سنة وثلاثة أشهر؛ إذ لا يعقل أن يمكث عبد الله أقل من هذا الزمن، والروم فى أمداد متصلة، والمسلمون يعيدون عن بلادهم. فمن المعقول أن تكون عودة عبد الله بن سعد إلى مصر بعد أن نفله عثمان خمس الخمس فى السنة السادسة والعشرين.

ثالثاً : وقد روى الطبرى أن عثمان بن عفان نزع عمرو بن العاص عن خراج مصر، واستعمل عليه عبد الله بن سعد

فتباغيا، فكتب عبد الله ابن سعد إلى عثمان يقول: إن عمراً
كسر الخراج؛ وكتب عمرو: إن عبد الله كسر على حيلة
الحرب، فكتب عثمان إلى عمرو أن ينصرف، وولى عبد الله
بن سعد الخراج.

وهذه النفرة التي كانت بين عمرو وعبد الله، وشكاية كل منهما
من صاحبه لابد أن تتطلب زمناً حتى يفصل أمير المؤمنين في الأمر.

لهذا نرى أن اعتزال عمرو بن العاص ولاية مصر كان بعد
انتقاض الروم في الإسكندرية، وكان في أواخر سنة ٢٦هـ أو في أوائل
سنة ٢٧هـ، وهو الأرجح، لأن عبد الله بن سعد لم يتول مصر إلا بعد
غزو إفريقية، وإذا ثبت ذلك فلا يعقل أن يكون اعتزال عمرو بن العاص
أن عثمان أراد أن يجعله على الحرب وعبد الله بن سعد على الخراج فابى
وقال: «أنا إذاً كما سك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها».

وكانت سياسة عمر بن الخطاب تقضى بأن يكون الخراج والحكم
في يد وال واحد، وهذه السياسة موافقة:

أولاً: للسذاجة الأولى.

ثانياً: للنظام الجمهورى عند الرومانيين.

أما سياسة عثمان بن عفان فكانت تقضى:

أولاً: باختيار العمال من أقاربه، ومن بينهم وبينه صلة.

ثانياً: الفصل بين الحرب والخراج، لأجل أن يستطيع التدخل في

كل شئ، وتضييق سلطة العمال، وهى توافق سياسة الأباطرة.

أما عمرو بن العاص فكان:

أولاً: متعوداً سياسة عمر.

ثانيًا : وكان يحرص على أن تكون سلطته عظيمة. لأنه كان طموحًا، فلم يكن بد من أن يقع الخلاف بينه وبين عثمان، الذي كان لا يشك في خيانة عمرو، ولا يشك في قوته في الحرب، فأراد أن ينتفع بعمرو في الحرب، ولكن عمراً لم يرض هذا، إما لأنه اعتدّها إهانة، وإما لأنه كان يحرص على رئاسة الخراج.

هذا هو السبب الحقيقي في عزل عمرو عن مصر، أضف إلى هذا ميل عثمان لتولية مصر لعبد الله بن سعد، لأنه كان أخاه من الرضاعة.

الكتاب الثالث

عمرو منذ اعتزل

ولاية مصر إلي أن مات

الباب الأول

{ أخبار عمرو مع عثمان }

أخبار عمرو مع عثمان

غضب عمرو غضباً شديداً وحقد على عثمان لعزله إياه، وكان ذلك سبب العداوة والبغضاء بينهما، ولما قدم عمرو بعد اعتزاله إلى المدينة، دخل على عثمان وعليه جبة يمانية محشوة قطناً فقال له عثمان: ما حشو جبتي؟ قال عمرو: قد علمت أن حشوها عمرو. فقال عثمان: ولم أرد هذا. إنما سألت أقطن هو أم غيره؟

ومما يدل على شدة غضب عمرو لعزله وتولية عثمان رجلاً يعتبر نفسه أعظم كفاءة منه وأكثر تجربة، أن عثمان بن عفان رضى الله عنه سأل لما قدم المدينة: كيف تركت عبد الله بن سعد؟ قال عمرو: كما أحببت. قال: وما ذاك؟ قال عمرو: قوى فى ذات نفسه. ضعيف فى ذات الله: فقال له عثمان: لقد أمرته أن يتبع أثرك. فقال عمرو: لقد كلفته شططاً. فهذا يبين شدة حنق عمرو وسخطه على عثمان وعلى واليه الجديد.

لم يبق عمرو بالمدينة بل اعتزل بفلسطين فى قصره المسمى «العجلان» وإنما مكث يرقب الأمور، وكأنه كان لا يشك فى أن الأمة سيكون بينها وبين خليفتها حدث، فأشفق من الإقامة فى المدينة، حتى لا يناله من هذه الثورة التى كان ينبأ بها شر، وما كان تردده بين المدينة وفلسطين إلا استكشافاً لما سيقع. على أن عثمان لم تفته إصابه رأى عمرو، فكان يستشير فى مهام الأمور، سيما حين سعرت نار الفتنة وتفاقم شرها، وكان عثمان يميل إلى استشارة عمرو حين كانت الأمة تمخض بشر. فقال: ما ترى يا عمرو؟ قال: أرى أنك قد لنت لهم وتراخيت عنهم، وزدتهم على ما كان يصنع عمر، فأرى أن تلزم طريقة صاحبك، فتشتد فى موضع الشدة، وتلين فى موضع اللين، وإن الشدة

تنبغى لمن لا يآلو الناس شرًا، واللين لمن لا يخلف الناس بالنصح، وقد فرشتهما جميعاً اللين.

وقد أقبل عثمان على عمرو بن العاص يوماً فقال: ما رأيك؟ (فى الفتنة) قال: أرى أنك قد ركبت الناس بمثل بنى أمية، فقلت وقالوا، وزغت وزاغوا، فاعتدل أو اعتزل، فأن أبييت فاعتزم عزماً وأمض قدماً. فقال له عثمان: مالك قمل فروك، أهذا الجد منك؟ فسكت عمرو حتى تفرق الناس ثم قال: لا والله يا أمير المؤمنين لأنت أكرم على من ذلك، ولكنى قد علمت أن بالباب قوماً قد علموا أنك جمعتنا لنشير عليك، فأحببت أن يبلغهم قولى، فأقود لك خيراً أو أدفع عنك شرًا.

وفى رواية للطبري أيضاً قال: لما عزل عثمان عمرو بن العاص جعل يطعن عليه، فأرسل عثمان إليه يوماً فخلابه فقال: يا ابن النابغة ما أكثر ما قمل جربان جبتك، إنما عهدك بالعمل عاماً أول، أتعطن على، وتأتينى بوجه، وتذهب عني بوجه آخر؟ فقال عمرو: إن كثيراً مما يقول الناس وينقلون إلى ولاتهم باطل، فأتق الله يا أمير المؤمنين فى رعييتك. فقال عثمان: استعملتك على ظلمك وكثرة القالة فيك. فقال عمرو، قد كنتُ عاملاً لعمرو بن الخطاب، ففارقنى وهو عني راض. فقال عثمان: لو أخذتُك بما أخذك به عمر لا ستقمت، ولكنى لنت عليك فاجترأت، أما والله لأننا أعز منك نفراً فى الجاهلية، وقيل أن ألى هذا السلطان. فقال عمرو: دع هذا فالحمد لله الذى أكرمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم وهدانا به، قد رأيت العاص بن وائل ورأيت أباك عفان، فوالله للعاص كان أشرف من أبيك. فقال عثمان: مالنا ولذكر الجاهلية! فخرج عمرو من عنده وهو محتقد عليه، فلما كان حصر عثمان خرج من المدينة حتى انتهى إلى قصره بفلسطين، وبينما هو جالس فى قصره ومعه ابنه محمد وعبد الله وسلامة بن روح الجذامى، إذ مرَّ بهم راكب من المدينة فسأله عمرو عن عثمان فقال: قد تركته محصوراً شديد الحصار، قال

عمرو: أنا عبد الله، قد يضطر العير والمكواة في النار، فلم يبرح مجلسه هذا حتى مرَّ به راكب آخر، فناداه عمرو: ما فعل الرجل (عثمان)؟ قال: قُتل. فقال عمرو: أنا عبد الله. إذا حككت قرحة أدميتها، إن كنت لأحرض عليه حتى أنى لأحرض عليه الراعى في غنمه في رأس الجبل. فقال له سلامة ابن روح: يا معشر قريش إنه كان بينكم وبين العرب باب وثيق فكسر تموه فما حملكم على ذلك؟ فقال عمرو: أردنا أن نخرج الحق من خلاصة الباطل ليكون الناس في الحق شرعاً سواء. وكانت عند عمرو أخت عثمان لأمه ففارقها حين عزله عثمان^(١). أهـ.

والذى يظهر لنا في شأن عمرو في فتنة عثمان أنه إنما نقم منه ما نقم الناس، لإيثاره بنى أمية على غيرهم من جلة الصحابة؛ ثم فضَّ يده لما بلغ الهياج أشده، ولم تجد نصائحه هو والصحابة عثمان نفعا، فظنَّ كمعظم القوم يشاهد تمثيل هذه الرواية المحزنة على بعد، ظناً أن عثمان يخلع نفسه إذا اشتد عليه التضيق، وعلى كل حال فلم يكن لعمرو في هذه الفتنة إلا ما كان لكثير من الصحابة الذين حضروا قتله، وأنه دخل فيما دخل فيه الناس.

١ - الطبرى (ج ٥ ص ١٠٧ - ١٠٩، ٢٣٢).

الباب الثاني

{ عمرو وسياسته مع عليّ ومعاوية }

١ - لماذا انضم عمرو إلى معاوية

ما كاد على بن أبى طالب كرم الله وجهه يتبوا مركز الخلافة حتى اختلفت كلمة المسلمين وصاروا أحزاباً: ففريق أصبح يطالب بدم عثمان، وهو حزب الأمويين بالشام، وعلى رأسهم معاوية بن أبى سفيان، وفريق من الثائرين قتل عثمان الذين اختاروا على بن أبى طالب، يعيئون فى الأرض فساداً فيملأون القلوب خوفاً ورجساً، وفريق أنصار السياسة الإسلامية القديمة الذى كان يتفق مع الأمويين ولكنه كان يريد أن يعود أمر الخلافة إلى ما كان عليه أيام عمر، وعلى رأسه طلحة والزبير وعائشة.

كان الزبير وطلحة قد بايعا علياً كارهين، فنفضا بيعتهما، وأرادا أن تنقض خلافة على، لأن أهل المدينة قد أقروها وعلى رؤوسهم سيوف الثائرين. وقد رأينا أن عمرو بن العاص لم يكن راضياً عن عثمان ولا عن حكمه، وأن مقتل عثمان لم يغضبه ولم يسخطه، وربما أرضاه، فلم يكن بداً من أن ينضم عمرو إلى على أو إلى الزبير وطلحة (لا ينبغي التفكير فى انضمامه إلى الذين اعتزلوا الحركة السياسية كسعد بن أبى وقاص؛ لأن الرجل كان رجل عمل ومطامع) ولكنه كان من المهارة السياسية، بحيث لم يشك لحظة فى أن أمر الزبير منحل، ولكنه لم ينضم إلى هذا الفريق أو ذلك الحزب، لأنه كان لا يرجو خيراً من دولة على، لأن علياً كان لا يريد إلا أن يحمل الناس على رأى نفسه، مدلاً بنفسه فى كل شئ، غير معول على غيره فى رأى أو علم أو عمل، وأنه لا يرجى منه أن يسير بسيرة أبى بكر وعمر - تلك السيرة التى كان عمادها الشورى فى كل أمر - وأن أمثال عمرو لا يمكن أن يعتمد عليهم فى عمل أو يستعين بهم فى سلطانه، فهو يائس من خيره، ولأن عمراً

كان قرشياً وكان ميل قريش إلى خلافة هاشمية قليلاً جداً، ولأنه رأى أن القوة التي على رأسها عائشة وطلحة والزبير كانت من الضعف بحيث لا تقوى على أن تغلب على بن أبي طالب على أمره، أو تفوز بأرجاع الحال إلى ما كانت عليه في عهد أبي بكر، وقد ظهر له بعد قليل أن هذا الحزب قد انهزم، فقتل طلحة والزبير وأسرت عائشة.

وهنا غير عمرو بن العاص سياسته دفعة واحدة، وأصبح في حزب عثمان، لأنه كان كما لا يخفى من أشد الناس دهاء، وكان لا يعمل عملاً إلا إذا تأكد من نجاحه، يدلك على ذلك أنه لم يسلم إلا بعد أن ظهر له ظهوراً بيناً أن محمداً صلى الله عليه وسلم سوف ينتصر، وما كان ذهابه إلى الحبشة إلا ليرى ما يكون من أمر محمد وقريش؛ فإن كانت الغلبة لقريش كان على أولى أمره مع رسول الله، ولم يكن قد خذل قريشاً بالعودة عن نصرتها، ولكنه أسلم ودخل في الإسلام لما رأى أن أمر النبي عليه السلام ظاهر على قريش لا محالة؛ كذلك كان حاله في هذا الظرف، فتبين له بثاقب رأيه ويعد نظره أن هذه الثورة لن تنتهي إلا بحدوث انقلاب في حالة الأمة العربية، ولم يكن عمرو بالرجل الساكن الذي يلتزم الحيدة في مثل ذلك الظروف، بل لابد من دخوله في هذه الاضطرابات، وأن يكون له ضلع فيها، عسى أن يناله من وراء ذلك ما كان يؤمل منذ زمن طويل، لأنه كان طموحاً إلى العلا.

انتظر عمرو يرقب الأمور على بعد، فرأى أن معاوية بن أبي سفيان لم يكن ليستكين لما يريد به على، ولا يستخذي لما يتوقع أن يحقق به من مكروه، وكان على ذكر من قديم الأحقاد بين البيتتين، ولم ينس معاوية أن علياً قاتل أخيه ومقارع أبيه في مواطن كثيرة أيام الجاهلية، وهو قريب عثمان؛ فاستعان عمرًا وتعاقدا على النصيح والنصرة، ومعلوم أن المصائب تؤلف بين المصابين والمطامع تؤلف بين الطامعين، وكان ذلك ما يتمناه عمرو، فأنجح لهما الدهاء أن يطوقا علياً

إثم دم عثمان، ليكون لهما بذلك الحجة فى مناوآته - فكأن مقتل عثمان الذى اشتهر عمرو بالتأليب عليه مصدر سياسة عمرو والتزامه هذه الخطة: خطة المطالبة بدم عثمان.

ولكن الذى يعرف شدة دهاء عمرو لا يعجب لالتزامه هذه السياسة، لأن العمل مع معاوية أرجى للعافية، وأحرى أن يلبسه ملابس العز، وقد وجد من قتل عثمان مسوغاً لأن تروج دعوى معاوية، فظاھرہ على أمره. والرجلان (عمرو ومعاوية) لا يعتقدان فى على أنه يريد فى خلافته العمل بما يوجب المثوبة عند الله تعالى، وإنما يريد أن يحكم الأحقاد والميول، وقد أعانهما على نفسه باستبطانه قتلة عثمان واتخاذهم أعواناً.

ب - عمرو وموقعة صفين

كان معاوية بن أبي سفيان أعظم قرابة عثمان شأنًا، وقد ولاه الشام عمر وعثمان فنال رضاهما، وسار سيرة مرضية، فملك أفئدة الأهلين بحسن سياسته، وأصبح جند الشام رهن إشارته يأتَمرون بأمره وينتهون بنهيهِ.

فلا عجب إذاً إذا أبى معاوية الأئمان للعزل أو الرضى بمبايعة علىّ وشدد فى المطالبة بدم عثمان.

وكان معاوية رأساً لحزب بنى أمية، الذى كان يطالب بدم عثمان، والذى كان يرمى فى حقيقة الأمر منذ أيام عثمان إلى الاستئثار بالسلطان. ومع هذا فهذا الحزب لم يجهر بشئ من هذه الأطماع، وإنما انتحل أعذاراً ظاهرة تسخف له أن يقف من علىّ موقف المحارب، أضف إلى هذا أن العداء بين بنى هاشم وبنى أمية قديم فى الجاهلية، وأن الإسلام زاد هذا العداء، فإن بنى حرب لم ينسوا ما كان من حمزة وما كان من علىّ، كما أن بنى هاشم لم ينسوا ما كان من هند يوم أحد، والعداء بين بنى هاشم وبين أبى سفيان معروف باقى الأثر. وهذه الأعذار التى انتحلها معاوية هى:

١ - أن معاوية كان يتهم علىّ بشئ من أمر عثمان.

٢ - ولأن علىّ أوى قتلة عثمان.

٣ - ولأنه كان بين الرجلين نفور أدى إلى أن علىّ رأى من أول واجباته عزل معاوية عن الشام - وليس ذلك من السهل على رجل اعتاد الإمارة والعزة.

وبعد انتصار علىّ بن أبى طالب فى يوم الجمل توجه إلى الكوفة

وجه جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية يدعوه إلى بيعته، وزوده بكتاب يعلمه فيه اجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته، ونكث طلحة والزبير وما كان من أمرهما، ويدعوه إلى الدخول في طاعته. فمأطله معاوية واستنظره، وكتب إلى عمرو بن العاص: أما بعد فإنه كان من أمر عليّ وطلحة والزبير ما قد بلغك، فقد قدم عليّ جرير بن عبد الله فيبيعة عليّ وحبست نفسي عليك حتى تأتيني فاقدم عليّ بركة الله تعالى. (اليعقوبي جـ ١ ص ٣١٥).

فلما وصل الكتاب إلى عمرو دعا ابنه عبد الله ومحمداً، واستشارهما في هذا الأمر، فقال له عبد الله: أيها الشيخ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض وهو عنك راض، ومات أبو بكر وعمر وهما عنك راضيان، فلا تفسد دينك بدنيا يسيرة تصيبها مع معاوية، وقال له محمد: بادر إلى هذا الأمر فكن فيه رأساً قبل أن تكون ذنباً. قالوا: فأنشأ عمرو يقول:

تطاول ليلى للنجوم الطوارق	وخوف التي تجلو وجوه العواتق
فأن ابن هند سألني أن أزوره	وتلك التي فيها بنات البوائق
وقد قال عبيد الله قولاً تعلق	به النفس إن لم يعتقلني عوائق
وخالفه فيه أخوه محمد	وإني لصلب العود عند الحقائق

ولما قدم عمرو على معاوية أشار عليه أن يلزم علياً دم عثمان، وأن يحاربه بجند الشام إذا أبى^(١).

١ - هذا ما ذكره الطبري، وهو يخالف ما ذكره اليعقوبي من أن عمرأ أشار على معاوية بأن لا يذكر عثمان لأن معاوية خذله، وأما عمرو فقد تركه عياناً وذهب إلى فلسطين.

قال اليعقوبى: قال معاوية: مدّ يدك فبايعنى. فقال عمرو: لا لعمر الله لا أعطيك دينى حتى أخذ من دنياك. فقال له معاوية: لك مصر طعمة، وطلب من عمرو أن يبيت عنده ليلته مخافة أن يفسد عليه الناس ففعل، وقال عمرو:

معاوى لا أعطيك دينى ولم أنل به منك دنيا فأنظرن كيف تصنع
فإن تعطنى مصرًا فأربح بصفقة أخذت بها شيخًا يضر وينفع

ويظهر أن هذه الأبيات والتى قبلها، وما يقال من أمثال هذا الكلام نثرًا، مصنوع من خصوم عمرو ومعاوية، ليظهروهما بمظهر المكابر للحق. الراغب فى الدنيا ومتاعها. المستسهل للجور. العامل على الدفع فى صدر الحق نظير متاع قليل.

فكتب له معاوية بمصر شرطًا، وختم الشرط بعد أن بايعه عمرو وتعاهدا على الوفاء (اليعقوبى ج ١ ص ٢١٦).

رجع جرير إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وأخبره بحال معاوية، وأنه قد أصر على أن يقاتله بجند الشام الذى هالهم قتل عثمان، فبكوا واستبكوا حين رأوا قميصه الذى قتل فيه مخضبًا بدمه وإليه أصبح زوجه نائلة وكانت معلقة فيه.

وضع معاوية الثوب على المنبر، وكتب بالخبر إلى الأجناد، فألوا على أنفسهم أن لا يهدأ بالهم حتى يأخذوا بثأر عثمان، ولو فنيت أرواحهم على بكرة أبيهم، وأجمعوا على قتال على اعتقادًا منهم أنه هو الذى قتل عثمان وأوى قتلته.

أما مبايعة عمرو لمعاوية حين قدم عليه فشئ لا يمكن تصديقه، لأنه كيف يعقل أن يبايعه بالخلافة فى مبدأ الأمر، وجو السياسة لا يزال

مكفهرًا، وعلىّ قد أحرز النصر المبين فى واقعة الجمل، وعزم على الزحف على الشام لانتزاعها من معاوية، ولم تخف على عمرو أحقية علىّ بالخلافة بعد عثمان وشجاعته فى الطعن والنزال. فهل يتوهم متوهم أن السذاجة قد بلغت بعمره أن يكون أول من يبايع معاوية، وحالة الأمة السياسية فى ذلك الطرف المقلق لم تكن لتخفى عليه؟ والظاهر أن هذه المبايعة التى زعمها المؤرخون ليست إلا تحالفًا واتحادًا على التعاون، فإن معاوية كان يهمله كثيرًا أن تكون مبايعة عمره له علانية أمام وجوه أهل الشام وغيرهم ممن ينتصرون له، ليكون لهم قدوة فى البيعة، وهذا ما لم يقله أحد من المؤرخين فيما وقفنا عليه من كتب التاريخ، فلم يذكروا فى أى مكان وقعت بيعة عمرو لمعاوية، وأمام أى ملا من الناس، بل تركوا هذه النقطة مبهمة غامضة مع أهميتها.

بلغ عليًا أن معاوية قد استعد للقتال ومعه أهل الشام، فسار من الكوفة إلى صفين فى تسعين ألفًا لخمس بقين من شوال سنة ٣٦هـ، وسار معاوية من الشام فى خمسة وثمانين ألفًا على مارواه المسعودى، وعسكر فى موضع سهل على الفرات، وبات علىّ وجيشه فى البر عطاشًا قد حيل بينهم وبين الورد إلى الماء، فقال عمرو بن العاص لمعاوية: إن عليًا لا يموت عطشًا هو وتسعون ألفًا وسيوفهم على عواتقهم فدعهم يشربون ونشرب. فقال معاوية: لا والله أو يموتوا عطشًا كما مات عثمان، فقال أحد جنود عليّ.

أيمنعنا القوم ماء الفرات	وفينا الرماح وفينا الجحف
وفينا علىّ له صولة	إذا خوفوه الردى لم يخف
ونحن غداة لقينا الزبير	وطلحة خضنا غمار التلف
فما بالنا أمس أسد العرين	وما بالنا اليوم شاة النجف

فندب إليهم علىّ قوماً فأجلوا رجال معاوية عن الماء، فأرسل إليهم معاوية يستأذنه في وروده فأذن لهم! وبعد يومين من نزول علىّ على هذا الموضع بعث إلى معاوية يدعوهُ إلى اتحاد الكلمة، والدخول في جماعة المسلمين، وطالت المراسلة بينهما فاتفقا على المودعة إلى آخر المحرم سنة ٣٧هـ، ولم يتفقا في غضون هذه المدة على شيء، ودارت رحى الحرب بينهما من جديد^(١).

ومن أطلع على ما كان من أمر سفراء علىّ واشتدادهم على معاوية، وكذا اشتداد سفراء معاوية على علىّ، لا يسعه إلا أن يحكم بأن عدم نجاح هؤلاء المندوبين كان راجعاً لقلّة خبرتهم بالسياسة، وشدة ميلهم إلى الحرب، مما أفسد القلوب وزاد الفرقة. والذي يظهر من رواية الطبري أن رسل علىّ إلى معاوية كان فيهم غطرسة، فكانت كلمات الشر والتفريق والتغالي تبدر من ألسنتهم، ولم يكونوا ليصلحوا رسل صلح، فكان معاوية يسئ الرد عليهم - والظاهر أن القوم قد ثملوا بالانتصار على أهل الجمل بالبصرة، فظنوا أن ينالوا من جيش معاوية ما نالوا من جيش عائشة.

ولما انقضى المحرم أعادوا القتال سيرته الأولى، فلما كان اليوم الأول من صفر سنة ٣٧ للهجرة، ابتدأت الحرب من غير أن يقف كل الجمعين وجهاً لوجه، بل كان كل يوم يخرج قائد من هنا وقائد من هنا حتى إذا مضت سبعة أيام قال علىّ لجنده: حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بجمعنا؟ فباتوا يصلحون أمرهم، وفي ذلك يقول الشاعر:

أصبحت الأمة في أمر عجب والأمر مجموع غداً لمن غلب
فقلت قولاً صادقاً غير كذب إن غداً تهلك أعلام العرب

١ - الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج ١ ص ١٧٢)، ومروج الذهب للمسعودي (ج ٢ ص ١٤ - ١٥) بتصرف.

واشتعلت نار الحرب بين الفريقين أياماً متوالية حتى كان اليوم الذى قتل فيه عمار بن ياسر، فاشتدت الحرب بعد مقتله، وزحف أصحاب على، وظهروا على جند معاوية حتى الصقوهم بعسكره، وأشرف على الفتح، فدعا معاوية بفرسه ونادى أهل الشام: الله الله فى الحرمات والنساء والبنات، وقال معاوية «هلم مخابراتك يا ابن العاص فقد هلكنا» غير أن عمرو بن العاص عمد بما أوتي من فنون الدهاء إلى تغيير الحال رأساً على عقب، وتحويل النصر إلى جانب معاوية، وإن ذكرى موقعة صفين لا تزال ترجف لاسمه هيبة، فبعد أن كادت الدائرة تدور عليه لم يثن ذلك من عزيمة عمرو، وسرعان ما ابتكر من ضروب الحيل ما أوقع بجند على فأنقسموا على أنفسهم، وغلبوا على أمرهم. حيث قال عمرو «أيها الناس من كان معه مصحف فليرفعه على رمح» فرفعوا المصاحف وقال قائلهم «هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم» فلما رأى أهل العراق المصاحف مرفوعة قالوا «نجيب إلى كتاب الله» وإنما رمى عمرو بحيلته هذه التى هدت عزائم الجحافل، وبددت آمال على ما نرى إلى أمرين:

الأول: أن يكسر من حدة جند على وحميتهم، وكانوا قاب قوسين أو أدنى من الانتصار.

الثانى: أن يفرق بينهم، ويفت فى عضدهم فيكفوا عن قتالهم.

رغب أهل العراق فى المهادنة، فنصح لهم على أن لا يغتروا بقول أصحاب معاوية، لأنه ليس إلا خديعة، فأبوا وطلبوا منه أن يبعث إلى الأشر لىترك القتال، فأرسل إليه فقال الأشر للرسول «ليس هذه الساعة التى ينبغى أن تزيلنى فيها عن موضعى، قد رجوت أن يفتح لى فيها فلا تعجلنى» فرجع الرسول بالخبر فما انتهى إليه حتى ارتفع

الرهج وعلت الأصوات من قبل الأشتري فقال له القوم «والله ما نراك إلا أمرته أن يقاتل إبعث إليه فليأتك وإلا والله اعتزلناك» .

فقال عليّ للرسول «ويحك قل للأشتري أن يقبل فإن الفتنة قد وقعت» فلم يسعه إلا المجئ وترك ساحة الحرب. ثم أرسل عليّ الأشعث بن قيس ليسأل معاوية عما يريد ففقال له معاوية «نرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله في كتابه، تبعثون منكم رجلاً ترضونه وتبعث منا رجلاً، ثم نأخذ عليهما أن يعملأ بما في كتاب الله» ثم رجع الأشعث إلى عليّ فأخبره. فقال الناس رضيأنا وقبلنا.

فاختار أهل الشام عمرو بن العاص، وقال أهل العراق: قد رضيأنا أبا موسى الأشعري. فقال عليّ «قد عصيتموني في أول الأمر فلا تعصوني الآن» وبين لهم تخوفه من أبي موسى لأنه كان يخذل الناس عنه، فأبوا إلا إياه، فاضطر للسير على ما رأوا وهو مكره^(١). وكان من نتائج هذه السياسة ما سنفصله.

١ - انظر اليعقوبى (حرا ص ٢١٨ - ٢١٩) ، والمسعودى (ج ٢ ص ٢٠ إلى ٢٢) ، والإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج ١ ص ٢٨٧) .

ج - عمرو والتحكيم

١ - عقد التحكيم:

اجتمع عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري بدومة الجندل حيث كتبوا عقد التحكيم في شهر صفر سنة ٣٧هـ. وهذه صورة الكتاب منقولة عن الطبري (ج ١ ص ٣٣ - ٣٤).

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تقاضى عليه على بن أبى طالب ومعاوية ابن أبى سفيان، قاضى على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم من المؤمنين والمسلمين، إنا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه، ولا يجمع بيننا غيره، وإن كتاب الله عز وجل بيننا من فاتحته إلى خاتمته، نحى ما أحيا ونميت ما أمات، فما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل، وهما أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس، وعمرو بن العاص القرشي عملا به، ومالم يجدا في كتاب الله عز وجل فالسنة الجامعة غير المفرقة: وأخذ الحكمان من على ومعاوية ومن الجندين من العهود والمواثيق والثقة من الناس أنهما أمانان على أنفسهما وأهلتهما والأمة لهما انصار على الذى يتقاضيان عليه. وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كليتهما عهد الله وميثاقه أنا على ما فى هذه الصحيفة، وأن قد وجبت قضيتهما على المؤمنين، فإن الأمن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهلهم وأموالهم وشاهدتهم وغائبهم. وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ولا يرداها فى حرب ولا فرقة حتى يعصيا، وأجل القضاء إلى رمضان، وإن أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه على تراض منهما، وإن توفى أحد الحكمين فإن أمير الشيعة يختار مكانه، ولا يألوا من أهل

المعدلة والقسط، وأن مكان قضيتهما الذى يتقاضيان فيه مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام، وإن رضى وأحبا فلا حضرهما فيه إلا من أرادا، ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود، ثم يكتبان شهادتهما على ما فى هذه الصحيفة، وهم أنصار على من ترك ما فى هذه الصحيفة وأراد فيه إلحاداً وظلماً، اللهم إنا نستنصرك على من ترك ما فى هذه الصحيفة. آم.

ويلى ذلك أسماء الشهود من الطرفين - ١٥ صفر سنة ٣٧هـ.

٢ - اجتماع الحكمين (عمرو وأبو موسى) ونتائج التحكيم:

لم ينته بعد الدور الذى لعبه عمرو بن العاص فى موقعة صفين، فلم يكن بد من تنفيذ الخطة التى رسمها له دهاؤه المعروف بعزل على بن أبى طالب، وتشبيت معاوية بن أبى سفيان. وليس من شك فى أنه قضى وقته فى ابتكار ضروب الحيل للإيقاع بأبى موسى، والوصول إلى غايته، حتى إذا ما حان اجتماع الحكمين بعث على بن أبى طالب أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانئ الحارثى، وعبد الله بن العباس يصلى بهم ويلى أمورهم، وأبو موسى الأشعرى معهم، وبعث معاوية بن أبى سفيان عمرو بن العاص فى أربعمائة من أهل الشام فتوافوا بدومة الجندل. وقد ذكر المسعودى أنه لما دنا وفد على من موضع الاجتماع قال عبد الله بن العباس لأبى موسى «إن عليك أن يرض بك حكماً لفضل غيرك، والمتقدمون عليك كثيرون، وإن الناس أبوا غيرك، وإنى لأظن ذلك لشرياد بهم، وقد ضم داهية العرب معك، إن نسيت فلا تنس أن عليك بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، وليس فيه خصلة تباعده من الخلافة؛ وليس فى معاوية خصلة تقريه من الخلافة» ووصى معاوية عمرًا فقال «يا أبا عبد الله: إن أهل العراق قد أكرهوا عليك على أبى موسى وأنا وأهل الشام راضون بك، وقد ضم إليك رجل طويل اللسان قصير

الرأى، فأخذ الجد ولا تلقه برأيك كله، ووافى عمرًا سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر والمغيرة بن شعبة وغيرهم من جلة الصحابة الذين تخلفوا عن مبايعة على ولم يغمسوا أيديهم فى الفتنة.

وإننا نقف مما ذكره المسعودى على أربعة أمور:

١ - إن عليًا أكره على اختيار أبى موسى، فلم يثق به، لأنه فارقه وخذل الناس عنه وفعل أشياء سنذكرها فى محلها، أما معاوية وأهل الشام فكانوا راضين بعمره.

٢ - لم يكن أبو موسى بالرجل الذى يقف أمام داهية العرب (عمره) هذا الموقف الذى يحتاج إلى الحنكة فى السياسة وابتكار ضروب المكر والدهاء أكثر مما يحتاج إلى استقصاء مسائل الدين.

٣ - إنه قد تخلف عن مبايعة على كثيرون من جلة الصحابة، من أمثال عبد الله بن عمر وسعد بن أبى وقاص والمغيرة بن شعبة داهية السياسة، وأمثال هؤلاء الرجال لا يستهان بهم.

٤ - إن ما قاله عبد الله بن العباس لأبى موسى لم يكن من شأنه أن يرضيه، ولا أن يبعثه على الإخلاص والشدة فى نصر على.

اجتمع الحكماء فى شهر رمضان سنة ٣٧هـ، وفى هذا اليوم المشهود تجلى دهاء عمرو بأجلى مظاهره، وظهرت للملأ مقدرة هذا الرجل السياسية، وما أوتيته من حذق وذكاء، يؤيد ذلك ما نذكره مما دار بينه وبين أبى موسى من أطراف الحديث، وكيف استدرجه حتى وافقه أبو موسى على خلع على، وكيف أثبت موكله معاوية بن أبى سفيان. قال المسعودى فى «مروج الذهب»، قال عمرو: يا أبا موسى رأيت أول ما نقضى به من الحق أن نقضى لأهل الوفاء بوفائهم، وعلى أهل الغدر بغدرهم (ومن هنا نعلم لمن يريد أن يقضى عمرو)، فحمد الله أبو

موسى واثنى عليه، وذكر الحدث الذى حلّ بالإسلام والخلاف الواقع بأهله ثم قال: يا عمرو هلم إلى امر يجمع الله فيه الألفه ويلم الشعث ويصلح ذات البين، فجزاه عمرو خيراً وقال: إن للكلام أولاً وآخرًا، ومتى تنازعنا الكلام خطباً لم نبلغ آخره حتى ننسى أوله، فاجعل ما كان من كلام نتصاير عليه فى كتاب يصير إليه أمرنا. فقال أبو موسى: فاكتب. فدعا عمرو بصحيفة وكاتب، وكان الكاتب غلاماً لعمرو، فتقدم إليه ليبسدا به أولاً دون أبى موسى لما أراد من المكر به ثم قال له بحضرة الجماعة: اكتب فأنتك شاهد علينا، ولا تكتب شيئاً يأمرك به، أهدنا حتى يستأمر الآخر فيه، فإذا أمرك فاكتب، وإذا نهاك فانتبه حتى يجتمع رأينا. اكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تقاضى عليه عبد الله بن قيس وعمرو ابن العاص، تقاضيا على أنهما يشهدان أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (ثم قال عمرو) نشهد أن أبا بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، عمل بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قبضه الله إليه، وقد أدى الحق الذى عليه (قال أبو موسى «اكتب») ثم قال فى عمر مثل ذلك (ثم قال عمرو «اكتب») وأن عثمان ولى هذا الأمر بعد عمر على إجماع من المسلمين وشورى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى منهم، وأنه كان مؤمناً (فقال أبو موسى «ليس هذا والله مما قعدنا له»). قال عمرو: والله لا بد من أن يكون مؤمناً أو كافراً. قال أبو موسى: اكتب. قال عمرو: فظالماً قُتل أو مظلوماً؟ قال أبو موسى: بل قتل مظلوماً. قال عمرو: أفليس قد جعل الله لولى المظلوم سلطاناً يطلب بدمه؟ قال أبو موسى: نعم. قال عمرو: فهل تعلم لعثمان ولياً أولى من معاوية؟ قال أبو موسى: لا. قال عمرو: أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتى

يقتله أو يعجز عنه؟ قال أبو موسى: بلى. فقال عمرو للكتاب: اكتب. وأمره أبو موسى فكتب. قال عمرو: فأنا نقيم البيعة على أن علياً قتل عثمان. قال أبو موسى: هذا أمر حدث في الإسلام وإنما اجتمعنا لله فهل إلى أمر يصلح الله به أمة محمد. قال عمرو: وما هو؟ قال أبو موسى: قد علمت أن أهل العراق لا يحبون معاوية أبداً وأن أهل الشام لا يحبون علياً أبداً، فهل نخلعهما جميعاً ونستخلف عبد الله بن عمر؟ فعمد عمرو إلى كل ما قاله أبو موسى فصوّبه وعدّه له جماعة وأبو موسى يأبى ذلك إلا ابن عمر، فأخذ عمرو الصحيفة وطواها بعد أن ختماها جميعاً. أهـ.

ويظهر للمتأمل فيما كتب في هذه الصحيفة التي وافق أبو موسى على كل ما شملته وإقراره بأن عثمان قتل مظلوماً، وأن لمعاوية الحق في أن يطلب بدمه المسفوك، وأن علياً قتله بدليل إيوائه قتلته (ولو أن إيوائه لهم ليس دليلاً قطعياً بأنه هو قاتله، ولكن إلى أبعد من هذا ذهب أعداؤه) بحيث أن من أراد أن يبدي رأيه فيما يقف عليه مما دون بهذه الصحيفة بحسب ما نرى، يكون ارتياحه في على أكثر منه في معاوية، وما ذلك إلا من جراء تفوق عمرو على نظيره في ذلك الاجتماع التاريخي الهام تفوقاً جعله يقرّ بكل ما كان يرمى إليه عمرو، حتى تمكن هذا من تنفيذ غرضه، والوصول إلى غايته، وهي خلع على بن أبي طالب، وتشبيت معاوية بن أبي سفيان... ولا يفوتنا أن عمراً إنما أراد أن يقدم أبا موسى عليه في الكلام ليكون الخلع من جانبه أولاً، ثم يكون لعمرو الخيار في أن يخلعهما معاً أو يخلع علياً ويثبت معاوية كما سيأتى:

قال الطبري: قال عمرو: (بعد أن عدداً أسماء كثيرين من الصحابة لتولية الخلافة وأبى الفريقان): ما رأيك؟ قال أبو موسى: رأيي أن نخلع هذين الرجلين، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين، فيختارون

لأنفسهم من أحبوا. فقال له عمرو: إن الرأي ما رأيته وقال: يا أبا موسى أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق. فتكلم أبو موسى: إن رأيي ورأي عمرو قد اتفق على أمر نرجوا أن يصلح الله عز وجل به أمر هذه الأمة. فقال عمرو: صدق، تقدم يا أبا موسى فتكلم. فتقدم أبو موسى ثم قال: أيها الناس، إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولم شعئها من أمر قد أجمع رأيي ورأيه عليه، وهو أن نخلع علياً ومعاوية فتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم، وأنى قد خلعت علياً ومعاوية، فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً. ثم أقبل عمرو بن العاص فقام مقامه فحمد الله وأثنى عليه وقال: إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه، وأثبت صاحبي معاوية، فإنه ولي عثمان بن عفان رضى الله عنه، والطالب بدمه، وأحق الناس بمقامه، فتناجزا، وركب أبو موسى راحلته ولحق بمكة، ثم انصرف أهل الشام إلى معاوية وسلموا عليه بالخلافة^(١).

ونحن نشك في هذا ونميل إلى ما قاله المسعودي وهو (جـ ١ ص ٢٧) إنه لم يكن بين الحكمين غير ما كتب في الصحيفة، وإقرار أبي موسى بأن عثمان قتل مظلوماً وغير ذلك، وأنهما لم يخطبا وإنما كتبا صحيفة فيها خلع على معاوية، وأن يولى المسلمون من أحبوا.

وهذا تظهر قيمة عمرو السياسية، فإنه لم يكن يرمى مباشرة إلى استخلاف معاوية، لأنه كان يعلم أن هذا أمر لا ينال إلا بالسيف، وإنما كان يرمى:

١ - روى الطبري أن عبداً بن العباس قال لأبي موسى حين أراد عمرو أن يتقدمه أبو موسى: ويحك إني والله لأظن عمر قد خدعك. إن كنتما قد اتفقتما على أمر فقدمه فليتكلم بذلك الأمر قبلك، ثم تتكلم أنت بعده فإن عمر رجلاً غادر ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضى فيما بينك وبينه، فإذا قمت في الناس خالفك.

أولاً : إلى أن يكسب له منالوقت ما يمكنه من جمع جيشه وتقويته ولمّ شعثه، وكان يعلم أن جيش عليّ متخاذل، وقد وفّق في هذا كله فتخاذل جيش عليّ. وليس أدل على ذلك من خروج الخوارج، ومن عجز عليّ بعد انقضاء الهدنة عن تسريع جيش لقتال معاوية.

ثانياً : وكان يرمى عمرو إلى أن يسوّى بين عليّ ومعاوية بأن يجرد علياً من صفة الخلافة التي كان يدّعيها، وقد وصل إلى ذلك باتفاقه مع أبي موسى على خلع الرجلين وجعل الأمر شورى بين المسلمين. ولم يكن عمرو يشك في أن علياً لن يقبل هذا الحكم، وفي أن أهل العراق لن يقبلوه أيضاً، ولكنه كان يشك في أنه سيكسب طائفة القراء والمتورعين، وربما كسب الصحابة الذين اعتزلوه، وليس هذا بالشئ القليل.

وعلى كل حال فاستخلاف معاوية بن أبي سفيان توقف بلا ريب على ما كان بين عمرو وأبي موسى من اليون الشاسع في المقدرة السياسية ودرجة إخلاص كل منهما، وما أوتيهم عمرو من المكر والدهاء والمكيدة التي اشتهر بها لدى العرب كافة.

أما من حيث إخلاص كل من الرجلين وتفانيهما في نصرة صاحبيهما.. عمرو بن العاص قد اختاره معاوية لاعتقاده بمقدرته وحنكته في تذليل أمثال هذه الصعوبة، ورضى به أهل الشام عن طيبة خاطر، وأكرهه عليّ على اختيار أبي موسى، ولم يكن ليرضى به حكماً لأسباب منها:

أولاً: لأنه كان يعلم علم اليقين أن مثل أبي موسى لا يقوى على مناظرة داهية العرب، وأنه مغلوب على أمره لا محالة، ذلك لأن أبا

موسى رجل دينى لم يذق للسياسية طعمًا، وهذه المسألة فضلاً عن كونها دينية بحته، إلا أنها تحتاج إلى الحنكة والدراية بالأمور السياسية أكثر مما تحتاج إلى الإلمام والتعمق فى أصول الدين، فكانت النتيجة خذلانه وتفوق عمرو عليه^(١).

ثانياً : كذلك لم يكن على ليرضى بأبى موسى حكماً لأنه ليس بثقة، فقد فارقه وخذل الناس عنه حين جاءه أهل الكوفة يستشيرونه فى الخروج مع على فقال لهم: أما سبيل الآخرة، فأن تقيموا وأما سبيل الدنيا فأن تخرجوا. وقال: أما والله إنبيعة عثمان رضى الله عنه فى عنقى، فإن لم يكن بد من قتال لا نقاتل أحداً حتى يفرغ من قتلة عثمان إلا قتلوا حيث كانوا. وأبو موسى رجل يكره الفتن كما يظهر من قوله لأهل الكوفة: ولا تكلفوا الدخول فى هذا. فأنها فتنة صماء النائم فيها خير من اليقظان، واليقظان فيها خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الراكب، فكونوا جرثومة من جراثيم العرب فاغمدوا السيوف، وانصلوا الأسنة، واقطعوا الأوتار وأووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلي هذه الفتنة - وغير ذلك من الأقوال التى تثبط الهمم وتضعف العزائم. ويظهر أن تثبيط أبى موسى الناس عن على كان لتوهمه إيواه قتلة عثمان، فكان يرى ضرورة قتل هؤلاء النفر ووجوب قتالهم شرعاً، كما يتبين من إحدى خطبه من قوله: فثبطوا أيها الناس، واجلسوا فى بيوتكم إلا عن قتلة عثمان بن عفان رضى الله عنه.

١ - وفى ذلك يقول عبد الله بن عباس:

أبا موسى بليت وكنت شيخاً	قريب العفو مخزون اللسان
وما عمرو وصفاتك بأبن قيس	فيا الله من شيخ يمانى
فأمسيت العشية ذا اعتذار	ضعيف الركن منكوب العنان
تعض الكف من ندم ومما إذا	يرد عليك عـضك لـلـينان

وكانت نتيجة توقف أبى موسى عن استنفار الناس للجهاد أن غضب عليه على بن أبى طالب فعزله «مذموماً مدحوراً» كما جاء فى كتاب العزل.

ومما ذكرنا يعلم أن الرجلين مختلفان فى المبدأ، فعلى يرى أن أبى موسى قد خانته، وهذا يرى أن علياً لا يجوز نصره إلا بعد أن قتل قتلة عثمان. وما دامت الصلة بينهما على هذه الحال فأى حكيم عاقل يتصور أن يكون أبو موسى الذى طالما ثبط الهمم بالأمس عن مساعدة على ظهيراً له اليوم مع ما يضمره كل من الرجلين من الحقد والكراهية للآخر؟ سيما أن أبى موسى يرى أن عبد الله بن عمر أليق بالخلافة، وما دام هذا رآيه فلا ينتظر منه غلباً عليها.

هذه كانت ميول أبى موسى نحو على، وتلك كانت علاقته به، وليس الأمر كذلك بين عمرو ومعاوية، فعمر و يميل إلى معاوية ويحب تأييده وتثبيت خلافته، ويتفق معه فى الغرض الذى كان يرمى إليه، وهو المطالبة بدم عثمان، وهو مع ذلك رجل عرف الدنيا وحنكته التجارب فلا يهمله إلا الوصول إلى مقصوده مهما استعمل فى سبيل ذلك من الخدع وابتكر من ضروب الحيل - ومثل هذين لا يتفقان. ولا أدل على تقدير كل من الرجلين وما ينتظر أن يكون من أمرهما من قوله معاوية لعمر و «وأنا وأهل الشام راضون بك، وقد ضم إليك رجل طويل اللسان قصير الرأى» وقول عبد الله بن العباس لأبى موسى «إن علياً لم يرض بك حكماً، وقد ضم داهية العرب معك».

على أن المؤرخين يظلمون أبى موسى حين يرمونه بالغفلة وقصور الرأى، وأما نحن فنعتقد أن الرجل قد اختير عن أهل العراق فنصح لهم وصادف أن خالف رآيه رأى على وبني هاشم، فكان هذا مصدر سوء حظه، وليس من شك فى أن رأى أبى موسى كان رأى طائفة عظيمة من معاصرية.

ولم يكن ما قام به عمرو بن العاص من مبايعته معاوية كافياً وحده لتثبيت ملك صاحبه، بل كانت هناك أمور جديدة بالذكر والاعتبار منها:

الأول : اضطراب حالة جند على بن أبي طالب كرم الله وجهه الذى أراد معاودة الكرة على معاوية. ولكن ماذا كان يصنع وقد أصاب جنده خلل واضطراب فاختلقوا على أمرهم، وخرجت من بين صفوفه الخوارج، ولم يكن من شيعته إلا أن تسلل رجالها من معسكرهم فأصبح المعسكر خالياً؟ ولما دخل الكوفة ودعا رؤساءهم ووجوههم وسألهم عن رأيهم فمنهم المعتل ومنهم المكروه، وأقلهم من نشط حيث فضلوا الدعة على تلك الحروب المستطيرة التى كادت تستأصلهم، فكان هو وجنده كما قال أخو هوازن:

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشداً إلا ضحى الغد
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى مكان الهدى أو أننى غير مهتد

الثانى : اتحاد جند معاوية – أما حال أهل الشام مع معاوية فكانت على العكس من ذلك، جند مطيع، وقلوب متحدة وفى هذا كفاية لمن يريد العظام، ولذلك كان شأنه دائماً فى علو.

ولعل كثيراً من جند على إنما تخاذلوا عن نصره بعد ما كان من الحكم، وبعدما اعتقدوا أنهم غير مكلفين نصره، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجهروا بذلك، لأن أنصار على من الثائرين بعثمان كانوا ذوى بأس. وكان من أثر تلك القوة المتحدة التى كانت مع معاوية بن أبى

سفيران أن تمكن هذا من سلخ ما كان تحت سلطان على بن أبى طالب شيئاً فشيئاً حتى فاجأته يد المنون سنة ٤٠ للهجرة.

والذى نراه فى هذه المسألة الدقيقة أنه مع إقرارنا لعمر بن العاص بالدهاء والقدرة على النكاية بعدوه، أنه بعمله هذا لم يصب علىاً وحده، ولا جند المسلمين فحسب، ولكنه أصاب الإسلام، وزاد كلمة المسلمين تفريقاً، فإن عمله هذا هو الذى خلق مذهب التكحيم، وأوجد الخوارج، الذين كانوا أعداء لعلى ومعاوية على السواء. وقد مكث الإسلام يعانى من البلاء بهم شيئاً كثيراً. وكل هذا نتيجة لعمل عمرو - ولم يكن من الصعب عليه أن يجد حلاً لما بين على ومعاوية من أول الأمر تحقن به الدماء وتصان الكرامة، وتجتمع عليه الألفه، ويكون له فخره بين الأمة قاصيها ودانيها على مر الدهور - ونحن نعتقد كل الاعتقاد أنعمرو بن العاص كان قادراً على ذلك لو شاءه، ولكن الرجل كان لا يأمل أن يخال مع على ما يرغب، فجشّم المسلمين الأهوال، وحملهم هو ومعاوية على مركب وعر، ولم يباليا فى سبيل مأربهما بما حملاً عليه الناس. وقد وجد عمرو من قتل عثمان مسوغاً لأن تروج دعوى معاوية، فظاهره على أمره. ولو تريت على كرم الله وجهه وصنع ما تقضى به السياسة من إرضاء المسلمين، وعدم عزل ولاية عثمان وقتل قتلته، لكى يدفع عن نفسه الريب فلا يجد معاوية داعياً قوياً كهذا يبرر رفضه بيعة على، ودعوة أهل الشام لحربه باسم الدين. ولا يمكن أن نعتقد أن معاوية كان بعمله هذا يريد إحقاق الحق، بدليل أنه سكت عن المطالبة بدم عثمان ولم يتتبع بقية قتلته حين أفضت إليه الخلافة، ولم يمده حين كان محصوراً بالمدينة، فكانه كان ينتظر قتله. إلا أنه إنما جعل المطالبة بدمه سبيلاً إلى الخلافة، فلما حصل عليها سكن ثأثره. وما قيل فى معاوية يقال فى عمرو فإنه لما تولى معاوية، كان أول ما طلب منه الاستيلاء على مصر والولاية عليها.

هذا ما نراه أقرب إلى المعقول فيما وقفنا عليه - ورب قائل يقول إن تبعة ما وقع من عمرو يوم صفين وفي يوم التحكيم واقعة عليه لا محالة. فنجيب بأن الذنب ليس ذنبه. بل هو ذنب الذين خالفوا علياً ولم يتبعوا رأيه، وقد كان قاب قوسين أو أدنى من الانتصار - على أن عمراً ذلك الرجل الفذ إنما أراد أن يصل إلى غايته من أى طريق يسلكه مهما استعمل فى سبيل ذلك من الخدع والدهاء التى أمتاز بها على العرب كافة. وقد أدى لصاحبه حق الخدمة، وعمل بما تقضى به صفة الدهاء والسياسة الموصوف بهما، بينما لم يبلغ هذه الصفة أبو موسى الذى كان يرى عدم نصرة على واجباً شرعاً ما دام قتلة عثمان فى صفوفه.

وإن كنا قد أنحينا باللائمة على كل من عمرو ومعاوية لاتباعهما هذه السياسة التى أدت إلى خلع على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وأن تدخلهما كان لأغراض شخصية وأهواء، وأن دهاء عمرو قد ساعد على تحقيق غرضه والوصول إلى غايته، فلا ينبغي أن يعزب عن بالنا أمر على جانب عظيم من الأهمية، وهو أنه نظراً للحالة السياسية التى وصلت إليها الأمة العربية فى ذلك الزمن، كان لابد من حدوث هذا التغيير إما على أيدي عمرو ومعاوية أو على يد غيرهما. وكل ما يقال فى عمرو ومعاوية أن الظروف قد تهيأت لهما فاستفادا منها فوجدوا من قتل عثمان سبيلاً إلى إحداث هذا التغيير الذى حصل فى الواقع من جهتين متباينتين.

الأولى : جهة عربية خاصة: وهى أنه لما تولى عثمان بن عفان الخلافة طمع بنو أمية فى أن يستردوا سلطانهم على قريش، ولو تم لهم ما أرادوا لاستقر سلطانهم على الأمة الإسلامية بأجمعها. وقد تولى منهم عثمان، وولى ذوى قرياه على الأمصار. بحيث لو طال

حياته لنجح بنو أمية فيما كانوا يرمون إيه، وهو انتزاع الخلافة من بنى هاشم وحصرها فى بنى أمية، وكان معاوية كما لا يخفى أقوى بنى أمية فى ذلك العصر، ومعه جند الشام - وهم أقوى أجناد العرب - يأترون بأمره، وينتهون بنهيه، فاتخذهم سلاحاً لتنفيذ أغراضه.

الثانية : جهة عامة : وهى أن العرب بالتقائهم مع الأمم المقهورة سواء أكانت تلك الأمم فارسية أو أمماً خاضعة للحكومة البيزنطية، أخذوا عنهم نظم الحكم، وحاولوا تقليدهم فى الخضوع لنظام ملكى فلم يكن بد حينئذ من أن تتأثر هذه الأمة البدوية بهذه الأمم المتحضرة، كالأمة الرومانية وأهل مصر والشام وغيرها. وبعضهم كانوا يتأثرون بهذا المبدأ ويرغبون فى أن يؤسسوا الحكم الإمبراطورى الذى يلائم الحالة التى أصبحت فيها بلادهم، وقد اتسع ملكهم وكبر سلطانهم، بحيث أصبحت نظم الحكم التى كانت مألوفة فى أيام أبى بكر وعمر غير صالحة لهذه الإمبراطورية الضخمة المتألفة من شعوب مختلفة فى الجنس والعادة والخلق والدين وسائر أنواع الحياة^(١) هذه النظم التى كانت محصورة فى دائرة ضيقة هى مكة والحجاز وبلاد العرب؛ وهذا هو حزب الأرسنقراطية، وهم زعماء الأمة العربية على العموم، وأعظم ممثل لهؤلاء الزعماء هم بنو أمية.

لهذا لم يكن بد إنفا من انقسام العرب إلى قسمين:

١ - لا ينبغى أن يعترض بأن هذه الإمبراطورية كانت عظيمة فى عهد عمر، فإن عمر لم يزد على أن افتتح، وحاول تثبيت الفتى وتنظيمه، ولو قد طالعت حياته لراى هذا التغيير، وربما كان استطاع لرجاجة حلمه، وحسن سياسته أن يطبّ للأمر، وأن يحدث هذا التغيير من غير إخلال بالنظام الاجتماعى الإسلامى. على أن من تفقه التاريخ وتدبر حوادثه لم يشك فى أن قتل عمر نفسه إنما كان مقدمة من مقدمات هذه الثورة التى لم يكن منها بد.

الأول: قسم يدافع عن المذهب الموروث، مذهب الحرية ذى النظام البدوى البسيط كالذى كان فى عهد أبى بكر وعمر - ذلك النظام الذى ما كان يصلح إلا فى أيامهما، لا فى ذلك العصر وقد تطورت الأمة العربية تطورات عديدة ومر بها أدوار سياسية كبيرة.

الثانى: قسم يدافع عن المذهب الجديد، مذهب تأسيس إمبراطورية إسلامية ذات نظام يلائم الحالة التى وصلت إليها الأمة العربية.

والنتيجة الطبيعية لكل ذلك هى:

أولاً: وقوع الحرب

ثانياً: انتصار أصحاب المذهب الجديد الذى يؤيد زعماءه من العرب أهل الشام والفرس، على أصحاب المذهب القديم الذى يميل إليه كثيرون من أهل بلاد العرب، ولا سيما أشد أصحاب النبى عليه السلام تورعاً وحرصاً على السنة الموروثة، كسعد بن أبى وقاص ومحمد بن مسلمة وغيرهما ممن اعتزلوا الفتنة.

وإن التاريخ يعيد نفسه كما يقولون، فقد دخلت الرومان فى نفس هذه التطورات حين امتدت فتوحهم فى آسيا وأفريقية وأوروبا وعظم ملكهم، فقامت الحروب الأهلية التى انتهت بإحلال النظام الإمبراطورى محل النظام الجمهورى القديم.

أما ما كان من أمر عمرو ومعاوية، فقد أفادتتهما هذه الظروف التى خدمت معاوية بقتل عثمان، فتلمس المعين على مناواة على، وتذرع بالباسه جناية عثمان، ووجد عمرو سبيلاً إلى معاونة معاوية لأغراض

بيناهما، فتم التغيير على أيديهما - وذلك لابد من حدوثه - ولو كف عمرو ومعاوية أيديهما عن القيام به لقام به غيرهما من العرب.

هذا ما يمكن أن يقال عن سياسة عمرو مع معاوية، وتدخله في أمور الأمة الإسلامية، التي أفادها من جهة تغيير نظام الحكم القديم إلى الحكم الجديد، الذي كانت الأمة في حاجة طبيعية إليه بمقتضى الحالة السياسية التي وصلت إليها بامتداد فتوحها وبسط سلطانها على أمم مختلفة.

الباب الثالث

{ ولاية عمرو الثانية على مصر }

اعتزل عمرو بن العاص ولاية مصر في خلافة عثمان، فكان لا ينسأها. بل يريد أن يستردها، ويتولى أمرها مرة ثانية، يدلنا على هذا أن أول ما طلبه من معاوية هي «مصر». ومن هنا يستدل على أمرين:

١ - على أنه كان يحب مصر حباً جماً حتى انضم إلى معاوية من أجلها بخلاف ما كنا ننتظر، وتفانى في خدمته ليفوز بأمنيته.

٢ - وعلى أنه كان يكره عثمان كراهة شديدة من حين عزله عن ولاية مصر، وكان بينهما من الملاحاة ما ذكرناه.

انضم عمرو إلى معاوية، ولم يكن يستغنى هذا عن الاهتداء برأيه والعمل بمشورته، فكان ساعده الأيمن وعضده الأقوى، وقد كان من وراء انضمامه لمعاوية ما قدمناه. وكان معاوية قد قوى بنتيجة التحكيم، وبإياعه أهل الشام بالخلافة، فأراد الاستيلاء على مصر، وكانت حالها إذ ذاك مما يضاعف أماله في تحقيق أمنيته في الوصول إلى غايته، ذلك أنه كان بمصر قوم قد ساءهم قتل عثمان، فكتب معاوية إلى مسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج (وكانا قد خالفاً علياً وناوياً محمد بن أبي بكر عامله على مصر) يقويهما ويمنيهما الأمانى الطيبة فكتباً إليه يطلبان المدد، وكانت الفرصة قد سنحت لعمرو بن العاص لاسترداد مصر سنة ٣٨هـ بعد أن غاب عنها زهاء اثنتى عشرة سنة، فجهزه معاوية في ستة آلاف أقبل بهم إلى مصر، حيث انضمت إليه العثمانية، فأقام بهم وكتب إلى محمد بن أبي بكر «أما بعد فتحنى عنى بدمك يا ابن أبى بكر. فأنى لا أحب أن يصيبك منى ظفر، إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك، ورفض أمرك، وتدموا على اتباعك، فهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البطان. فأخرج منها فإنى لك من الناصحين والسلام».

ولما لم يُجد هذا الكتاب نفعا سار عمرو لقتال محمد بن أبي بكر وانتدب كل منهما نحواً من ألفى رجل، فلم يحتمل جند محمد هجمة الجنود الشامية، ولا من مالأهم من جنود مصر، فقتل منهم من قتل وفر الباقيون، واختفى محمد بن أبي بكر فخرج معاوية بن حديج يطلبه حتى ظفر به فقتله - ويقال إنه أحرقه بالنار. وقد قال المقرئ إن الواقعة المذكورة كانت في مدينة يقال لها المنشأة^(١).

ولما تم لعمر والانتصار سار في طريق الفسطاط حتى دخلها واستولى عليها، وكان ذلك في صفر سنة ٣٨ هـ فأقره معاوية والياً عليها، وأعطاه إياها على أن يعطى عطاء الجند وما بقى فله، واستقرت ولاية مصر لعمر بن العاص من جديد، وأصبح له القدر المعلى والسلطان المطلق في إدارة شؤون هذه البلاد، فشمروا عن ساعد الجد في إصلاح ما أفسدته أيدي أسلافه الذين نقم عليهم المصريون، وتاقوا إلى الخلاص من حكمهم، إلا أن أجل هذه الولاية كان قصيراً وسرعان ما قصفته يد المتنون.

١ - وقد ذكرها اليعقوبي المسنة. أما المنشأة فقد ذكرها المرحوم على مبارك باشا في خطه فقال: يوجد من هذا الاسم عدة قرى أكبرها وأشهرها منشأة (أخميم) ثم منشأة (بكار) من مديرية الجيزة ومنشأة (سدود) من مديرية المنوفية ومنشأة (سيوط) ومنشأة (عاصم)؛ وهي قرية من مديرية الدقهلية بمركز دكرنس على الشاطئ الشرقي للبحر الصغير. والظاهر أن الواقعة كانت في هذه القرية وباسمها سميت.

ب - استكثار معاوية أن تكون مصر طعمة لعمر و ونشوء الجفاء بينهما

خشى معاوية خروج عمرو عليه فأراد أن يدفع ما عسى أن يترتب على خروجه من النتائج، فكتب إليه وهو بمصر كتاباً أراد فيه أن يقيد ما بيده من عهد الولاية حتى لا يجد مبرراً للخروج عليه في وقت ما، وبذلك يأمن معاوية خروج عمرو عن طاعته، فأرسل إليه كتاباً ضمنه هذه العبارة: «على أن لا ينقض شرط طاعة»، فأدرك عمرو ما يرمى إليه معاوية، وكتب إليه: «على أن لا تنقض طاعة شرطاً»، فهذا القلب في العبارة قد قلب الحقيقة لصالح عمرو من أن الطاعة لا توجب التخلي عن مصر التي استكثرها معاوية عليه لما استقر له الأمر، فحاول الرجوع على عمرو بمصر، فأصلح بينهما معاوية بن حديج.

ولا يعلم إلا الله ما كان يحدث بين الرجلين من الخطوب والمحن لو تشبث معاوية بتغيير عهده.

وقد روى ابن عساكر أنه لما صار الأمر كله^(١) في يدي معاوية استكثر طعمة مصر لعمر و ما عاش، ورأى عمرو أن الأمر كله قد صلح به ويتدبيره وبعنايته وسعيه فيه، وظن أن معاوية سيزيده الشام على مصر فلم يفعل معاوية، فتنكر له عمرو فاختلفا وتغالظا، وظن الناس أنه لا يجتمع أمرهما، ولكن قبل أن يتفاقم الخطب وتستعر نار الخلاف

١ - ولا يتبادر إلى الذهن من قوله «لما صار الأمر كله في يدي معاوية» أن مصر انتهت إلى معاوية بعد اصطفاء معاوية للخلافة والحسن رضى الله عنهما، بل أخذ عمرو مصر من محمد بن أبي بكر لما كان والياً عليها من قبل على في خلافته قبل وفاته بسنتين.

استعاراً تدخل بعض المسلمين فى الأمر وأصلحوا بين الرجلين (وإن كان هذا الصلح ظاهرياً) على أن يُكتب بينهما كتاب بمثابة ضمان لكل منهما خلاصته:

١ - أن تكون لعمر وولاية مصر سبع سنين.

٢ - وأن على عمرو السمع والطاعة لمعاوية.

وتوافقاً وتعاهداً على ذلك، وأشهدا عليهما به شهوداً، ثم مضى عمرو إلى مصر والياً عليها، وذلك فى أواخر سنة ٣٩هـ فلم يمكث غير ثلاث سنوات تقريباً حتى مات وهو أمير عليها.

وصفوة القول أن المودة والوثام لم يدوما بين عمرو ومعاوية، لأن عمراً كان يود أن تكون له الشام مع مصر، ومعاوية قد استكثر عليه مصر. ومثل هذين الرجلين لا يتفق لهما أمر، فيعلم مما تقدم أنه اتفاق ظاهره المحبة وباطنه يشعر بالدهاء، وأن عمر لم يبايع معاوية حباً به أو مودة له، بل طلباً لمصر ورغبة فى استرجاع ما كان له عليها من سلطان - ولم يكن معاوية أيضاً بأقل بغضاً منه. يدلك عليه ما روى أن معاوية قال يوماً لجلسائه «ما أعجب الأشياء»، فقال يزيد «أعجب الأشياء هذا السحاب الراكد بين السماء والأرض لا يدعمه شئ من تحت ولا هو منوط بشئ من فوقه»

وقال آخر «حظ يناله جاهل وحرمان يناله عاقل» وقال آخر: «أعجب الأشياء ما لم ير مثله» وقال عمرو بن العاص: «أعجب الأشياء أن المبطل يغلب الحق (يعرض بعلى ومعاوية)» فقال معاوية: «بل أعجب الأشياء أن يعطى الإنسان ما لا يستحق إذا كان لا يخاف (يعرض بعمر وومصر التى أخذها له طعمة)».

ج - محاولة قتل عمرو

اجتمع ثلاثة من الخوارج وأجمعوا أمرهم على قتل على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص جميعاً فى يوم واحد هو اليوم السابع عشر من شهر رمضان سنة ٤٠ للهجرة. فأما ابن ملجم فقد قتل علياً كرم الله وجهه، وبوفاته انتهى عهد الخلافة الشرعية، ولم يفز الذى ندب نفسه لقتل معاوية منه بأرب، أما ما كان من أمر عمرو فإن عمرو ابن بكر^(١) الذى عزم على قتله، فأنه جلس له فى الليلة المعهودة فلم يخرج عمرو ابن العاص لمرض ألم به وندب خارجة بن حذافة قاضى مصر أن يصلى بالناس، وبينما هو فى الصلاة ضربته الخارجى بالسيف فقتله يظنه عمراً، ولما علم الخارجى أن المقتول غير عمرو قال: «أردتُ عمراً وأراد الله خارجة» فذهبت مثلاً. ولما وقف الرجل بين يدى عمرو بكى فقليل له «أجزعاً من الموت مع هذا الاقدام؟» فقال: «لا والله ولكن غماً أن يفوز صاحبى بقتل على ومعاوية، ولا أفوز أنا بقتل عمرو» فأمر عمرو بضرب عنقه فضرب وصلب.

ولما بلغ ذلك معاوية بن أبى سفيان كتب إلى عمرو:

وقتل وأسباب المنايا كثيرة	منية شيخ من لؤى بن غالب
فيا عمرو مهلاً إنما أنت عمه	وصاحبه دون الرجال الأقارب
نجوت وقد بل المرادى سيفه	من ابن أبى شيخ الأباطح طالب
ويضربنى بالسيف أحر مثله	فكانت علينا تلك ضربة لازب
وأنت تناغى كل يوم وليلة	بمصر كبيضاً كالظباء السوارب

١ - سماه المسعودى «زادوية عمرو بن بكر».

د - بعض أخبار عمرو ومعاوية

يظهر أن عمرو بن العاص كان فى خلافة معاوية يختلف كثيراً إلى الشام، فكان الخليفة لا يقطع أمراً دون الاستعانة برأيه والعمل بمشورته^(١) وقد عثرنا فى تواريخ الطبرى والمسعودى وأبى المحاسن وغيرها على أخبار عديدة عن عمرو بن العاص رأينا أن نأتى ببعضها علّها تبين ما كان لهذا الرجل من جليل الأعمال وقاضل الصفات، وإن كان التاريخ لم يكشف لنا أعمالاً خاصة قام بها ذلك الأمير مدة ولايته الثانية على مصر كشق الترع وبناء الجسور وإقامة الأبنية وغيرها، ولو طال عمره فى هذه الولاية لما ضن علينا التاريخ بذكر كثير من إصلاحاته، إذ من المعقول أن مدة الثلاث أو الأربع سنوات التى مكثها فى مصر لا تكفى أكبر قائد حربى ومصلح عظيم لإطفاء شعلة هذه الفتن التى كانت ضارية أطنابها فى البلاد، لانقسام أهلها واختلاف ميولهم نحو معاوية وعلى، فكان لكل منهما شيعة وأنصار.

وقد ذكر المسعودى أن عمرو بن العاص دخل يوماً على معاوية بعد ما كبر ودق ومعه مولاه وردان فأخذنا فى الحديث وليس عندهما غير وردان فقال عمرو: «يا أمير المؤمنين ما بقى مما تستلذه؟» فقال معاوية: «أما النساء فلا أرب لى فيهن، وأما الثياب فقد لبست من لينها وجلدها حتى وهى بها جلدى فما أدرى أيها ألين، وأما الطعام فقد أكلت من لينه وطيبه حتى ما أدرى أيه ألذ وأطيب، وأما الطيب فقد دخل خياشيمى منه حتى ما أدرى أيه أطيب، فما شئ ألد عندى من شراب

١- ذكر الطبرى أن عمرو بن العاص كان مع معاوية حين تسليم الحسن بن على الأمر إلى معاوية، وحين جرى الصلح بين معاوية وقيس بن سعد بعد أن امتنع هذا عن بيعته.

بارد فى يوم صائف، ومن أن أنظر إلى بنى وبنى بنى يدورون حولى،
فما بقى منك يا عمرو؟ فقال: «مال أغرسه فأصيب من ثمرته وغلته»
فالتفت معاوية إلى وردان فقال: «ما بقى منك يا وردان؟» فقال: «صنيعة
كريمة سنية أعلقها فى أعناق قوم ذوى فضل وأخطار يكافئوننى بها
حتى ألقى الله تعالى وتكون لعقبى فى أعقابهم بعدى».

وإننا نقف مما ذكره المسعودى على مبلغ ميل عمرو لا استثمار
المال، ولا غزو فقد نشأ تاجراً فنما فى نفسه حب الكسب منذ نعومة
أظفاره حتى إذا ما وصل إلى مرتبة الأمراء لم يقف به هذا المركز عن
مباشرة مهنة التجارة ابتغاء الكسب وتنمية ثروته.

وقد ذكر الطبرى أن معاوية بن أبى سفيان ولى عبد الله بن عمرو
ابن العاص على الكوفة فأتاه المغيرة بن شعبة وقال «استعملت عبد الله
ابن عمرو على الكوفة وعمراً على مصر فتكون أنت بين لحى الأسد،
فعرّله عنها، واستعمل المغيرة، ولما بلغ عمراً ذلك أراد أن يكيد للمغيرة
فدخل على معاوية وقال له «استعملت المغيرة على الكوفة؟» فقال:
«نعم» فقال عمرو «أجعلته على الخراج» فقال: «نعم» فقال عمرو:
«تستعمل المغيرة على الخراج، فيغتال المال فيذهب فلا تأخذ منه شيئاً،
استعمل على الخراج من يخافك ويهابك ويتقيك» فعزل المغيرة عن
الخراج واستعمله على الصلاة، فلقى المغيرة عمراً فقال: «أنت المشير
على أمير المؤمنين بما أشرت فى عبد الله» قال: «نعم» فقال عمرو:
«هذه بتلك».

ومن أخباره مع معاوية والأنصار ما رواه صاحب الأغاني (ج ١٤)
ص ١٢٢) قال: حضرت وفود الأنصار باب معاوية بن أبى سفيان،
فخرج إليهم حاجبه فقالوا له «استأذن للأنصار» فدخل عليه وعنده

عمرو بن العاص فاستأذن لهم. فقال له عمرو: «ما هذا اللقب يا أمير المؤمنين؟ أردد القوم إلى أنسابهم» فقال الحاجب: «هى كلمة إن مضت عرتهم ونقصتهم، وإلا فهذا اللقب راجع إليهم» فقال له عمرو: «أخرج فقل من كان ههنا من ولد عمرو ابن عامر فليدخل» فقال الحاجب، فدخل ولد عمرو بن عامر كلهم إلا الأنصار فنظر معاوية إلى عمرو نظر منكر فقال له: «باعدتَ جداً» فقال: «أخرج فقل من كان ههنا من الأوس والخزرج فليدخل» فخرج فقالها، فدخلوا يقدمهم النعمان بن بشير الأنصارى وهو يقول:

يا سعد لا تجب الدعاء فما لنا	نسب تجيب به سوى الأنصار
نسب تخيره الإله لقومنا	أثقل به نسباً إلى الكفار
إن الذين ثوروا بـبدر منكم	يوم القليب هموا وقود النار

فقال معاوية «لقد كنا أغنياء عن هذا». ولا ندري إن كان عمرو أراد بهذا المباحدة بين معاوية والأنصار إتماماً لمقاصده السياسية فى إغرائهم بمعاوية، أو هو يريد الحط من قدر الأنصار فقط لأنهم شايعوا على بن أبى طالب أيام الفتنة، ونرجح أنه إنما أراد أن يحط من قدر الأنصار لأنهم أساءوا إلى قريش حين نصرروا النبى صلى الله عليه وسلم، وهذا يدل على ميل نفر من المسلمين فى هذا العصر إلى ما كان مألوفاً فى الجاهلية من العصبية.

هـ - وفاة عمرو

إلى هنا انقضت ولاية عمرو الثانية على مصر بانقضاء أجله، فاغتالت يد المنون رجالاً من شجعان العرب وأبطالهم ودهاتهم، كان غرة فى جبين الإسلام. ذاهمة عالية، وإقدام على المكاره فى سبيل الوصول إلى متمناه، اشتهر بتحبيه إلى أهل مصر ببذل العدل فيهم فأحبوه وخضعوا له فى ولايته الأولى والثانية حتى مات، وفى يوم عيد الفطر سنة ٤٣ للهجرة هبط نجم من النجوم الساطعة، وتقوض ركن من أركان الدين، وانكسفت شمس سعادة مصر، وأفعمت قلوب الأهلىين حزناً وكمدًا، فبكوا فى فقد عمرو العدل والوفاء والجد والشجاعة والإقدام، فكان هذا اليوم من أيام مصر المشهودة خيم فيه الحزن فى جو البلاد قاصيها ودانيها.

روى ابن عساکر قال: حضرنا عمرو بن العاص وهو فى ساعة الموت، فولى وجهه إلى الحائط وجعل يبكى طويلاً فقال له ابنه «ما يبكيك أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا، أما بشرك بكذا؟» فأقبل عمرو بوجهه وقال: «إن أفضل ما يعد على شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ولكنى قد كنت على أطباق ثلاث، قد رأيتنى وما أحد من الناس أبغض إلى من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أحب من أن أتمكن منه فأقتله، فلو مت على تلك الطبقة كنت من أهل النار، فلما جعل الله الإسلام فى قلبى أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبایعه فقلت: أبسط يدك لأبایعك، فبسط يده، ثم أنى قبضت يدي فقال: (مالك يا عمرو؟) فقلت: أردت أن أشرط. فقال: (تشترط ماذا؟) فقلت: أن تغفر لى ما تقدم. فقال: (أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان

قبله؟) فبايعته، فما كان أحد أجل فى عينى من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو سئلت أن أنعته ما طقت، لأنى لم أكن أطيق أن أملاً عينى منه إجلالاً له، فلو مات على تلك الطبقة لرجوت أن أكون من أهل الجنة، ثم ولينا أشياء بعد فلست أدرى ما حالى فيها، وقال لبنيه: «إن أنا مت فلا تتبعبنى نائحة. فإذا دفنتمونى فى قبرى فسنوا على التراب سنّاً^(١) فليس جنبى الأيمن أولى بالتراب من الأيسر، ولا تجعلوا فى قبرى خشبة ولا حجراً، فإذا فرغتم من دفنى فأقيموا عند قبرى قدر ما ينحر جزور، ويقسم لحمها. فأنى أستاذنس بكم حتى أعلم ماذا أراجع به رسل ربى» ثم قال لبنيه: «يا بنى ما تغنون عنى من أمر الله شيئاً» قالوا: «يا أبت إنه الموت ولو كان غيره لو قيناك بأنفسنا» فقال: «أُسندونى» ثم قال وقد استقبل القبلة: «اللهم إنك أمرتنا فعصينا ونهيتنا فارتكبنا، وهذا مقام العائذ بك فأن تعف فأنت أهل للعفو، وإن تعاقب فيما قدّمت يداى، اللهم لا قوى فأنتصر، ولا برى فأعتذر، ولا مستكبر بل مستغفر. استغفرك وأتوب إليك، ولكن لا إله إلا الله، فما زال يقولها حتى مات فى يوم الفطر من سنة ٤٣ للهجرة^(٢).

وهذا يدل على أن عمرًا كان يعلم أنه بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم لم يتخذ الدين وحده غاية لحياته السياسية، وإنما كانت له أهواء وأغراض أثرت فيه وأحس ساعة الموت ندمه فاستغفر منها وتاب.

روى فى كتاب (حياة الحيوان الكبرى - باب وعل) أن عمرو بن العاص لما حضرته الوفاة قال له ابنه «يا أبتاه إنك كنت تقول لنا، ليتنى كنت ألقى رجلاً عاقلاً لبيباً عند نزول الموت به حتى يصف لى ما يجد، وأنت ذلك الرجل فصف لى الموت». فقال: «يا بنى، والله كأن السماء قد

١ - أى صبه صباً.

٢ - ابن خلكان (ج ٢ ص ٤٠٥)، والعقد الفريد (ج ٢ ص ٤)، والمعارف لابن قتيبة (ص ٩٦)، والمستطرف فى كل فن مستظرف (ص ٣٢٩).

أطبقت على الأرض وكأني أتنفس من سم إبره وكان غصن شوك يجذب
من قدمي إلى هامتي» ثم قال:

ليتنى كنتُ قبل ما قد بدا لي في رؤوس الجبال أرعى الوعولاً^(١)
وقد قال فيه الشاعر:

ألم تر أن الدهر أخذت صروفه على عمرو السهمى تجبى له مصر
فلم يغن عنه حزمه واحتياله ولا جمعه لما أتيج له الدهر
وأمسى مقيماً بالعراء وضللت مكايده عنه وأموله الدثر
وقد خلف عمرو على ما ذكره المسعودي ثلاثمائة وخمسة
وعشرين ديناراً، ومن الورق (الفضة) ألفى ألف درهم (٢,٠٠٠,٠٠٠)
وضيعته المعروفة بالرهط وقيمتها عشرة آلاف درهم.

وروى ابن عساكر أنه كان يقيم كروم الرهط (يستان له بالطائف)
بألف ألف خشبة كل خشبة بدرهم عدا الدور العديدة التي كان يمتلكها
في مصر ودمشق. وقال صاحب كتاب «حياة الحيوان»: وخلف عمرو
من المال سبعين بهاراً دنانير (والبهار جلد ثور يسع أردبين)، وكان عند
حلول أجله أخرجه وقال: من يأخذه بما فيه؟ فأبى ولداه أخذه، فبلغ
معاوية فقال: «نحن أحق بهذه الأموال التي جمعها أبوك لدفع العدو،
فأخذها وأدخلها في بيت المال».

وأما نحن فنجزم بأن هذا القول غير صحيح، إذ يلزم أن يكون
عنده مائة وأربعون أردباً من الذهب تأخذ فراغاً يزيد على عشرين متراً
مكعباً، وهي تبلغ أكثر من أربعين مليوناً من الجنيهات أو ثمانين إلى
مائة مليون دينار. ومحال أن يجمع عمرو بن العاص هذا المبلغ من
مصر في أقل من عشرين سنة إلى أربعين باعتبار أنها في يده يأخذ
ما زاد عن عمارتها وأعطيها جندها.

١ - يقول بطريرك (ص ٤٩٤) إن ابن عباس هو الذي طلب من عمرو أن يصف له
الموت، ويعيد أن ابن عباس كان في مصر في ذلك الوقت.

و - قبر عمرو

اتفق أبو المحاسن وابن قتيبة وابن الزيات في كتابه «الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة ص ٨٥) والدميرى في كتابه «حياة الحيوان - باب وعل» على أن عمرو بن العاص دفن بسفح المقطم في ناحية الفخ وكان طريق الناس إلى الحجاز.

وقد اختلف في قبره فقال صاحب كتاب (المزارات المصرية) إن قبر عمرو بن العاص غربي قبل الإمام الشافعى والموضع الذى به يسمى مقابر قريش. وقال غيره: هو غربي الخندق وشرقى المشهد^(١).

وقيل أيضاً: هو القبر الكبير المشار إليه بقبر القاضى قيس، والمستحب لمن زار هذا المكان أن يحضر قلبه ويخلص نيته فإنه مكان مبارك. وإذا صح ما ذكره صاحب (كتاب المزارات المصرية) أمكن تعيين قبر عمرو بالضبط، وفي هذا المكان قبر يعرف الآن بقبر «سيدنا عمرو بن العاص».

على أننا نرى أن موضع قبر عمرو لا بد أن يكون قد لعبت به يد النسيان منذ قرون طويلة، فظل التاريخ فى سكون تام، بحيث يصعب كشف اللثام عن حقيقة هذا الموضوع لاقتلاع كثير من أحجار المقطم، فلم يعد لموضعه أثر تقريباً، ولا ننسى قول عمرو حين حضرته الوفاة «وسنوا على التراب سنًا، ولا تجعلوا فى قبرى خشبة ولا حجراً، مما يدل على أن قبر عمرو لم يعد له أثر تقريباً، أضف إلى ذلك ما ذكره بطر (ص ٤٩٤) أن مدينة الفسطاط التى أسسها عمرو بن العاص قد

١ - بنى على حافته الشرقية قبر الإمام الشافعى، والمشهد هو مشهد السيدة أمية ابنة موسى الكاظم.

اندثر معظم أبنيتها تحت الأرض، فلم يعد يظهر منها إلا القليل من المباني كجامع عمرو الذى يدل على موضع بنائه الأصلي، وبقرية قصر الشمع وغيره من الأبنية التى يرجع عهد بنائها إلى الروم.

على أن الاهتداء إلى بعض أسوار مدينة القسطنطينية التى ظهر بعضها بالحفر والتنقيب. لا سيما الباب الذى خرج منه المقوقس لمقاومة عمرو مما يزيد أملنا فى العثور على الموضع الذى دفن فيه عمرو بن العاص لكى نحدد بناء هذا القبر بما يليق بمقام عمرو، ونستأنس بقبره فنذكر تاريخ حياته وما قام به من الأعمال الجليلة.

وقد روى ابن الزيات أن عمرو بن العاص وعقبة بن عامر الجهنى فى قبر واحد، وقيل إنهم ثلاثة فى قبر واحد، وهم عقبة وعمرو وأبو بصرة الغفارى.

{ الخاتمة }

إلى هنا انتهى بنا البحث والتنقيب بعد طول الجهد ومواصلة العمل فى حياة عمرو بن العاص رضى الله عنه؛ ذلك العربى الصميم والقائد العظيم والسياسى المحنك، ونرجو أن يكون القارئ قد ألم بشئ كثير من مآثر هذا الرجل، ووقف على أدوار حياته وما قام به من الأعمال الجليلة والمآثر العظيمة.

هنالك صلة كبيرة بين عظماء الرجال وبين الظروف التى ينشأون عليها، ويشبون فى أحضانها؛ فمن هؤلاء من يهيء الظروف، ومنهم من تلد هذه الظروف، فتظهر مواهبهم للعالم جلية ناصعة، تلك المواهب التى تكمل التاريخ، وذلك من فتح الفتوح وتمصير الأمصار أو العمل على تحرير بلادهم، وغير ذلك مما يبقى أثراً خالداً على كراياهم ومر الأعوام، فمثلاً «نابليون» فهو وليد الثورة الفرنسية غير الحالة السياسية والاجتماعية فى فرنسا وفى غيرها، وقلب العالم رأساً على عقب.

أما عمرو بن العاص فهو وإن كان قد ولدته الظروف كذلك وأظهرته، فهو وليد الإسلام الذى كونه قائداً محنكاً، وسياسياً قديراً، ووالياً عادلاً، وداهية من أكبر دهاة العالم الذين دوخوا ممالكه، وأقالوا دوله، فلولوا الإسلام ما ظهرت مواهب هذا الرجل وما أوتيته من جليل الصفات إلى هذا الحد، فبعد أن كانت تلك المواهب محصورة فى دائرة ضيقة أصبح وقد اتسعت أمامه دائرة العمل فتجلت سجاياه ومواهبه فى ميدان فتوحه الواسعة للبلاد التى غزاها، وفى كفاءته لإدارة شؤونها، والعمل على ترقيتها وترقية أهلها. إلا أنه امتاز عن هؤلاء العظماء بأنه قد ولد بعض الظروف، فهو الذى سعى لفتح مصر ففتحها وطرد الروم منها، وكان السبب فى نشر الإسلام فى أرجائها تدريجاً، فنبه ذكره، وسما قدره، وعظم شأنه، وكتب فى سمائها أكبر مثل يسطره له التاريخ إلى أبد الدهر.

وقد امتاز عمرو بين قومه بمزايا عديدة ظهر أثرها فى أعماله ظهوراً بيناً، وتجلت صورتها للناس كلما ذكر اسمه، فكانت ذات أثر كبير فى أحوال الأمة الإسلامية: الدينية والسياسية والحربية والاجتماعية. وتحليل نفس عمرو يعرف المرء الصلة بين مواهبه وبين هذه الأحوال - تلك النفس التى حللناها فيما مررنا به من استقصاء أخباره، وتتبع آثاره، وذكر أقواله الماثورة وحكمة التالدة. ولا ريب فى أن اسم عمرو بن العاص قد ملأ كل مكان استغنى عن تعريفه بنسب أو حسب، وأصبح معروفاً لدى جميع طبقات العالم الإسلامى، ولا يجهل هذا الاسم أحد لانفراده بتلك الماثرة العظيمة - ماثرة فتح مصر وانتزاعها من قبضة الروم - مما أضحى له موضع أعجب العالم جميعاً. لا سيما مؤرخى الفرنجة الذين اشتغلوا بتاريخ الفتوح الإسلامية، ولا نبالغ إذا قلنا إن عمرو بن العاص كان نادرة فى عصره، وحسنة من حسنات الدهر، وهادياً من هداة الإسلام، وليثاً من ليوث العرب الذين أسسوا عظمة بلادهم، فنهضوا بها إلى أوج السعادة.

وقد رأيت مكانة عمرو من الشرف فى قریش فى الجاهلية واحترام العرب له، فلما أسلم حفظ له النبى صلى الله عليه وسلم شرف تلك المكانة. فتأدب عمرو بأدابه عليه السلام، فسمح بنفسه، وأخلص للرسول الخدمة، ولم تفت النبى صلى الله عليه وسلم شجاعة عمرو وإقدامه، فولاه على جند المسلمين فى غزوة ذات السلاسل، ولا غرو إذا كان النبى عليه السلام مصيباً فى اعتقاده. فقد كان عمرو موفقاً للنصر فى جميع المواقع التى اشترك فيها، فانتصر فى غزوة ذات السلاسل وغزوة سواع، وفى وقائعه مع أهل الردة، وفى اشتراكه فى حروب الشام وفلسطين، وفى مصر وبلاد المغرب، وهذا ولا ريب من نتائج الحزم والشجاعة والبصيرة بأمور الحرب. وحسبك دليلاً على شجاعته مخاطبته جيفراً وعباداً ابنى الجندى وكذا مخاطبته قرّة بن هبيرة،

وقذفه بنفسه فى معامع الوقائع غير هياب ولا وجل، وكيف كان يعرض نفسه للأخطار فى كثير من المواقع التى قاتل فيها، وكيف كان يحمل اللواء ويقاىل بنفسه، وكيف سبق خالد بن الوليد إلى أخذ الراية فى موقعة اليرموك. تلك الموقعة التى جنى المسلمون ثمار الانتصار فيها، لاتباعهم مشورته والعمل برأيه باجتماع وحدات المسلمين فى مكان واحد، ليكونوا قوة واحدة يدفعون بها العدو وينتصرون عليه، وقد كان من وراء رأيه السديد انتصار العرب فى هذه الموقعة وفى غيرها من المواقع حتى كان النصر.

أما حبه للجهاد فقد كان يفوق الوصف - ذلك الحب الذى استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيمًا، حتى كان يتسابق إليه غير مبال بجموع أعدائه مهما كثرت، وقوة جنده مهما قلت، وأن محاولته فتح مصر بأربعة آلاف مقاتل أو أقل لأقوى دليل وأسطع برهان على صحة ما نقول.

وكان عمرو من دهاة العرب المشهورين، وقد قرأت صحف دهائه عند النجاشى حين أوقع بعمارة بن الوليد، وانظر كيف أوقع التفريق فى صفوف على فى موقعة صفين، وقد أشرف جيش على على الانتصار، وكيف تغلب بما أوتي من ضروب الحيل وفنون الدهاء على أبى موسى عند عقد التحكيم وغير ذلك من أخباره فى الدهاء التى يقف أمامها المرء حائراً. لهذا العقل البشرى والذكاء الإنسانى الذى نل أمثال تلك الصعوبات، وفك أعقد العقد حتى هدت حيله عزائم الجحافل فتبددت آمال الرجال وأقطاب السياسة. ومما يدل على دهائه أيضاً ما روى عنه أنه عند استيلائه على مصر كان يتنكر ويخرج وحده متشبهاً بالرجل من عامته ليرى ما عليه القبط من النية للمسلمين، فتمادى به السير راجلاً حتى لحق بطرف الفسطاط فرأى جماعة قد التابت على سوء منه فقال لهم «إعملوا بى كل ما تؤثرون من السوء ولا تردونى إلى يد

الأمير فأنى هربت منه» فقال بعضهم ردوه فإنه يقتله يكون لكم بذلك عارفة عند الأمير» فساقوه إلى دار الإمارة فأخذ يتضور ويتأبى فى سياقته حتى قرب من الدار، فقام إليه الشرط فقال: «لا يفوتنكم منهم أحد، فجمعوا له عن آخرهم».

وكان عمرو من شيوخ قريش فى الجاهلية، فلما أسلم أثر الإسلام فى نفسه فاقتلع منها كثيراً من رذائل الجاهلية، فألبست تلك النفس ثوب الفضيلة، وتجلت عن حسن خلقه، مما كان له نصيب وافر فى تقدم الإسلام ونصرته، فأصبحت نزاعة إلى مكارم الأخلاق فتجلى فيها الحلم وطهارة السريرة والرجوع إلى الحق وتكفيره عن خطئه بأجلى مظاهرها، يدلك على ذلك ما رواه ابن عساکر عن الشعبى عن قبيصة قال: «صحبْتُ عمرو بن العاص فما رأيت أبين طريقاً، ولا أكرم جليساً، ولا أشبه سريرة بعلائية منه» وما رواه أبو المحاسن أنه تصادف أن وقع بين عمرو والمغيرة بن شعبة كلام فاستشاط عمرو غضباً وقال له: «يا آل هصيص أتسبني؟» فقال له عبد الله ابنه «إنا لله. دعوتَ بدعوة القبائل وقد نهى عنها!!» فندم عمرو على ما فرط منه وكفر عن خطئه بأن أعتق ثلاثين رقبة. وقد كان تقياً فخشى عقاب ربه، وخاف هول اليوم الآخر فتمنى لو سلبه الله ماله أو أكله ولده أو نزع منه سلطانه رجاء عدم تعذيبه بالنار، روى عن ربيعة عن لقيط قال: سمعت عمرو بن العاص يصلى بالليل وهو يبكى ويقول: «اللهم أتيت عمراً مالاً فإن كان أحب إليك أن تسلب عمراً ماله ولا تعذبه بالنار فاسلبه ماله، وإنك أتيت عمراً أولاداً فإن كان أحب إليك أن تثكل عمراً ولده ولا تعذبه بالنار فاثكله ولده، وإنك أتيت عمراً سلطاناً فإن كان أحب إليك أن تنزع منه سلطانه، ولا تعذبه بالنار فانزع منه سلطانه».

ونعتقد أن هذا كان فى آخر أيامه حين مرت به ساعة حاسب فيها نفسه على ما أتى فى أيام الفتنة بعد أن سكنت النفس، وثاب إليها الرشد

وعلم أن الله تعالى سائله عما احتقب فى دنياه، فعاد على نفسه باللوم، وتمنى الخروج من كل ما أوتى، إذا كان ذلك كفارة عما غمس يده فيه، وهو ندم ظاهر ترجى معه المغفرة لمن يقبل المثوبة من عباده، ويعفو عن السيئات إنه هو التواب الرحيم.

وكان عمرو لطيف الأخلاق طيب الفكاهة، أراد معاوية أن يختبر بديهته يوماً فقال عمرو «أخرج من عندك» فأخرجهم معاوية فقال عمرو: «يا أمير المؤمنين أسارك» فأدنى معاوية رأسه منه، فقال عمرو: «من معنا فى البيت حتى أسارك؟».

أما سياسة عمرو فلم تخف على العرب فى جاهليتهم قدرته فيها، فندبوه ليكون رسولهم إلى النجاشى، وندبه النبى صلى الله عليه وسلم بعد إسلامه ليكون رسوله لدى ملك عمان، ولا يعزب عن النا حسن سياسته فى مصر، وكيف ألف بين قلوب المصريين واستمالهم إليه وسار معهم على نهج العدل، وسعى فى ترفيه حالهم وترقية شؤونهم ورعى معهم حرمة العهود والمواثيق، وإن ذكرى موقعة صفين لا تزال ترجف لاسمه هيبة - تلك الموقعة التى أشرف فيها جيش على الانتصار فلم يثن ذلك من عزيمة عمرو، وسرعان ما ابتكر من ضروب الحيل ما أوقع بجند على فائقسموا على أنفسهم وغلبوا على أمرهم، وقد كان من وراء تلك السياسة ما فصلناه.

هذه هى نفس عمرو وقد حللناها تحليلاً، ونحن نرجو أن نكون قد وفقنا إلى إثبات أن عمراً قد كان أحسن مثال للعربى فى هذا العصر الذى ظهر فى الإسلام وانتشر وامتدت فتوحه، فكان ممن أعان على ظهوره وانتصاره، وكان من غير شك أحد المؤسسين لدولة العرب التى لن يزال اسمه مقروناً بها.

فرحم الله عمرو بن العاص رضى الله عنه، ورحم من ترحم عليه.

تم بحمد الله

{ مصادر الرسالة }

تنقسم أهم المصادر التي رجعنا إليها في رسالتنا إلى قسمين:
عربية وأجنبية، ومن المصادر الأجنبية: الإنجليزية: الإنجليزى والفرنسى.

(١) المصادر العربية

اسم المؤلف	اسم الكتاب
ابن الأثير:	الكامل فى التاريخ. طبع مصر سنة ١٣٠١هـ.
ابن الزيات:	الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة.
ابن اسحق:	فتوح مصر وأعمالها. مصر سنة ١٢٧٥هـ.
ابن برهان الدين:	السيرة الحلبية. ثلاثة أجزاء.
ابن حجر:	الإصابة فى تمييز الصحابة. مصر سنة ١٢٧٥هـ.
ابن خلدون:	العبر وديوان المبتدأ والخبر. بولاق سنة ١٢٨٤هـ.
ابن خلكان:	وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. مصر سنة ١٣١٠هـ.
ابن دقماق:	الانتصار لواسطة عقد الأمصار. القاهرة سنة ١٨٩٣م.
ابن طباطبا:	الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية. مصر سنة ١٣١٧هـ.
ابن عبد الحكم:	فتوح مصر. طبع بمجلس المعارف الفرنساوى.
ابن عدي ربه:	العقد الفريد. ٣ أجزاء.
ابن قتيبة:	(١) كتاب المعارف. (ب) الإمامة والسياسة.
ابن هشام:	سيرة ابن هشام. مصر سنة ١٣٢٩هـ.
أبو الفرج:	مختصر تاريخ الدول. بيروت.
أبو المحاسن:	النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة: ليدن سنة ١٨٥١م.
البلاذرى:	فتوح البلدان. القاهرة سنة ١٣١٩هـ.
البخدادى:	سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب. بغداد سنة ١٢٨٠هـ.

كتاب الأغاني. مصر سنة ١٣٢٣هـ.	الأصفهاني:
بلوغ الأرب في أحوال العرب. بغداد سنة ١٣١٤هـ.	الأكوسي:
تاريخ الأمم الإسلامية.	الخضري بك:
أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة. مصر سنة ١٢٣١هـ.	رفيق العظم بك:
حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. المطبعة الشرقية.	السيوطي:
الملل والنحل. مصر سنة ١٣١٧هـ.	الشهرستاني:
الأمم والملوك. المطبعة الحسينية المصرية.	الطبري:
الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر.	عبد اللطيف البغدادي:
الخطط التوفيقية. بولاق سنة ١٣٠٦هـ.	على مبارك باشا:
أبو العباس أحمد. صبح الأعشى. المطبعة الأميرية.	القلقشندي:
محمد بن عبد الله. نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب. خط يد.	القلقشندي:
الكامل في اللغة. طبع لايبسك.	المبرد:
مصر في عهد الرومان. مصر سنة ١٩١٦م.	محمود فهمي:
مروج الذهب ومعادن الجوهر. بولاق سنة ١٢٨٣هـ.	المسعودي:
المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار. مصر سنة ١٢٧٠هـ.	المقريزي:
تاريخ مكة. لايبسك سنة ١٨٦١م.	وستنفلد:
معجم البلدان. مصر سنة ١٢٢٣هـ.	ياقوت:
فتوح الشام. مصر سنة ١٣٠٢هـ.	الواقدي:
تاريخ اليعقوبي. لندن سنة ١٨٨٣م.	اليعقوبي:

(ب) المصادر الأفرنجية

اسم المؤلف	اسم الكتاب
Ameer Ali, Sayed:	A Short History of the Saracens, London, 1891.
Amelineau:	a) Fragments Coptes, Journal Asiatique, 1888. b) Geography de l' Egypte a l' Epoque Copte, paris, 1893.
Butler, Alfred J.:	a) The Arab Conquest of Egypt, Oxford, 1902. b) Babylon of Egypt: Oxford, 1914.
Bary, J. B.:	History of the Later Roman Empire, London, 1899.
Caussin de Perceval, A. P.:	Essai l'histoire des Arabes avant l'Islamisme, pendant l'epoque de Mohamet.
Gibbon, Elwarl:	The History of the Decline and Fall of the Roman Empire.
Huart, C. L:	Histoire des Arabes, Paris, 1913.
Irving, Washington:	A History of the Lives of the Successors of Mahomet, London, 1912.
Lane-poole, Stanley:	A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1901.
Le Bon, Justave:	La Civilisation des Arabes, paris, 1884.
Marce, M. J. J:	Egypte, Depuis la Conquete des Arabes, Jus- qu' a la Dominion Francaise, paris, 1848.

اسم المؤلف	اسم الكتاب
Milne, J. Graflon:	A History of Egypt Under Roman Rule, London, 1913.
Muir, Sir William Temple:	The Caliphate; Its Rise, Decline and Fall, Oxford, 1902.
Quatremere, E.:	Journal Asiatique, 1850.
Se lillot, L. B.:	Histoire Generale des Arabes, paris, 1877.
Sharpe, Samuel:	a) Chronology and Geography of Ancient Ejjypt, London 1838. b) A History of Egypt Under the Ptolemies, London, 1849.

هذه السلسلة تضم :

- ١- فتح العرب لمصر
- ١- تاريخ مصر إلى الفتح العثماني
- ٣- الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي
- ٤- تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي
- ٥- تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل
- ٦- تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبل الوقت الحاضر
- ٧- ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا
- ٨- تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا (مجلد أول)
- ٩- تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا (مجلد ثاني)
- ١٠- فتوح مصر وأخبارها
- ١١- تاريخ مصر الحديث مع فزلكة في تاريخ مصر القديم
- ١٢- قوانين الدواوين
- ١٣- تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث
- ١٤- الحكم المصري في الشام
- ١٥- تاريخ الخديوي محمد باشا توفيق
- ١٦- آثار الزعيم سعد زغلول
- ١٧- مذكراتي
- ١٨- الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم
- ١٩- وادي النطرون وريهانه وأديرتة ومختصر البطارقة
- ٢٠- الجمعية الأثرية المصرية في صحراء العرب والأديرة الشرقية
- ٢١- الرحلة الأولى للبحث عن بناييع البحر الأبيض (النيل الأبيض)
- ٢٢- السلطان قلاوون (تاريخه - أحوال مصر في عهده - منشاته المعمارية
- ٢٣- صفوة العصر
- ٢٤- المماليك في مصر
- ٢٥- تاريخ دولة المماليك في مصر
- ٢٦- سلاطين بني عثمان
- ٢٧- محمود فهمي القزاشي
- ٢٨- دور القصر في الحياة السياسية
- ٢٩- مذكرات اللورد كيلرن
- ٣٠- عادات المصريين
- ٣١- خنقاوات الصوفية ج ١
- ٣٢- خنقاوات الصوفية ج ٢
- ٣٣- تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الملوك والسلاطين
- ٣٤- تاريخ عمرو بن العاص
- ٣٥-
- ٣٦- علاقات الفاطميين في مصر - بدول المغرب

MADBOULI BOOKSHOP

مكتبة مذبول

٦ ميّان طلّعت حَرْب - القَاهِرَة - ت : ٥٧٥٦٤٢١ Tel. : 5756421 6 Talat Harb SQ.